
دوستويفسكي
المزدوج


المركز الثقافي العربي

دوستويفسكي

المُزدَوَج

رواية

ترجمة: الجيلالي مويري



الكتاب

المُزدَوَج

تأليف

دوستويفسكي

ترجمة

الجيلالي مويري

الطبعة

الأولى، 2018

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-889-3

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت - لبنان

ص.ب: 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 - 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com


MuntazerZ
26/02/2019

مقدمة المترجم

في التاسع من أغسطس 1838، كتبَ دوستويفسكي رسالة إلى أخيه الأكبر ميشيل قال فيها:

«لديّ مشروع: أن أصير مجنوناً».

إنها أول رسالة بعث بها إلى أخيه.

لم يكن دوستويفسكي قد تجاوز السابعة عشرة من عمره حين بدأ يفكِّر في كتابة رواية **المزدوج**، إلا أن معاناته مع الفقر التي لن يتخلّص منها إلا سنة واحدة قبل وفاته، كانت قد بدأت. ماتت أمه في السابع والعشرين من فبراير 1837، فوجدَ نفسه، وستة من إخوته وأخواته، بين يدي أب طبيب سكّير عربيد، بخيل وقاس، وغليظ القلب. ألحقه رفقة أخيه الأكبر بمدرسة داخلية ذات نظام صارم. ورغم ذلك فإن تلك المدرسة الداخلية كانت أقل قسوة على الأخوين من أبيهما، وإن عانى دوستويفسكي وأخوه فيها من الفقر والحاجة بسبب بخل والدهما.

ووجد الأخوان عزاءهما في الأدب فأخذا يقرآن كل ما تطاله أيديهما: بوشكين، غوغول، ليرمنتوف، والتر سكوت، هوفمان، شيلر، بلزاك، جورج ساند... هناك، في تلك المدرسة الداخلية اتّضحت ميولات دوستويفسكي الأدبية.

في سنة 1838 سافر الأب رفقة ابنيه فيودور وميشيل إلى سان بطرسبورغ كي يجريا مباراة للالتحاق بفوج الهندسة العسكرية. وعاد الأب إلى موسكو رفقة ابنه البكر ميشيل الذي فشل في الالتحاق بفوج الهندسة لأسباب صحية. أما فيودور ميخايلوفيتش دوستويفسكي الذي نجح في المباراة فكانت تلك آخر مرة يرى فيها والده، لأن هذا الأخير سيُقتل في شهر يونيو من السنة نفسها على يد أقنانه الذين كانوا قد ملوا تحمُّل قسوته وسوء معاملته.

وهكذا وجد الأخوان نفسيهما يتيمَين ومسؤولَين عن خمسة يتامى آخرين مثلهما: ثلاث أخوات وأخوين اثنين.

بعد ثماني سنوات من بداية التفكير في موضوع روايته، وبعد كل تلك المصائب التي عانى منها، ستشرع مجلة **حوليات الوطن** في إصدار رواية **المزدوج** إبتداء في الفاتح من فبراير 1846 (أسبوعين فقط بعد صدور روايته الأولى: **الفقراء**). كان دوستويفسكي قد بدأ الاشتغال على رواية **المزدوج** منذ سنة 1841، وهي السنة التي اتصل خلالها بصديقه الدكتور روزنكوف ليستفسره عن عدة نقط طبّية كانت تؤرقه، واطّلع على عدة مراجع طبّية مختصة.

لقد بلغ تعلق دوستويفسكي بروايته أنه راسل أخاه ميشيل عدة مرات يحدّثه عنها. كتب في إحدى رسائله إلى أخيه في سبتمبر 1845: «. . . أنا السيد غوليادكين الآن. . .»، ممّا يدل على أنه كان قد تماهى مع بطل روايته كما تماهى فلوبير مع بطلة روايته الشهيرة **مدام بوفاري** فقال: «أنا مدام بوفاري». وكتب في رسالة أخرى بتاريخ 8 أكتوبر 1845: «لقد كشف ياكوف بتروفيتش عن وجهه الحقيقي. إنه وغد رهيب، عصي عن الفهم. يرفض أن يتخذ أي قرار بدعوى أنه ليس مؤهّلاً لذلك، وأنه لا يرى جدوى في ذلك

لأنه مطمئنّ لما هو عليه، وأنه بخير، ولا يعاني من أي ازدواجية، وأنه رغم ذلك مستعد لأن يغيّر رأيه إذا ما غيّر الآخرون رأيهم، بل إنه لمستعد أن يمضي معهم إلى حيث يمضون؟ ما الذي يمنعه من ذلك؟ وما أهمية كل ذلك بالنسبة إليه في نهاية المطاف؟ يا له من وغد!... يا له من وغد رهيب». وكتب إليه في اليوم نفسه الذي صدرت فيه رواية **المزدوج** (فاتح فبراير 1846): «لا تلمني على أني لم أكتب إليك منذ مدة طويلة. لم أستطع ذلك، وسأشرح لك السبب: لقد قضيت ما مضى من الأيام إلى غاية الثامن والعشرين من يناير في تنقيح قصة ذلك الوغد غوليادكين».

لا يكمن سبب تلقّي القراء والنقاد رواية **المزدوج** بالنقد والتجاهل، في كونها كتبت على عجل، ولكن لأن رواية **المزدوج** كانت سابقة لعصرها، وطرحت موضوعاً غير مسبوق أو مألوف آنذاك، موضوعاً لم تفهمه حتى أرهف العقول وأشهر الأقلام حينذاك (بلنسكي وتورغينيف مثلاً).

وكان على المشتغلين بالأدب أن ينتظروا تحليل سيغموند فرويد لشخصية شرايبر سنة 1911 كي يكتشفوا أن ما توصّل إليه فرويد يذكّرنا إلى حدٍّ بعيد بما طرحه دوستويفسكي في رواية **المزدوج**.

بعد الهجمة الشرسة على روايته، وبعد سخرية تورغينيف ونكراسوف منه ونعته بـ«الفارس ذي الوجه الحزين»، ابتعدَ دوستويفسكي عن حلقات المثقفين، وعاد بين سنة 1846 و1849 إلى الرواية قصد تعديلها وتقويمها، إلّا أن انشغاله بأعمال أخرى والتزاماته مع ناشره منعاه من إنجاز ما أراد. ورغم اعتقاله سنة 1849 لأسباب سياسية كادت أن تؤدّي إلى تنفيذ حكم الإعدام في حقّه، ورغم قضائه عشر سنوات بين السجن والمنفى (1849-

1860)، فإنه لم ينسَ روايته قط، وعاد إلى تنقيحها ليقدّم للقارئ نسخة جديدة معدّلة، نشرها ضمن أعماله الكاملة سنة 1866.

لم ينسَ دوستويفسكي معاناته المريرة من سوء فهم معاصريه لروايته أبداً، فكتب في يوميات كاتب سنة 1877 (أي أربع سنوات فقط قبل وفاته): «لم يسبق لي قط أن تطرقت لفكرة تعادل في جديتها وعمقها فكرة رواية المزدوج».

إن عبقرية دوستويفسكي، كباقي العبقريات في كل العصور، تكمن في كتاباته التي لا تشيخ أبداً، والتي لا تزيدها السنوات إلا شباباً وتجدداً، وعمقاً، وجاذبية.

حين ستنتهي من قراءة هذه الرواية، ستفهم لماذا قال نيتشه عن دوستويفسكي: «دوستويفسكي هو الكاتب الوحيد الذي تعلمت منه شيئاً من علم النفس».

الفصل الأول

حوالي الثامنة صباحاً استيقظَ ياكوف بتروفيتش غوليادكين، المستشار الرسمي[1]، فأخذ يتثاءب ويتمطّى، ثم فتح عينَيه آخر الأمر. ورغم ذلك لبث مستلقياً على سريره لا يتحرّك دقيقة أو دقيقتين، كما لو أنه لا يدري إن كان قد استيقظ تماماً أم ليس بعد، وأنّ ما يراه حوله حقيقي أم مجرد استمرار لتلك الرؤى التي حبل بها نومه المضطرب. لكن حواس السيد غوليادكين سرعان ما عادت إلى نشاطها اليومي المألوف. فأحس بتلك النظرة المعتادة التي تلقيها عليه حيطان غرفته الصغيرة الخضراء الوسخة، المغطاة بالدخان والغبار، ومنضدته التي من خشب الأكاجو، وكراسيه التي من خشب الأكاجو الأقل جودة، وخوانه المصبوغ بلون خشب الأكاجو، وديوانه التركي المغشى بثوب من المولسكين المائل لونه إلى الأحمر، المُوَشّى بزهيرات خضراء، وثيابه التي خلعها بالأمس على عجل ورماها مكومة فوق الديوان. ألقى النهار الخريفي العكر حائل اللون على السيد

(1) سنة 1722 قام بيير الأكبر بإصلاح إداري تمَّ خلاله ترتيب الموظفين الحكوميين، على غرار الموظفين العسكريين، إلى أربع عشرة رتبة. ويقع المستشارون الرسميون في المرتبة التاسعة من ذلك الترتيب.

غولیادكين نظرة عدوانية مصحوبة بتكشيرة عابسة من خلال نافذة غرفته الكئيبة، فتأكد أنه ليس في عالم الرؤى والأحلام، وإنما في العاصمة سان بطرسبورغ، في شارع «الدكاكين الستة»، في شقته المؤجّرة بالطابق الثالث من عمارة كبيرة. حين أدرك السيد غولیادكين هذه الحقيقة عاد إلى إغماض عينيه بوهن، وكأنه يأسف على تبدد حلمه الليلي، ويرغب في أن يسترجعه ولو للحظة قصيرة. لكنه سرعان ما قفز مغادراً سريره بعد أن اهتدى إلى تلك الفكرة التي حامت حولها أفكاره، والتي بقيت إلى تلك اللحظة مشوشة مبعثرة. فهرع نحو مرآة صغيرة مستديرة فوق المنضدة. رغم أن الوجه المربد ذي العينين المثقلتين بالنعاس، والصلعة الزاحفة، لا يتميز بأي شيء خاص، ولا يثير انتباه أحد، فإن صاحبه بدا راضياً عنه كل الرضا. «يا للفظاعة»، همس السيد غولیادكين، «ماذا لو كان قد حدث ما يكدر صفو هذا الصباح، لو كان حدث ما يزعجني، كأنْ أجد على وجهي دملاً ما مثلاً، أو أن يقع أي شيء آخر مزعج... من يدري؟ فكل شيء ممكن، حسناً، إلى الآن لم يحدث أي شيء، ما زال كل شيء على ما يرام حتى الآن». بدا السيد غولیادكين سعيداً لأن كل شيء على ما يرام. أعاد المرآة إلى مكانها، وهرع نحو النافذة رغم أنه كان حافي القدمين ولا يرتدي إلا ملابس النوم المعتادة. فأخذ يبحث بعينيه عن شيء ما في فناء العمارة الذي تطل عليه نافذة منزله باهتمام كبير. ويبدو أنه فرح بما رآه، فأخذ يبتسم وجلاً. ثم أخذ يقترب من الخوان على أطراف أصابعه، بعد أن ألقى نظرة على ما وراء الستار[1] حيث

---

(1) كانت الإمكانات المادية المحدودة آنذاك لا تسمح للموظفين المتوسطين باكتراء شقق ذات غرفتين أو أكثر، فيكتفي من لديه خادم بأن يسكن معه في =

ينام خادمه بتروشكا فلم يجده. فتح أحد جوارير الخوان، وأخذ يبحث داخله إلى أن وقعت يده على محفظة خضراء بالية تحت كومة أوراق صفراء وسخة. فتح المحفظة بحذر، وألقى على ما فيها نظرة شغوفة. قد تكون كومة الأوراق النقدية الخضراء، والرمادية، والزرقاء، والحمراء، وغيرها ممّا اشتملت عليه المحفظة، قد خصّت السيد غوليادكين بنظرة مرحّبة لطيفة، نظرة جعلته يبدو مشرق الوجه حين وضعها أمامه فوق الخوان وهو يفرك يديه معبِّراً عن سعادته الكبرى. أخرج السيد غوليادكين الأوراق النقدية من المحفظة، وأخذ يعدّها مرة أخرى، بعد أن عدّها حوالي مئة مرة أمس، ويلامس كل ورقة منها بين السبابة والإبهام. ولمّا انتهى أخذ يتمتم: «سبعمئة وخمسون روبلاً... إنه مبلغ محترم... مبلغ ممتع... مبلغ من شأنه أن يسعد الكثيرين... لا أعتقد أن مثل هذا المبلغ قد يبدو تافهاً في عيني أي شخص... إن مبلغاً كهذا من شأنه أن يدفع بالإنسان إلى الأمام، أن يأخذه بعيداً...».

«ماذا جرى؟ أين ذهب بتروشكا؟»، تساءل السيد غوليادكين فجأة، وتوجّه نحو الستار، دون أن يغيّر ملابسه، كي يلقي نظرة مرة أخرى. لم يكن بتروشكا هناك، لم يكن هناك إلا الساموفار. كان هذا الأخير قد وُضع على الأرض، وتُرك وحده يغلي، ويهدّد بأن يهرب في أية لحظة، ويردد بغضب ولذة، بلهجته الخاصة، شيئاً من هذا القبيل: «خذوني أيها الناس الطيبون، ألا ترون أني جاهز ومستعد؟».

= نفس الغرفة بعد أن يضع بينهما ستار، بل كان مألوفاً آنذاك أن يكتري الشخص ركناً واحداً في غرفة إلى جانب أشخاص آخرين يكترون الأركان الثلاثة الأخرى.

«فليذهب إلى الجحيم»، قال السيد غوليادكين في نفسه، «إن هذا الحيوان الكسول لقادر على أن يخرج أي شخص عن طوعه: أين تأخَّرَ؟». وتوجّه نحو المدخل، الذي هو عبارة عن ممر صغير ينتهي عند باب يطل على السلَّم. فتح الباب قليلاً فإذا به يرى خادمه وسط جماعة من سكان المنزل ومن الخدم. كان يتكلم وهم يستمعون إليه. ويبدو أن موضوع حديثه، بل حديثه نفسه، لم يرق السيد غوليادكين، فناداه على الفور، وعاد إلى الغرفة مستاء غاضباً. «إن هذا الحيوان الوسخ لقادر على أن يبيع أي شخص بأقل من كوبك واحد، خاصة مولاه»، قال في نفسه، «بل لقد باعني فعلاً، أكيد أنه باعني، أراهن على أنه باعني بأقل من كوبك واحد».

- ما الجديد؟

- أحضَروا البذلة يا سيدي.

- اِلبسها وتعال.

ارتدى بتروشكا البذلة، وخرج من خلف الستار متقدِّماً نحو سيده وهو يبتسم ابتسامة بلهاء. كانت بذلته غريبة إلى أبعد الحدود. إنها بذلة خضراء، شبيهة بتلك التي يرتديها الخدم في منازل الأغنياء، إلا أنها كانت بالية جداً، وذات شرائط مذهّبة حائلة. بدا واضحاً أنها فصِّلت لرجل أطول من بتروشكا بنصف متر. كان يحمل بيده قبعة ذات شرائط مذهّبة هي الأخرى ومزيَّنة بريش أخضر، ويتدلى على جنبه سيف ذو غمد جلدي. وبالإضافة إلى ذلك، ولكي تكتمل الصورة، فإن بتروشكا الذي اعتاد على أن يحتفظ بملابسه المنزلية المهملة حيثما ذهب، كان حافي القدمين في تلك اللحظة. تفحّص السيد غوليادكين خادمه من كل جانب، فبدا مسروراً. كانت البذلة قد استؤجرت من أجل مناسبة هامة. وبدا أيضاً أن بتروشكا

كان يتطلع إلى سيده، أثناء تفحّصه للبذلة، بنوع من الانتظار، ويتابع حركاته بنوع من الفضول غير المعهود، ما جعل السيد غوليادكين يشعر بكثير من الارتباك.

- طيب. . . والعربة؟
- وصلت العربة أيضاً.
- للنهار كله؟
- نعم، للنهار كله. مقابل خمسة وعشرين روبلاً.
- والحذاء ذو الرقبة، هل أحضروه أيضاً؟
- نعم، أحضروه.
- ألا تستطيع أن تقول: «نعم يا سيدي» أيها الوغد؟ أرني الحذاء.

رأى السيد غوليادكين أن الحذاء جاهز فعلاً، فسرّه ذلك. وطلب من خادمه أن يحمل إليه شاياً، وأن يعدَّ ما يجب إعداده للاغتسال والحلاقة. حلق وجهه بعناية، واغتسل، وشرب الشاي على عجل كي يفرغ في النهاية للمهمة الرئيسة المتعلّقة بارتداء ملابسه. ارتدى سرواله شبه الجديد، وقميصاً ذا أزرار برونزية، وصدرية مزيَّنة بأزهار برّاقة تسرُّ الناظرين، وعقد حول عنقه ربطة من حرير موشّاة، ثم لبس لباس الوظيفة الرسمي الذي كان قد أعاد العناية به ونظّفه. كان، وهو يرتدي ثيابه، ينظر إلى حذائه نظرات عاشقة، فيرفع الرجل اليمنى تارة والرجل اليسرى تارة أخرى، متلذِّذاً بجماله، متأمّلاً إياه تأمُّلاً مصحوباً، من حين إلى آخر، بحركات معبِّرة عن الإعجاب. ورغم كل ذلك، فإن السيد غوليادكين كان شارداً تماماً ذلك الصباح، إلى درجة أنه لم ينتبه إلى تلك الابتسامات والحركات التي كانت تصدر عن بتروشكا أثناء مساعدته

على ارتداء ثيابه. بعد أن أنهى استعداده كما ينبغي، وبعد أن ارتدى كامل ثيابه، وضع السيد غوليادكين محفظته في جيبه، وألقى نظرة لا تخلو من إعجاب على بتروشكا الذي كان قد أصبح جاهزاً، هو الآخر، بعد أن انتعل حذاءه. عندما تأكّد السيد غوليادكين أن كل شيء قد أصبح جاهزاً تماماً، وأنه لم يعد هناك أي داعٍ للتأخير، هبط السلَّم مسرعاً منشغل البال، خافق القلب. تقدّمت عربة زرقاء من مدخل العمارة محدثة ضجة كبيرة. فساعد بتروشكا سيده على الصعود إلى العربة وهو يتبادل غمزات متواطئة مع الحوذي وبعض المتسكعين؛ ثم صاح بصوت مفتعل وهو يحاول جاهداً أن يلجم ضحكة غبية: «انطلق» ووثب إلى الدكّة الخلفية. انطلقت العربة نحو شارع نفسكي وقد أحدثت عجلاتها وحوافر الأحصنة جلبة كبيرة.

ما أن تحرّكت العربة حتى شرع السيد غوليادكين يفرك يديه بحماس ويضحك ضحكة مكتومة، ضحكة رجلٍ ذي مزاج مرح رائق نجح في تدبير أحد شؤونه التي تسرّه. لكن سرعان ما تغيّر ذلك المزاج المرح، وارتسم على محيّا السيد غوليادكين تعبير غريب عن القلق. عمد السيد غوليادكين إلى إنزال زجاج نافذتَي العربة، رغم أن الجو كان رطباً محمّلاً بالغيوم، وأخذ يتأمل الرائحين والغادين يميناً وشمالاً بإمعان، ويصطنع الوقار ما أن تقع عيناه على شخص ما ينظر صوبه. عندما وصل إلى ملتقى شارع ليتانيا وشارع نفسكي تملّكه إحساس مزعج فأخذ يرتعد، ويتحرك نحو المقعد الأشد ظلمة في العربة مسرعاً خائفاً، مقطباً وجهه، كأن أحداً داس على دمل في قدمه بعنف. وذلك لأنه كان قد رأى شابَّين موظفَين من زملائه في الإدارة التي يعمل فيها. بدا للسيد غوليادكين أن الشابَّين قد اندهشا دهشة شديدة من التقائهما بزميلهما في مثل تلك العربة؛ بل ذهب

أحدهما حدّ أن أشار نحو السيد غوليادكين ببنانه. وظنَّ السيد غوليادكين أنه سمع أحدهما وهو يناديه باسمه بأعلى صوته، وهو سلوك غير لائق في الشارع طبعاً. التزم بطلنا مكانه في أقصى العربة ولم يجب. «يا لهما من صبيَّين»، قال في نفسه، «ما العجيب في أن أركب عربة؟ ألا يحق لأي شخص أن يركب عربة حين يحتاج إلى ركوب عربة؟ يا لهما من وغدين! إنني أعرفهما جيداً، أعرف أنهما مجرد متسكعَين لا يستحقان إلا الجَلد. إنها لا يقومان بشيء حين يقبضان راتبهما غير التسكع حيث لا يدري أحد، إنهما لا يصلحان لأي شيء غير ذلك. أستطيع أن ألومهما على ما يفعلان، لكن ما الفائدة؟ ثم إن. . .»، لم ينهِ السيد غوليادكين كلامه وتجمّد في مكانه مندهشاً دهشة شديدة. ذلك لأنه رأى عربة فخمة يعرفها جيداً، عربة يجرّها حصانان من قازان، وتتجاوز عربته على اليمين مسرعة. بدا السيد صاحب العربة الذي كان قد رأى عن غير قصد وجه السيد غوليادكين، حين أطلَّ من النافذة دون حيطة، مندهشاً دهشة شديدة هو الآخر من هذه المصادفة غير المتوقعة، ومال قدر المستطاع يتطلع بفضول شديد نحو ذلك الركن من العربة الذي أسرع بطلنا إلى الاختباء فيه. إنه أندريه فيليبوفيتش رئيس أحد الأقسام في الإدارة التي يعمل فيها السيد غوليادكين مساعداً لمدير مكتبه. لمّا رأى السيد غوليادكين أن أندريه فيليبوفيتش تعرّف إليه تماماً، وأنه تفرّسه جيداً، وأنه لم يعد من مجال للاختباء، احمرَّ تماماً. «هل أحييه أم لا؟ أردُّ عليه أم لا؟ أعترف أم لا؟»، أخذ بطلنا يتساءل باضطراب غريب. «أم ينبغي أن أتظاهر بأنني لست أنا، وإنما شخص آخر، شخص آخر يشبهني تماماً، فأتجاهله، نعم، لست أنا، طبعاً لست أنا وانتهى الأمر». قال السيد غوليادكين وهو ينزع قبعته ويحيي السيد أندريه

فيليبوفيتش وينظر إليه: «أنا لا شيء»، تمتم بصوت واهن، «أنا لا شيء على الإطلاق، يا سيد أندريه فيليبوفيتش، لست أنا إطلاقاً، لست أنا وانتهى الأمر». سرعان ما تجاوزت العربة الفخمة عربة السيد غوليادكين، وانتهت جاذبية نظرات السيد الرئيس. لكن وجه السيد غوليادكين لم يزايله الاحمرار، والابتسامة المنزعجة، وواصل يتمتم... «ما أنا إلا جبان، كان ينبغي أن أرد على تحيته، كان ينبغي أن أكون صريحاً صادقاً، أن أتصرّف بصراحة غير خالية من النبل، أليس كذلك؟ أن أقول له، للسيد أندريه فيليبوفيتش، إنني مدعو للعشاء أنا أيضاً، هذا كل ما في الأمر». وفجأة تذكّر بطلنا أنه قد أخطأ، فطرفت عيناه، وألقى نظرة تحدٍّ فظيعة على المقعد الأمامي في العربة، نظرة بوسعها أن تحوِّل أعداءه إلى رماد من الوهلة الأولى. ثم خطرت له فكرة ما فجأة، فشدّ الحبل المربوط في كوع الحوذي داعياً إياه إلى أن يتوقف، وأن يعود بالعربة نحو شارع ليتانيا. وذلك لأن السيد غوليادكين كان قد أحس برغبة ملحّة في أن يقول لطبيبه كريستيان إيفانوفيتش شيئاً من المحتمل أن يكون على جانب كبير من الأهمية. ورغم أنه لم يتعرّف إلى كريستيان إيفانوفيتش إلا منذ مدة قصيرة جداً، فهو لم يزره إلا مرة واحدة خلال الأسبوع الماضي من أجل أمور مختلفة بسيطة، فإنه يرى أن الطبيب، كما يقولون، يشبه الكاهن من حيث أنه من الغباء أن يخفي عنه المرء شيئاً، ثم إن من واجب الطبيب أن يعرف مرضاه جيداً...

«هل أحسنت التصرف؟»، تساءل بطلنا وهو ينزل من عربته أمام منزل من أربعة طوابق في شارع ليتانيا. «هل أحسنت التصرف، هل يليق بي أن أتصرف مثل هذا التصرف؟ هل هو تصرف مناسب؟ وما المانع؟» كان يقول لنفسه وهو يصعد السلَّم ملتقطاً أنفاسه من حين

إلى آخر، محاولاً أن لا يجهد قلبه الذي عادة ما يخفق بقوة وسرعة كلما صعد سلَّماً غير سلَّم منزله. «ما المانع؟ لقد جئت من أجل مصالحي... ليس هذا جرماً... وإنه لمن الغباء أن أخفي عنه الأمر. سأتصرّف بالطريقة التالية: سأتظاهر بأنني لم أجئ لسبب محدّد، وأني أزوره لأني كنت مارّاً بالقرب منه صدفة... وعليه هو أن يخمِّن ما ينبغي أن يخمّنه».

وفيما هو يفكر على هذا النحو، وصل إلى الطابق الثاني[1] وتوقف أمام الشقة رقم 5، التي عُلّق على بابها لوحة جميلة من نحاس نقش عليها:

كريستيان إيفانوفيتش روتنسبتز
دكتور في الطب والجراحة

أضفى بطلنا على وجهه مظهراً لائقاً، مظهر شخص هادئ وطيّب، واستعدّ لشدّ حبل الجرس. لكنه ما إن مدَّ يده نحو الجرس حتى عدل عن فكرته، وفضّل أن يؤجِّل الزيارة إلى الغد، ما دام ليس هناك من داعٍ مستعجل للقيام بها الآن. إلا أن السيد غوليادكين ما أن سمع وقع خطى تتقدم نحو الباب حتى تراجع عن قراره في الحال، وعاد إلى ما كان عليه من عزم، ودقّ الجرس.

---

(1) الحقيقة أن الأمر يتعلق بالطابق الأول، لأن الناس في روسيا كانوا يعتبرون الطابق الأرضي طابقاً أول.

الفصل الثاني

كان كريستيان روتنسبتز، الدكتور في الطب والجراحة، رجلاً قوي البنية رغم تقدّم سنه، ذا حاجبين كثين وعارضين كثيفين خضبهما الشيب، ونظرات معبِّرة مدمِّرة قادرة لوحدها، فيما يبدو، على طرد كل الأمراض. كان يضع على صدره وساماً رفيعاً، ويجلس خلف مكتبه على كرسي وثير. كان يشرب قهوة الصباح التي حملتها إليه زوجته نفسها، ويدخّن سيجاراً وهو يحرر من حين إلى آخر وصفات للمرضى. وصف الطبيب لرجل عجوز دواء ضدّ البواسير، ثم رافقه إلى الباب الخلفي، وعاد إلى الجلوس في انتظار الزائر القادم. دخل السيد غوليادكين.

بدا واضحاً أن كريستيان روتنسبتز لم يكن يتوقع زيارة السيد غوليادكين، ولم يكن يرغب فيها، إذ ما أن وقعت عليه عيناه حتى انزعج وبدا على وجهه تعبير غريب غير متعمّد، تعبير يمكن أن نصفه بأنه نوع من الغضب. وبما أن السيد غوليادكين، وكما هو الحال غالباً، يفقد السيطرة على نفسه قليلاً كلما كان عليه أن يواجه أحداً ليحدّثه عن شأن من شؤونه الخاصة، فإنه، في هذه المرة أيضاً، ونظراً إلى عدم تحضيره مسبقاً للجملة الأولى التي بالنسبة إليه مفتاح لكل ما سيأتي بعدها، اضطرب تماماً وأخذ يتلعثم ويتمتم بكلام -قد

يكون نوعاً من الاعتذار-، ولأنه لم يدرِ كيف يتصرف إثر ذلك فقد لجأ إلى أول مقعد صادفه وجلس. ولكنه سرعان ما انتبه إلى أنه جلس دون أن يُدعى إلى ذلك، فقام من على الكرسي على الفور كي يصحّح خطأه الذي يتنافى مع قواعد الآداب الاجتماعية المتعارف عليها. لكنه سرعان ما تراجع عن فكرته بعد أن شعر أنه إذا ما وقف فإنه سيرتكب خطأ آخر. وقرر أن يرتكب خطأ ثالثاً حين حاول أن يفسِّر ما أقدم عليه، فلم يقم بغير الغمغمة بكلام غير مفهوم وهو يبتسم ابتسامة مبتسرة. احمرَّ وجهه، وانتهى بأن اضطرب تماماً، فالتزم الصمت، وعاد إلى الجلوس على الكرسي نفسه وقد بدا عليه أنه قد عزم، هذه المرة، على أن لا يتركه. واكتست نظرته نوعاً من التحدي محمَّلاً بقدرة عجيبة على تدمير أعدائه وتحويلهم إلى رماد إذا اقتضى الأمر. كانت تلك النظرة تعبِّر، بالإضافة إلى ذلك، على استقلاليته التامة، أي أن السيد غوليادكين كان يعبِّر من خلال تلك النظرة على أنه لا يبالي بأي شيء، وبأن له شخصيته الخاصة كباقي البشر، وبأنه ليس فضولياً ولا يهتم إطلاقاً بالنظر إلى عيوب الآخرين. سعل كريستيان إيفانوفيتش قليلاً معبِّراً، فيما يبدو، عن أنه موافق على كل ما عبّرَت عنه نظرة السيد غوليادكين، وأخذ ينظر إليه نظرة يقظة متسائلة.

- جئت، يا كريستيان إيفانوفيتش، شرع السيد غوليادكين يقول، وهو يبتسم ابتسامة حائرة، جئت مرة أخرى، وإنني لأطلب منك مرة أخرى أن تتفهم... كان واضحاً أن السيد غوليادكين لا تسعفه الكلمات المناسبة.

- همم... نعم. قال كريستيان إيفانوفيتش وهو ينفث دخان سيجاره من بين شفتيه ويضعه إلى جانبه... ولكن ينبغي أن تلتزم بما

وصفته لك. لقد سبق أن شرحت لك أن علاجك يستدعي أن تغيّر عاداتك... وأن تروّح عن نفسك، إنك تحتاج إلى أصدقاء وإلى الخمرة، ولتختر لنفسك أصدقاء يتميزون بالمرح والظرف...

ردَّ السيد غولیادکین وهو لا يزال يبتسم ابتسامة حائرة قائلاً إنه يعتقد أنه لا يختلف في شيء عن الآخرين، وإن له منزلاً، وإنه يتسلى كالآخرين... وإنه يستطيع التردد على المسارح لأن إمكاناته تسمح له بذلك كالآخرين، وإنه يقضي الصباح في مكتبه، وإن الأمور على أحسن ما يرام، بل أضاف باختصار أنه يرى أن وضعه ليس أسوأ من وضع الآخرين، وأن له منزلاً يسكنه، وأن بتروشكا يسكن معه. وتوقّف السيد غولیادکین عن الكلام عند هذا الحدّ.

- همم، لا، أنا لا أقصد طريقة حياتك، لا أقصد ذلك بتاتاً. ما يهمني أن أعرف هو هل تحب رفقة الناس البشوشين، وهل تقضي أوقاتك في المرح على العموم... باختصار أريد أن أعرف هل تعيش الآن حياة سوداوية أم مرحة؟

- أنا يا كريستيان إيفانوفيتش...

- همم، أقول لك، قاطعه الدكتور قائلاً، إن عليك أن تغيّر طريقة حياتك تماماً، أقصد أن عليك أن تهشّم طبعك تماماً (وشدد كريستيان إيفانوفيتش على كلمة «تهشّم» ملتزماً الصمت والجدية) لا تهرب من حياة المرح، تردد على المسارح، زر الأصدقاء، ولا تتخلَّ عن الخمرة بأي حال من الأحوال. المكوث في المنزل يسيء إليك... لا تحبس نفسك في المنزل.

- أنا أحب الهدوء يا كريستيان إيفانوفيتش، قال السيد غولیادکین وهو يرشق الطبيب بنظرة اهتمام ويبحث عن الكلمات التي من شأنها أن تعبِّر عمّا يفكر فيه بشكل أدقّ. لا يسكن معي في منزلي إلا

بتروشكا، أقصد خادمي بتروشكا يا كريستيان إيفانوفيتش. وأمضي في طريقي، في طريقي الخاص يا كريستيان إيفانوفيتش. لا أرافق أحداً، ولا أحتاج إلى أحد. وأخرج للتنزه أيضاً يا كريستيان إيفانوفيتش.

- ماذا قلت. . .؟ نعم، طيب، لكن التنزه في هذه الأيام ليس ممتعاً، فالطقس ليس رائقاً.

- من دون شكّ، يا كريستيان إيفانوفيتش، رغم أني شخص هادئ، كما سبق أن تشرّفت بالقول فيما أعتقد. . . إن لي طريقي الخاص يا كريستيان إيفانوفيتش. . . إن طريق الحياة واسعة. . . أقصد. . . عذراً يا كريستيان إيفانوفيتش، فأنا لا أجيد تنميق الكلام.

- همم. . . ماذا قلت. . .

- أطلب منك يا كريستيان إيفانوفيتش، أن تعذرني على أنني لا أجيد تنميق الكلام، قال السيد غوليادكين بنوع من الإحساس بالإهانة وهو لا يزداد إلا اضطراباً. فأنا لست كالآخرين فيما يخص هذه النقطة يا كريستيان إيفانوفيتش، أضاف قائلاً وهو يبتسم ابتسامة خاصة، ولا أجيد الكلام كثيراً، ولم أتعلم كيف أحسِّن أسلوبي. ولكنني أجيد التصرف مقابل ذلك يا كريستيان إيفانوفيتش، نعم، أجيد التصرف يا كريستيان إيفانوفيتش.

- همم. . . ماذا تقصد بأنك تجيد التصرف؟ تساءلَ كريستيان إيفانوفيتش. والتزم الصمت هنيهة، وأخذ ينظر إلى السيد غوليادكين بنوع من الاتِّهام. فردَّ عليه هذا الأخير بنظرة حذرة.

- أنا أحب الهدوء، يا كريستيان إيفانوفيتش، تابع السيد غوليادكين قائلاً بنبرة منزعجة متفاجئة من عناد الطبيب. . . ولا أحبّ ضوضاء المجتمع، أقصد المجتمع الراقي، حيث يكون عليك أن تجيد مسح الأرض بحذائك (وأخذ السيد غوليادكين يمسح الأرض

بحذائه فعلاً)... إنه المطلوب منك هناك، إلى جانب تنميق الكلام، هذا هو المطلوب هناك... وعليك أيضاً أن تجيد المجاملة بكلام معسول... هذا هو المطلوب منك هناك. والحال، يا كريستيان إيفانوفيتش، أني لم أتعلّم كل هذه الزخارف، لم أتعلمها يا كريستيان إيفانوفيتش، لأني لا أملك الوقت الكافي. أنا إنسان بسيط، يا كريستيان إيفانوفيتش، طبعي بسيط، من دون زخارف. وهناك، في المجتمع الراقي، لا أملك إلا أن أستسلم، قال السيد غوليادكين كل ذلك بلهجة تدلُّ على أنه لا يأسف على أنه مضطر للاستسلام هناك، وعلى أنه لم يتعلم تنميق الكلام. كان كريستيان إيفانوفيتش يستمع إليه وهو ينظر إلى قدميه ويقطّب جبينه عابساً، كما لو أنه يتوقع منه شيئاً ما. وأعقب كلام السيد غوليادكين صمت ثقيل طويل شيئاً ما.

- أعتقد أنك ابتعدت عن الموضوع قليلاً، تدخّل كريستيان إيفانوفيتش قائلاً بصوت خافت، أعترف أني لم أفهم كلامك كل الفهم.

- لستُ أجيد تنميق الكلام يا كريستيان إيفانوفيتش، ولقد سبق لي أن تشرّفت بأن أنهيت إلى علمك، يا كريستيان إيفانوفيتش، أني لست خبيراً في مجال تنميق الكلام، قال السيد غوليادكين بنبرة جازمة حاسمة.

- همم... غمغم كريستيان إيفانوفيتش.

أردف السيد غوليادكين قائلاً بصوت رزين معبِّر، صوت رجل قرّر أن يعبِّر عن نفسه بدقة:

- لما دخلت عليك يا كريستيان إيفانوفيتش، بدأت كلامي معتذراً. وها أنذا أجدِّد اعتذاري الآن، وأسألك أن تتحلّى بالتسامح ورحابة الصدر لحظة. ليس لدي ما أخفيه عنك يا كريستيان

إيفانوفيتش، فأنا رجل بسيط، وأنت تعرف ذلك؛ لكن لحسن الحظ أني لا آسف على أني إنسان بسيط، بل إني لفخور بذلك يا كريستيان إيفانوفيتش... لست رجلاً عظيماً وإنما بسيطاً. كما أني فخور بأني لست من مدبّري المكائد، ولا من أولئك الذين يكيدون في الخفاء، فأنا ممن يتصرفون جهاراً، ومن دون مكر، مع أني أستطيع أن أؤذي الآخرين أنا أيضاً إذا شئتُ، وأن أؤذيهم كثيراً يا كريستيان إيفانوفيتش، لكني لا أريد أن ألطّخ يدي بذلك، وأفضّل أن تبقيا طاهرتَين يا كريستيان إيفانوفيتش.

لزم السيد غوليادكين صمتاً معبِّراً لحظة، وأردف يقول بحماس هادئ:

- أنا، يا كريستيان إيفانوفيتش، أمضي في طريقي مستقيماً لا أراوغ، لأنني أمقت الطرق الملتوية وأتركها للآخرين. ولا أسعى إلى الحط من الذين قد يكونون أسمى مكانة منك ومني... عفواً، يا كريستيان إيفانوفيتش، فأنا أتحدّث عنهم وعني، لا عنك أنت. أنا لا أحب الكلام المبطن الذي يحتمل معنيَين اثنين، وأكره الوشاية والنميمة. لست ألبس القناع في حياتي اليومية مع الناس، لا ألبسه إلا في حفلات التقنُّع. أريد أن أسألك في الأخير، يا كريستيان إيفانوفيتش، كيف تنتقم من عدوك، من عدوك اللدود، من عدوك الذي تعتبره أشد أعدائك؟ ختم السيد غوليادكين كلامه وهو ينظر إلى كريستيان إيفانوفيتش نظرة متحدية.

كان السيد غوليادكين قد نطق بكل ما قاله بوضوح وقناعة، وهو يزن كلماته وينتقيها كي يكون لها الوقع الذي أراده. ورغم ذلك، أخذ يرمق كريستيان إيفانوفيتش بقلق، بقلق كبير. وينتظر جوابه خائفاً نافد الصبر تماماً. فيا لشدّة دهشته وحيرته وهو يرى كريستيان

إيفانوفيتش وقد اكتفى بغمغمة غير مفهومة، ويقترب بكرسيه الوثير من المائدة، ويقول له بلهجة جافة لا تخلو من أدب رغم ذلك إن وقته ثمين، وأنه لم يفهم كلامه جيداً، وأنه مع ذلك مستعد لمساعدته قدر المستطاع، ولكنه يرفض أن يتدخل في ما لا يعنيه. ثم أمسك بريشة وورقة ثناها لتأخذ شكل الأوراق التي تكتب عليها الوصفات الطبية، وأعلن أنه سيصف له الدواء المناسب.

- لا، لا يا كريستيان إيفانوفيتش، لا داعي لذلك، لا داعي إطلاقاً. قال السيد غوليادكين وهو يقوم من على المقعد ويمسك ذراع كريستيان إيفانوفيتش الأيمن، لا داعي لذلك على الإطلاق...

وبينما كان السيد غوليادكين يقول ذلك، ظهرت عليه علامة تغيُّر غريبة، إذ أخذت عيناه الرماديتان تومضان وميضاً فريداً، وشفتاه، ووجهه، وعضلاته كلها، ترتجف. وما لبث أن أخذ يرتجف بكامل جسده. وأوقف يد الطبيب التي امتدت نحوه، وتسمّر في مكانه، كما لو أنه يحذر من نفسه، وينتظر شيئاً يلهمه ما ينبغي أن يفعله بعد ذلك.

عندئذٍ حدث مشهد غريب إلى حدٍّ ما.

أخذ كريستيان إيفانوفيتش يتساءل عمّا يحدث، وبقي متسمّراً في كرسيه الوثير لا يدري كيف يتصرف، ويتبادل مع السيد غوليادكين نظرات مندهشة. انتصب كريستيان إيفانوفيتش واقفاً بعد ذلك وهو يمسك بياقة لباس السيد غوليادكين. بقيا كذلك متسمّران لا يتحركان وينظران إلى بعضهما. ثم كان أن اندفع السيد غوليادكين مرة ثانية بشكل عجيب، فأخذت شفتاه ترتجفان، وذقنه يرتعش، وانفجر باكياً. كان يشهق، ويهش رأسه، ويضرب صدره بيده اليمنى بينما يمسك باليسرى ياقة سترة كريستيان إيفانوفيتش. كان يريد أن يتكلم،

يشرح أمراً ما على الفور، إلا أنه عجز عن أن ينطق بأية كلمة.
ستطاع كريستيان إيفانوفيتش بالمقابل أن يتغلب على دهشته، فقال:
- كفى، تماسك، اجلس، قال وهو يقود السيد غوليادكين نحو كرسي.
- لي أعداء يا كريستيان إيفانوفيتش، لي أعداء، لي أعداء شرار يسعون إلى القضاء علي... قال السيد غوليادكين بصوت خافت.
- ما هذا الكلام؟ أي أعداء؟ لا ينبغي أن تتحدث عن الأعداء، يجب أن تتخلص من هذه الفكرة، اجلس، اجلس. ألحَّ كريستيان إيفانوفيتش قائلاً وهو يعيد السيد غوليادكين إلى مقعده.
انتهى السيد غوليادكين بأن جلس وهو لا يكف عن النظر إلى كريستيان إيفانوفيتش. وأخذ هذا الأخير يذرع المكتب من ركن إلى آخر. تلا ذلك صمت طويل.
- أشكرك يا كريستيان إيفانوفيتش، أشكرك جزيل الشكر، وإني لأقدِّر كل ما فعلته من أجلي، وسأتذكّر طيبتك حتى الموت يا كريستيان إيفانوفيتش. قال السيد غوليادكين وهو ينهض من على مقعده بنوع من الشعور بالإهانة.
- كفى، كفى. ردّ كريستيان إيفانوفيتش قائلاً وهو يعيد السيد غوليادكين إلى مقعده بشيء من القوة. كفى، ماذا بك؟ ما هي متاعبك، ومن هم أولئك الأعداء الذين تحدّثت عنهم؟ قُل لي ما أصابك؟
- لا يا كريستيان إيفانوفيتش، لا داعي لذلك الآن. قال السيد غوليادكين مطأطئاً رأسه. يستحسن أن نترك هذا الأمر جانباً إلى أن... إلى يوم آخر يا كريستيان إيفانوفيتش، إلى يوم أنسب،

يتضح كل شيء، يوم تسقط الأقنعة عن بعض الوجوه، وتظهر بعض الحقائق. في انتظار ذلك، وبعد الذي دار بيننا الآن، ينبغي طبعاً. . . أعتقد أنك ستوافقني على هذا الأمر يا كريستيان إيفانوفيتش. . . واسمح لي أن أتمنى لك يوماً سعيداً يا كريستيان إيفانوفيتش. قال السيد غوليادكين وهو يترك مقعده بعزم هذه المرة، ويمد يده نحو قبعته.

- حسناً، افعل ما تريد. . . همم. . . (وساد الصمت لحظة) أما أنا فأنت تعرف ما الذي أستطيع أن أفعله. . . أتمنى لك كل التوفيق.

- أنا أفهمك يا كريستيان إيفانوفيتش، أفهمك جيداً الآن. . . على أي حال، أعتذر عن الإزعاج يا كريستيان إيفانوفيتش.

- همم. . . لا، ليس هذا ما قصدته. . . لكن افعل ما تشاء. وواظب على العلاج كما قبل. . .

- سأواظب على تناول أدويتي كما طلبت، يا كريستيان إيفانوفيتش، سأواظب عليها وسأشتريها من الصيدلية نفسها. . . إن مهنة الصيدلة، هي الأخرى، تجعل من صاحبها شخصاً مهماً اليوم يا كريستيان إيفانوفيتش.

- ماذا؟ ماذا تقصد بذلك؟

- أقصد شيئاً عادياً، يا كريستيان إيفانوفيتش، أقصد أن العالم اليوم يسير في هذا الاتجاه. . .

- همم. . .

- نعم، ما من حثالة اليوم، ما من متسكع، سواء أكان يشتغل بالصيدلة أم لا، إلا ويتباهى بنفسه أمام الناس الشرفاء.

- همم. . . ماذا تريد أن تقول؟

- أقصد يا كريستيان إيفانوفيتش، أقصد شخصاً بعينه...
شخصاً نعرفه أنا وأنت، يا كريستيان إيفانوفيتش، أقصد فلاديمير سيميونوفيتش مثلاً...
- ها...
- نعم يا كريستيان إيفانوفيتش، وأعرف أشخاصاً آخرين لا يمنعهم الرأي العام من أن يجهروا بالحقيقة عند الضرورة.
- ها... كيف ذلك؟
- إنهم أشخاص يعرفون متى يقدِّمون لك الشهد والعسل عند الضرورة.
- ماذا قلت؟ الشهد والعسل؟
- نعم يا كريستيان إيفانوفيتش، إنهم أناس يعرفون كيف يهنئون غيرهم في الوقت المناسب مثلاً، أشخاص موجودون فعلاً يا كريستيان إيفانوفيتش.
- أقلت يهنئون؟
- نعم، يهنئون يا كريستيان إيفانوفيتش، كما فعل أحد أصدقائي المقرّبين في أحد الأيام القليلة الماضية...
- هل قلت إنه أحد أصدقائك المقرّبين؟ وماذا فعل؟ تساءل كريستيان إيفانوفيتش وهو يمعن النظر إلى السيد غوليادكين.
- نعم، إنه أحد أصدقائي المقرّبين، وقد قام بتهنئة شخص آخر ممّن أعرفهم معرفة جيدة أيضاً بمناسبة ترقيته إلى رتبة مساعد إداري[1]، وهو شخص من أعز زملائه، وإليك كيف هنأه: «يسعدني

---

(1) تقع رتبة مساعد إداري في الدرجة الثامنة من السلّم الترتيبي الذي وضعه بيير الأكبر، والذي يتكون من أربع عشرة درجة كما سبقت الإشارة.

كثيراً، يا فلاديمير سيميونوفيتش، أن أتقدّم إليك في هذه المناسبة بتهاني، بتهاني الصادقة بمناسبة ترقيتك. ويسعدني أكثر أنك لم تعتمد على أحد كي تحصل عليها» (وأخذ السيد غوليادكين يهش برأسه بلؤم، ويغمز كريستيان إيفانوفيتش بنوع من التواطؤ).

- هم... هل قال له ذلك فعلاً؟...

- نعم، قال له ذلك يا كريستيان إيفانوفيتش، قاله وهو يسترق النظر إلى أندريه فيليبوفيتش، عم صاحبنا الغالي فلاديمير سيميونوفيتش... وفيمَ يهمني أنا، يا كريستيان إيفانوفيتش، أن يرقى إلى رتبة مساعد؟ ماذا أجني من وراء ذلك؟ ثم إنه يريد أن يتزوج، مع أن حليب أمه لم يجف بعد من على شفتيه، كما يقولون... ولقد قلت له ذلك، نعم قلته له، وقلت له أيضاً: لقد قلت الآن كل ما أردت أن أقوله، يا فلاديمير سيميونوفيتش، فاسمح لي بالانصراف.

- همم...

- نعم، قلت له: اسمح لي بالانصراف الآن، يا كريستيان إيفانوفيتش. ولكي أضرب عصفورَين بحجر، وبعد أن صارحته بحقيقته حين قلت له إنه حصل على ترقيته دون أن يعتمد على أحد، التفتُّ نحو كلارا أولسوفيفنا -حدث ذلك أمس الأول في منزل أولسوفي إيفانوفيتش- وكانت قد انتهت لتوِّها من أداء أغنية مفعمة بالعواطف الصادقة، وقلت لها: «لقد أدّيتِ أمامنا أغنية مفعمة بالعواطف الصادقة، والحال أن من الحاضرين من لم يستمع إليك بقلب صافٍ». كانت الإشارة واضحة يا كريستيان إيفانوفيتش، كانت تعني أن البعض لم يحضروا كي يستمعوا إلى غنائها، ولكن لهدف آخر أكبر...

- آ. . . وماذا عنه هو؟. . .

- وقع في الشراك يا كريستيان إيفانوفيتش، كما يقول المثل.

- همم. . .

- نعم يا كريستيان إيفانوفيتش، وقلت للرجل الشيخ: اسمع يا أولسوفي إيفانوفيتش، قلت له، إنني أعرف أفضالك علي، وإني لأقدّر ما جدت به علي منذ طفولتي. ولكن عليك أن تفتح عينَيك جيداً، يا أولسوفي إيفانوفيتش. . . قلت له، انظر حولك جيداً. أما أنا فأحاول أن أتعامل مع الأمر بكل صدق يا أولسوفي إيفانوفيتش.

- آ. . . هكذا إذاً.

- نعم، هكذا يا كريستيان إيفانوفيتش، من دون زيادة ولا نقصان.

- وهو، ماذا فعل؟. . .

- هو؟ أخذ يهرف بما لا يعرف، ويردّد: «أنا، أنا أعرفك، وأعرف أن صاحب المعالي هو الطيبة نفسها تمشي على قدمين. . .» ويسترسل في كلام غامض. . . قائلاً إن الشيخوخة تنخر الإنسان وتأتي على كل ما لديه من عافية.

- ها. . . هكذا إذاً.

- نعم يا كريستيان إيفانوفيتش، لا مفرّ من الشيخوخة، إنه شيخ كبير قد وضع إحدى رجليه في القبر، كما يقولون، لكن ما أن يشرع أحدهم في النميمة حتى تجده أول من يستمع إليه، مستحيل أن يجتمع جمع من أجل النميمة فلا يستمع إليه.

- هل قلت: نمائم؟

- نعم يا كريستيان إيفانوفيتش، لقد حاكوا مؤامرة، ساهم فيها ذلك الدب العجوز وابن أخيه الغالي، إنهم متواطئون مع بعض

النساء المسنات طبعاً، ولا شكّ أنهم من حاك تلك المؤامرة. لن تستطيع أن تتصور ما اخترعوه كي يغتالوا إنساناً!...

- كي يغتالوا إنساناً؟

- نعم، يا كريستيان إيفانوفيتش، كي يغتالوا إنساناً، كي يغتالوه معنوياً. لقد أشاعوا... أقصد: أشاعوا عن صديقي العزيز طبعاً...

أيّد كريستيان إيفانوفيتش كلامه بحركة من رأسه.

- أشاعوا عنه... أعترف أني أشعر بالخجل من الكلام عمّا أشاعوه، يا كريستيان إيفانوفيتش.

- همم...

- أشاعوا أنه وقّع على عقد تعهّد بالزواج، وأنه سبق وأن تقدّم لخطبة امرأة أخرى... هل تستطيع أن تحزر من تكون تلك المرأة يا كريستيان إيفانوفيتش؟

- من هي؟

- إنها طبّاخة، طبّاخة ألمانية وقحة كان يتناول وجباته عندها، وقد خطبها مقابل الديون التي كان عليه أن يسدّدها لها.

- أَيحكون ذلك حقاً؟

- هل تصدقني إذا قلت لك يا كريستيان إيفانوفيتش، إنها امرأة ألمانية وسخة، دنيئة، وقحة، اسمها كارولين إيفانوفنا؟ هل يوحي لك اسمها بشيء؟

- أعترف أنني من جهتي...

- أفهمك يا كريستيان إيفانوفيتش، أفهمك، إنه الإحساس نفسه الذي أحسه من جهتي...

- أخبرني من فضلك أين تسكن حالياً؟

- أين أسكن حالياً يا كريستيان إيفانوفيتش؟

- نعم، أقصد، أنك من قبل كنت تعيش على ما يبدو لي. . .

- نعم، كنت أعيش يا كريستيان إيفانوفيتش، كنت أعيش، من قبل أيضاً كنت أعيش. لا بدَّ للإنسان من أن يعيش. ردّ السيد غوليادكين وهو يرفق كلامه بضحكة قصيرة. ويبدو أن جوابه أشعر كريستيان إيفانوفيتش بالاضطراب.

- لا، لقد أسأت فهمي، أردت أن أقول أني من جهتي. . .

- أنا أيضاً كنت أريد أن أقول أني من جهتي، أردف السيد غوليادكين وهو يضحك. . . لكن يبدو أني أطلت الزيارة يا كريستيان إيفانوفيتش، آمل أن تأذن لي بأن أتمنّى لك يوماً سعيداً. . .

- همم. . .

- نعم، إنني أفهمك، أفهمك تماماً الآن، يا كريستيان إيفانوفيتش. قال بطلنا وهو يتظاهر بنوع من حسن الأدب، أرجو أن تأذن لي بأن أتمنّى لك صباحاً سعيداً. . .

حيّاه بطلنا في تلك اللحظة، ثم استدار وخرج، تاركاً كريستيان إيفانوفيتش مندهشاً تماماً. كان يبتسم وهو ينزل السلَّم ويفرك يديه بسرور. وعند مدخل العمارة، استنشق الهواء النقي، وأحس كأنما أطلق سراحه، وأنه يكاد يعتقد أنه أسعد إنسان على وجه الأرض. وهمَّ أن يتوجّه صوب مكتبه، لكنه سرعان ما سمع صوت قرقعة عربته، فرفع عينَيه نحو مصدر الصوت، وتذكر كل شيء. كان بتروشكا قد سارع إلى فتح باب العربة. وغمر شعور غريب السيد غوليادكين في تلك اللحظة. وأحس كأنه يحمرّ فجأة، وأن قلبه ينقبض. في اللحظة التي كان أقدم على أن يضع رجله على درج العربة استدار فجأة ورفع بصره صوب نافذة كريستيان إيفانوفيتش.

لقد صدق حدسه: كان كريستيان إيفانوفيتش واقفاً خلف نافذته يداعب لحيته بيده، ويتطلّع إلى بطلنا بنوع من الفضول.

«إنه طبيب غبي»، قال السيد غوليادكين في نفسه وهو يصعد إلى العربة، «غبي إلى أقصى حدّ. قد يحسن علاج مرضاه، ولكنه رغم ذلك غبي كحطبة». جلس السيد غوليادكين في العربة، فصاح بتروشكا: «هيا». وانطلقت العربة نحو شارع نيفسكي.

الفصل الثالث

قضى السيد غوليادكين ذلك الصباح كله في حركة دائبة. وصل إلى شارع نيفسكي فأمر بأن تقف العربة في سوق غوستيني دفور. قفز من عربته، وهرول تحت الرواق متبوعاً بخادمه بتروشكا، متّجهاً صوب أحد متاجر المصوغات الفضية. كان يكفي أن تنظر إلى وجه السيد غوليادكين لترى أنه مثقل بالهموم وبالأشغال التي لا تنتهي. أخذ يساوم على طقم مائدة كاملاً وعلى طقم آخر للشاي، فحصل عليهما مقابل ألف وخمسمئة روبل، وبالسعر نفسه اشترى لنفسه علبة لحفظ السجائر ذات شكل نادر، وطقماً فضياً كاملاً من أمواس الحلاقة. وسأل عن أثمان بعض النفائس الجذابة الفريدة من نوعها، ثم أنهى الزيارة بأن وعد البائع بأن يبعث، غداً أو ربما في اليوم نفسه، من يحمل إليه ما اختاره، وسجّل عنوان المتجر وهو يصغي إلى البائع يطلب منه عربوناً، فوعده بأن يعطيه عربوناً في الوقت المناسب. بعد ذلك ودّع البائع المشدوه مسرعاً وخرج من المتجر، ثم سار تحت الرواق تتبعه جوقة من أصوات الباعة وهو يلتفت من لحظة إلى أخرى نحو بتروشكا، ويبحث جادّاً عن بعض المتاجر الأخرى. دخل إلى محل أحد الصرّافين فأبدل الأوراق المالية الكبيرة بأخرى صغيرة. خسر بعض المال في تلك العملية، إلا أنه بدا سعيداً

رغم ذلك بمنظر محفظته التي امتلأت عن آخرها. وتوقف، مرة أخرى، عند متجر لبيع أقمشة للسيدات. وبعد أن ساوم، هناك أيضاً، على أشياء كثيرة، وعد بأن يعود، وسجّل عنوان المتجر. وحين طلب منه البائع عربوناً، وعده بالعربون في الوقت المناسب. ثم طاف على متاجر أخرى مختلفة، وكان حيثما حلّ يسأل عن أثمان بعض الأشياء، ويطيل المساومة أحياناً، ثم يغادر المتجر ولا يلبث أن يعود إليه مرة أخرى، بل قد يعود إليه مرة ثالثة - باختصار، كان في نشاط غير معتاد. ترك سوق غوستيني دفور وتوجّه صوب متجر كبير لبيع الأثاث، وهناك اشترى أثاثاً لست حجرات، وأبدى إعجابه بدولاب نسوي آخر موضة، وأكّد للبائع أنه سيبعث بمن يحمل إليه المقتنيات، وخرج مرة أخرى بعد أن وعد بدفع العربون. وكرّر الشيء نفسه في متاجر أخرى. باختصار، إنه لم يتوقف عن إزعاج نفسه. لكن يبدو أن السيد غوليادكين، مع ذلك، ملّ في النهاية ما كان يقوم به، بل إنه أحس فجأة خلال إحدى زياراته التي لا يعلم عنها شيئاً إلا الرب وحده، بالندم وبتأنيب الضمير. وصار غير مستعد تماماً لأن يوافق على ملاقاة أندريه فيليبوفيتش أو كريستيان إيفانوفيتش مثلاً. دقّت الساعة الرسمية تشير إلى الساعة الثالثة بعد الزوال. حين عاد السيد غوليادكين إلى مكانه في العربة، لم يكن يحمل معه من مقتنيات الصباح إلا قفازين وزجاجة عطر اشتراها بروبل ونصف. وبما أن متسعاً من الوقت كان لا يزال أمامه، فإن السيد غوليادكين توقّف عند مطعم مشهور في شارع نيفسكي لا يعرفه إلا من خلال ما يحكى عنه، ونزل من العربة وأسرع بالدخول كي يأكل أكلة خفيفة، يستريح بعدها ويقتل قليلاً من الوقت.

بعد أن أكل ما يأكله شخص مدعو إلى عشاء دسم، أي بعد أن

اختار أكلة خفيفة جداً كي يسكت الجوع، كما يقال، وشرب كأساً من الفودكا، قبع في أحد المقاعد الوثيرة، واستغرق في قراءة إحدى الجرائد الوطنية الهزيلة[1]. قرأ سطرين أو ثلاثة، ثم وقف وأخذ ينظر إلى نفسه في المرآة، ويرتّب شعره ولباسه؛ ثم اقترب من النافذة ينظر إن كانت عربته لا تزال حيث تركها... ثم عاد إلى الجلوس وقراءة الجريدة. كان واضحاً تماماً أن بطلنا قلق مضطرب. بعد أن نظر إلى الساعة فرأى أنها لم تتجاوز الثالثة وربع، وأن وقتاً طويلاً من الانتظار لا يزال أمامه، قال في نفسه إنه لمن الوقاحة أن يحتلّ مقعداً في مطعم طوال هذا الوقت، وطلب فنجاناً من الشوكولاتة رغم أنه لم يكن راغباً فيه في تلك اللحظة على الإطلاق. شرب الشوكولاتة ولاحظَ أن الساعة تقدّمت قليلاً، فنهض كي يذهب لدفع الحساب. وفجأة وضع أحدهم يده على كتفه.

التفت فوجد نفسه أمام الزميلَين اللذين كان قد التقى بهما صباحاً في شارع ليتانيا، وهما شابان صغيران في السن وفي المرتبة الإدارية، لا تجمعهما ببطلنا أية صداقة أو عداوة. وإذا كان كلا الطرفين يحرصان على قواعد اللياقة المسلّم بها، فإن العلاقة بينهما تقف عند هذا الحد، ولا يمكن أن تتجاوزه. بدا واضحاً أن لقاء في مثل تلك اللحظة قد أزعج السيد غوليادكين أيّما إزعاج، فقطّب جبينه وبدا عليه شيء من الحرج.

- ماذا تفعل هنا يا ياكوف بتروفيتش، ماذا تفعل هنا؟ يا لها من...

(1) يقصد، من دون شك، جريدة نَحلة الشمال التي كان يسخر منها الشباب المثقف آنذاك.

- ها . . . هذان أنتما أيها السيدان. قاطعهما السيد غوليادكين وقد بدا مضطرباً قليلاً، ومستاء من الدهشة التي عبّر عنها الشابان ومن عدم تحرجهما من التوجه نحوه لملاقاته. ولكنه حاول، رغم ذلك، أن يظهر بمظهر مرح مازح قائلاً: «أهربتما من مكتبيكما؟ ها ها ها». ولكي يبدي تسامحه اتجاه هذين الزميلين حاول أن يربّت على كتف أحدهما، إلا أن حركته عوض أن تعبِّر عن الألفة عبّرت عن شيء آخر مختلف تماماً.

- حسناً، ألا يزال صاحبنا الدب في المكتب؟

- من تقصد يا ياكوف بتروفيتش؟

- الدب. . . ألا تعرفان من يطلق عليه لقب الدب؟ . . . (أخذ السيد غوليادكين يضحك، والتفت نحو النادل كي يأخذ الباقي من المال). أقصد أندريه فيليبوفيتش أيها السيدان، واصل قائلاً بعد أن حصل على الباقي والتفت نحو الموظفَين الشابَّين بوجه جاد هذه المرة. كان هذان الأخيران يتبادلان نظرات معبِّرة.

- ما زال في المكتب، وقد طلب حضورك يا ياكوف بتروفيتش، رد أحدهما.

- ها . . . ما زال هناك إذاً، طيب، فليبقَ هناك أيها السيدان، هل قلتما أنه طلب أن أحضر؟

- نعم يا ياكوف بتروفيتش، طلب أن تحضر. . . ولكن أخبرني ماذا جرى لك؟ لماذا كل هذا العطر، وهذا الدهان؟ لماذا كل هذه الأناقة؟

- طيب أيها السيدان، الأمر كما تريان، ويستحسن أن لا تسألا . . . قال السيد غوليادكين وهو ينظر إلى الجهة الأخرى ويبتسم

رغماً عنه. وحين رأى الشابان أن السيد غوليادكين يبتسم انفجرا ضاحكين، فاحمرّ وجه السيد غوليادكين قليلاً.

- أعترف لكما أيها السيدان، كما لو أعترف لصديقين، قال بطلنا بعد أن لاذ بالصمت برهة، وكأنه قرّر (إذ لا مفر) أن يعترف للموظفين بأمر ما... أعترف أنكما تعرفاني أيها السيدان، غير أنكما لم تعرفاني حتى الآن إلا من جانب واحد، لكن لا ينبغي أن يلام أحد على ذلك، بل أعترف أني أتحمّل بعض المسؤولية في ذلك.

زمّ السيد غوليادكين شفتيه ورشق الشابّين بنظرة معبِّرة. فقام هذان الأخيران بتبادل النظرات مرة أخرى.

- إنكما لا تعرفاني جيداً حتى الآن، أيها السيدان. لكن لا المكان ولا الزمان يسمحان الآن بتقديم التفسيرات اللازمة. وسأكتفي بكلام مختصر. اعلما أيها السيدان أن هناك رجالاً لا يحبون الطرق الملتوية، ولا يلبسون الأقنعة إلا في حفلات التقنع. هنالك رجال لا يرون أن مصير الإنسان متعلّق بمسح الأرضية بالأحذية. وهنالك رجال لا يجدون السعادة ورفاهية العيش، أيها السيدان، في ارتداء سراويل مفصلة عند أشهر الخياطين. وهنالك رجال آخرون لا يحبّون التسكع وحب الظهور والدلال، ولا يحبون بشكل خاص، أيها السيدان، التدخُّل في ما لا يعنيهم... لقد قلت جُلّ ما لدي، أيها السيدان، والآن استأذنكما بالانصراف...

توقّف السيد غوليادكين عن الكلام راضياً كل الرضا، وانفجر الشابان الموظفين يضحكان بوقاحة. فكان أن استشاط السيد غوليادكين غيظاً.

- اضحكا، أيها السيدان، اضحكا الآن كما يحلو لكما، لكن

لا تنسيا أن الزمان دوار. قال السيد غوليادكين بنبرةِ مَن أهينت كرامته، وحمل قبعته متوجّهاً نحو الباب.

- سأضيف شيئاً آخر، أيها السيدان، قال وهو يلتفت نحوهما للمرة الأخيرة، سأضيف شيئاً آخر. نحن الآن متواجهون، أيها السيدان، وسأطلعكما على مبادئي في الحياة: الصمود عند الإخفاق، المواظبة عند النجاح؛ الابتعاد عن الدسائس، وعن تدبير المكائد... وإني لفخور أن أجهر بذلك، ولا أصلح لأن أكون دبلوماسياً. يقال أيها السيدان أن الطريدة هي من يبحث عن الصياد. لنسلِّم بذلك: ولكن من هو الصياد في هذه الحالة ومن هي الطريدة؟ هذا هو السؤال، أيها السيدان، هذا هو السؤال.

ساد بعد ذلك صمت بليغ، ثم حيّا السيد غوليادكين الموظفَين الشابَّين بعد أن زمَّ شفتيه وقطّب حاجبيه بكثير من الجد والوقار، وخرج تتبعه نظراتهما الدهشة.

- إلى أين يريد سيدي أن يذهب؟ سأله بتروشكا الذي كان قد ملّ، في ما يبدو، من التنقّل من مكان إلى آخر. بماذا يأمر سيدي؟ سأل السيد غوليادكين الذي رماه بنظرة مدمِّرة قادرة على تحطيم كل شيء، وهي النظرة نفسها التي كان قد استعان بها في مناسبتَين هذا الصباح والتي يستعين بها الآن للمرة الثالثة وهو ينزل أدراج سلَّم المطعم.

- إلى جسر إسماعيلوفسكي.

- انطلق نحو جسر إسماعيلوفسكي.

«المفروض أن لا يبدأ العشاء عندهم إلا بعد الساعة الرابعة، أو عند حلول الخامسة»، قال السيد غوليادكين في نفسه، «ألست ذاهباً قبل الأوان؟ لكن، ما الضرر في أن أصل قبيل الأوان، إنه مجرد

عشاء عائلي. كما يقال في أوساط الناس الطيبين، لماذا لاَ يحق لي أن أتصرّف من دون كلفة[1] (Sans façon)؟ ألم يقل دبّنا أن كل شيء سيكون من دون كلفة[2]، فكيف لا يحق لي ذلك أنا أيضاً؟».

هكذا كان السيد غوليادكين يحدّث نفسه؛ والحال أن إضطرابه لم يكن يزداد إلا تأجّجاً. كان واضحاً أنه يستعد لشيء ما يقلقه أشد القلق إذ كان يحدّث نفسه، ويلوّح بيده اليمنى، ولا يتوقف عن النظر من خلال نوافذ عربته، إلى درجة أن من يراه على تلك الحال لا يمكن أن يعتقد أنه ذاهب إلى حفل عشاء مع جماعة من العائلة، من دون كلفة[3] كما يقال في أوساط الناس الطيبين. حين وصل السيد غوليادكين إلى جسر إسماعيلوفسكي، أشار نحو عمارة، فدخلت العربة مقرقعة، ثم توقفت أمام سلَّم الجناح الأيمن من المبنى. لمح السيد غوليادكين وجه امرأة خلف نافذة الطابق الثاني، فبعث لها بقبلة على راحة يده. والواقع أنه لم يكن يعي، هو نفسه، ماذا يفعل، لأنه، في تلك اللحظة، لم يكن حيّاً ولا ميتاً. نزل من العربة شاحباً متردداً، وأخذ يصعد أدراج المدخل وقد نزع قبعته وانشغل بتعديل ثيابه بحركة آلية، ثم بدأ يصعد السلَّم وقد أخذت ركبتاه تصطكان.

- هل أولسوفي إيفانوفيتش موجود في البيت؟ سأل الخادم الذي فتح الباب.

- إنه في البيت، يا سيدي، أقصد ليس في البيت، ليس في البيت.

---

(1) بالفرنسية في النص الأصلي.

(2) بالفرنسية في النص الأصلي.

(3) بالفرنسية في النص الأصلي.

- كيف؟ ماذا تقول أيها الرجل الطيب؟ لقد جئت للعشاء أيها الرجل الطيب. ألم تعرفني؟

- بلى يا سيدي، لكنني أمرت ألا أسمح لك بالدخول يا سيدي.

- أنت... أنت مخطئ من دون شكّ أيها الرجل الطَيب، هذا أنا، وقد جئت للعشاء أيها الرجل الطيب... قال السيد غوليادكين وهو يخلع معطفه، ويعزم على الدخول.

- معذرة يا سيدي... مستحيل أن أسمح لك بالدخول، أمرني سيدي ألا أسمح لك بالدخول.

امتقع لون السيد غوليادكين. وفي تلك اللحظة انفتح باب إحدى غرف المنزل، ودخل العجوز غيراسيميتش كبير الخدم في منزل أولسوفي إيفانوفيتش.

- هذا السيد يريد أن يدخل يا إيميليان غيراسيميتش، وأنا...

- أنت غبي يا ألكسييتش، ادخل ونادي على ذلك الكسول سيميونيتش.

- مستحيل ياسيدي، أردف غيراسيميتش باحترام وصرامة وهو يلتفت نحو السيد غوليادكين. مستحيل يا سيدي. سيدي يرجوك أن تعذره، إنه لا يستطيع أن يستقبلك.

- هل قال سيدك إنه لا يستطيع أن يستقبلني؟

- مستحيل. لقد أخبرت سيدي بوصولك، فقال لي: اعتذر له. إنه لا يستطيع أن يستقبلك، يا سيدي. بهذا أمر.

- لماذا؟ وكيف يمكن ذلك؟ ما الذي...

- أرجوك يا سيدي، إنها الأوامر...

- ماذا؟ هذا غير ممكن. أخبره بقدومي. . . ماذا يعني هذا؟ لقد جئت للعشاء.

- أرجوك يا سيدي، إنها الأوامر. . .

- نعم، إذا كان سيدك هو من طلب منك أن تعتذر بالنيابة عنه فالأمر يختلف. ولكن ماذا يحدث يا غيراسيميتش، ماذا يحدث؟

- أرجوك، أرجوك، كرّر غيراسيميتش وهو يُبعد السيد غولياذكين بحسم، ويفسح الطريق لسيدَين كانا قد دخلا إلى غرفة الانتظار في تلك اللحظة. إنهما السيدان أندريه فيليبوفيتش وابن أخيه فلاديمير سيميونوفيتش. أخذ هذان الأخيران ينظران إلى السيد غولياذكين مندهشين. بدا أندريه فيليبوفيتش وكأنه يريد أن يقول شيئاً، لكن السيد غولياذكين كان قد حسم أمره وقرر أن يتوجّه نحو باب الخروج مطأطأ الرأس، محمر الوجه، وهو يبتسم ابتسامة تعبِّر عن اضطرابه.

- سأعود ثانية، يا غيراسيميتش، وسأشرح لك كل شيء، وأتمنى أن تتضح الأمور. قال وهو على عتبة المنزل، على أهبة أن ينزل السلَّم.

- ياكوف بتروفيتش، ياكوف بتروفيتش، ناداه أندريه فيليبوفيتش وهو يهرول خلفه.

كان بطلنا قد وضع رجله على الدرجة الأولى حين التفت بسرعة.

- ماذا تريد يا أندريه فيليبوفيتش؟ سأله بصوت صارم.

- ماذا دهاك يا ياكوف بتروفيتش؟ كيف. . .

- لا شيء يا أندريه فيليبوفيتش، لقد جئت إلى هنا بمحض إرادتي. إنها حياتي الخاصة يا أندريه فيليبوفيتش.

- ماذا قلت؟
- قلت إنها حياتي الخاصة يا أندريه فيليبوفيتش، وأعتقد أن لا يحق لأحد أن يؤاخذني على شيء يتعلق بعلاقاتي الرسمية.
- ماذا؟ هل قلت علاقاتك الرسمية؟ ماذا دهاك يا سيدي العزيز؟
- لا شيء، لا شيء على الإطلاق يا أندريه فيليبوفيتش، إنها طفلة وقحة، ولا شيء غير ذلك...
- ماذا... كيف؟ تساءل أندريه فيليبوفيتش مندهش أيّما اندهاش. أخذ السيد غوليادكين الذي ظل يتحدث من المكان نفسه ينظر إلى أندريه فيليبوفيتش رئيس القسم الذي يعمل فيه نظرات تعبِّر عن رغبته في الانقضاض عليه. لكنه حين رأى اضطراب رئيسه تقدَّم خطوة نحوه حتى دون أن يشعر بما أقدم عليه. فتراجع أندريه فيليبوفيتش إلى الخلف. تقدَّم السيد غوليادكين من رئيسه أكثر وهو يصعد درجة تلو الأخرى. فأخذ أندريه فيليبوفيتش ينظر حوله بقلق. تقدَّم السيد غوليادكين نحوه بسرعة، فتراجع أندريه فيليبوفيتش نحو المنزل وأغلق الباب خلفه. لبث السيد غوليادكين وحيداً لا يتحرك من مكانه، ويكاد لا يرى ما حوله، ولا يدري أين يوجد. بدا وكأنه يريد أن يتذكر مغامرة ما غامضة هي الأخرى عاشها قبل أيام قليلة. «آه، آه» غمغم السيد غوليادكين وهو يبذل جهداً كي يبتسم. في تلك اللحظة سُمع وقع أقدام وأصوات في أسفل السلَّم، قد تكون لمدعوين جدد. استعاد السيد غوليادكين وعيه، فأسرع يرفع ياقة فراء معطفه قدر ما استطاع كي يتمكن من إخفاء وجهه، وأخذ ينزل السلَّم بخطى حثيثة وهو يثب مضطرباً متعثراً. كان يحس بالوهن والخدر. وكان اضطرابه من القوة بحيث أنه حين بلغ المدخل لم ينتظر عربته،

واجتاز الفناء الموحل متوجِّهاً نحوها. حين همَّ أن يصعد إلى العربة تمنّى لو تخسف به الأرض، أو أن يختفي هو وعربته في جُحر من جحور الفئران. كان يخيل إليه أن جميع من في منزل أولسوفي إيفانوفيتش قد وقفوا يتفرّجون عليه من النوافذ، وأنه إذا التفت الآن إلى الخلف فسيموت حالاً حيث هو.

- لماذا تضحك أيها الغبي؟ قال على عجل لبتروشكا الذي كان قد تقدَّم كي يفتح له باب العربة.

- ولماذا أضحك؟ أنا لم أفعل شيئاً، إلى أين سنذهب الآن؟

- إلى المنزل، وبسرعة.

- إلى المنزل، صرخ بتروشكا وهو يصعد درج العربة الخلفي.

«ما أشبه صوته بصوت الحمير»، قال السيد غوليادكين في نفسه. كانت العربة قد ابتعدت عن جسر إسماعيلوفسكي حين جذب بطلنا الحبل المربوط في كوع الحوذي فجأة وأمره بالعودة من حيث أتى فوراً. خضع الحوذي لطلبه، وبعد دقيقتين دخل مرة أخرى إلى فناء العمارة التي يقع فيها منزل أولسوفي فيليبوفيتش.

«لا، أيها الغبي، لم أقصد هذا، عد من حيث أتيت». صرخ السيد غوليادكين، وأدار الحوذي العربة في الحال مبتعداً عن العمارة دون احتجاج، وكأنه كان يتوقع أن يصدر إليه السيد غوليادكين مثل هذا الأمر.

لم يعد السيد غوليادكين إلى منزله، وإنما أمر الحوذي بعد أن تجاوزا جسر سيميونوفسكي، بأن يمضي في شارع صغير، ثم أوقفه أمام فندق متواضع. نزل من العربة، وأنقد الحوذي أجره، ثم أمره بالانصراف. وأمر بتروشكا أن يعود إلى المنزل، وأن ينتظره هناك.

ودخل إلى الفندق واستأجر غرفة، ثم طلب أن يُحمل إليه العشاء. كان في حالة نفسية سيئة جداً. كان يحس أن دماغه يغلي من شدة الاضطراب. أخذ يذرع الغرفة مضطرباً، ثم جلس ممسكاً جبينه بيديه، وهو يحاول أن يسترجع كل قواه كي يستطيع أن يفكّر ويحل بعض المشاكل التي يطرحها وضعه الراهن...

الفصل الرابع

اختتم ذلك اليوم الرائع، يوم عيد ميلاد كلارا أولسوفييفنا الابنة الوحيدة لأولسوفي إيفانوفيتش بيرنديف مستشار الدولة[1] الذي كان في ما مضى سنداً وحامياً للسيد غوليادكين - ذلك اليوم الذي أقيمت خلاله حفلة عشاء فخمة لم يشهد لها مثيل في أي منزل من منازل الموظفين الذين يقطنون في حي جسر إسماعيلوفسكي منذ زمن طويل، حفلة عشاء أشبه بولائم بلتزار منها إلى حفلة عشاء عيد ميلاد، لأنها اشتملت على شيء ممّا كانت تشتمل عليه الولائم البابلية من حيث الإشعاع، والبذخ، والأُبّهة، والأناقة، وحفلت بأنواع من شمبانيا كليكو، ومن المَحَار، والفاكهة المقتناة من محلات إيليسييف وميليوتين، وبعدد من كبار البطون والموظفين السامين - اختُتم ذلك اليوم الرائع الذي تميز بتلك الوليمة الرائعة[2]، بحفلة راقصة رائعة، حفلة عائلية طبعاً، لكنها كانت رائعة

---

(1) تقع رتبة مستشار الدولة في الدرجة الخامسة من لائحة ترتيب الموظفين التي وضعها بيير الأكبر.

(2) كانت الوجبات والولائم تقام بتناسب مع لائحة الرتب والدرجات التي وضعها بيير الأكبر.

بما عرفته من ذوق رفيع وعلو المقام. لا شكّ أن مثل هذه الحفلات الراقصة تقام في منازل أخرى، لكنها نادراً ما تقام. إن مثل هذه الحفلات الراقصة، التي هي إلى الأعياد العائلية أقرب منها إلى الحفلات، لا يمكن أن تقام مثلاً إلا في مثل منزل بيرنديف مستشار الدولة، بل إنني لأشك أن تقام مثل هذه الحفلات الراقصة في منازل جميع مستشاري الدولة. آه، لو كنت شاعراً (شاعراً بمثل موهبة هوميروس أو بوشكين، لا أقل) إذاً لصوّرت لك -أيها القارئ- بريشة كبيرة وألوان زاهية، وقائع تلك الليلة الرائعة، ولافتتحتُ قصيدتي بوصف حفلة العشاء، مركِّزاً بشكل خاص على تلك اللحظة الرائعة التي رفعت خلالها أول كأس احتفاء بملكة الحفلة، والمدعوين وقد استسلموا لصمت كنائسي بليغ أقرب إلى بلاغة ديموستين منه إلى الصمت العادي. ثم أقدم إليك أندريه فيليبوفيتش الذي بوّأته مكانته كعميد للمدعوين مكانة أثيرة في الحفلة، ومنحه الشيب والأوسمة وقاراً على وقار، وهو يقف رافعاً كأسه المملوءة بخمر نادر - خمر استورد من مملكة بعيدة كي يشرب في مثل هذه المناسبات، خمر هو أقرب إلى رحيق الآلهة منه إلى خمر من ذاك الذي يشربه كل الناس. ولوصفت أبوي ملكة الحفلة وهما يرفعان كأسيهما ليشربا نخب ابنتهما اقتداء بأندريه فيليبوفيتش، وينظران إليه نظرات محملة بالانتظار، وكيف قام أندريه فيليبوفيتش الذي كثيراً ما يذكر اسمه هنا، بعد أن ذرف قليلاً من الدموع، بإلقاء كلمة تهنئة ملأى بأغلى التمنيات، وبرفع كأسه وشرب نخب المحتفى بها. لكني أعترف بتواضع أني عاجز عن أن أصفَ زخم تلك اللحظة وكيف احمرَّ وجه ملكة الحفلة كلارا أولسوفييفنا تواضعاً وسعادة، احمرار وردة في فصل الربيع، فدفنت وجهها من شدة الانفعال بين أحضان

أمها؛ وكيف بكت تلك الأم الحنون، وكيف بكى لبكائها ذلك الأب المحترم الحكيم المستشار أولسوفي إيفانوفيتش الذي حرمته سنوات الخدمة الطويلة من استعمال ساقيه، والذي عوّضه القدر بأن كافأه عن إخلاصه في عمله برأس مال لا يستهان به، ومنزل صغير، وعدّة أملاك، وابنة جميلة جداً، بكاء كبكاء الأطفال وهو يعلن من خلال دموعه أن صاحب المعالي هو الطيبة نفسها تمشي على قدمين. ولن أستطيع، لا، لن أستطيع أبداً أن أصف لك درجة الانفعال التي عمّت كل الحضور في تلك اللحظة، والتي انعكست على رد فعل شاب يعمل محرّراً في إحدى سجلّات الدولة[1] (والذي بدا في تلك اللحظة وكأنه مستشار لا مجرد محرّر في السجلّات) إذ انفعل حتى كاد ينفجر باكياً عند سماعه لكلمة أندريه فيليبوفيتش. وكانت هيئته هذا الأخير هو الآخر، لا تشبه، في تلك اللحظة المؤثرة، هيئة مستشار وإنما هيئة رئيس قسم في إحدى الوزارات - لا، لم تكن هيئته توحي بهيئة رئيس قسم، وإنما بهيئة تناسب مرتبة أعلى لا أعرف ما هي بالضبط، مرتبة أعلى من مرتبة مستشار، بل أسمى من ذلك... أواه، لماذا لا أملك أسلوباً فصيحاً جذاباً، بليغاً، يرقى إلى مستوى تلك اللحظات العظيمة المؤثرة في حياة البشرية، تلك اللحظات التي وكأنها لم توجد إلا لكي تعبِّر أحياناً عن انتصار الفضيلة على الرذيلة وعلى الانحلال الخلقي، وعلى الحسد - لن أقول شيئاً، وسأكتفي بأن ألتزم الصمت، على أمل أن يكون صمتي أبلغ من كل بلاغة، صمتاً يصفُ ذلك الشاب السعيد فلاديمير

---

(1) يقع المحرّرون في سجلّات الدولة في الرتبة الرابعة عشرة، أي الأخيرة، من سلّم الترتيب الذي وضعه بيير الأكبر.

سيميونوفيتش ابن أخ أندريه فيليبوفيتش الذي شارف على السادسة والعشرين، والذي وقف من على كرسيه بدوره ورفع كأسه كي يشرب نخب المحتفى بها، فعلقت به نظرات أبويها المبلّلة بالدموع، ونظرات أندريه فيليبوفيتش المليئة بالفخر والاعتزاز، ونظرات ملكة الحفلة المعبِّرة عن الخجل، ونظرات المدعوين المعجبة، بل حتى تلك النظرات التي صدرت عن بعض زملاء ذلك الشاب المتألّق في المكتب، والتي لم تكن خالية من الحسد. لن أضيف شيئاً، ولكن لا بدَّ أن أسجِّل أن كل شيء في ذلك الشاب -الذي هو أقرب إلى شيخ حكيم منه إلى شاب في مقتبل العمر- أقول كل شيء، من وجهه المحمرّ إلى رتبته كمساعد إداري التي تميزه عن باقي زملائه الشباب الحاضرين، كل شيء فيه كان يبدو، في تلك اللحظة المؤثرة، وكأنما لا تعوزه إلا الكلمات كي يعبِّر عن قدرة الأخلاق الحميدة على أن تسمو بصاحبها إلى أرقى الدرجات. ولن أحاول في الأخير أن أصفَ كيف رفع العجوز الأشيب أنطون أنطونوفيتش، وهو رئيس مكتب في إحدى الوزارات، وزميل لأندريه فيليبوفيتش، وصديق للأسرة وعرّاب كلارا أولسوفييفنا بالإضافة إلى ذلك، كأسه وشرب نخب المحتفى بها، وغنّى بصوت كصوت الديك، وقرأ أشعاراً ظريفة مازحة، ممّا جعل الحاضرين ينفجرون ضحكاً رغم أن طريقته في الإلقاء كانت بعيدة عن حدود اللياقة واللباقة، ودُفعت كلارا أولسوفييفنا نفسها إلى أن تتقدم نحوه بأمر من والديها كي تُقبّله شكراً له على طيبته، وظرفه، وخفة دمه. وبعد ذلك قام المدعوون الذين لا شكّ أنهم كانوا قد أخذوا يشعرون بنوع من التقارب والأخوة، بمغادرة قاعة العشاء بعد وجبة تبادلَ خلالها المسنون حديثاً أخوياً صادقاً يليق بمرتبتهم، واتّجهوا بنوع من الاحتفالية صوب قاعة أخرى

في جماعات صغيرة متفرّقة، وجلسوا حول موائد غطّيت بثوب أخضر على الفور، كي لا يضيّعوا وقتهم الثمين. أما السيدات فما إن التحقن بالقاعة حتى شرعن في الحديث حول الموضة؛ وأما رب المنزل الذي حُرم من استعمال ساقيه خدمة لوطنه، والذي عُوض عن ذلك بما ذكرته سابقاً، فأخذ يطوف بين المدعوين وهو يتكئ على عكازين ويسنده فلاديمير سيميونوفيتش وكلارا أولسوفييفنا. ولفرط سعادته قرّر أن يقيم حفلاً راقصاً متواضعاً رغم ما سيكلفه من نفقات. وكان أن تطوع شاب (هو ذلك الموظف في السجلّ الذي قلت أنه أشبه بمستشار منه بمحرّر في سجلّات الدولة) بإحضار فرقة موسيقية، فأتى بفرقة موسيقية مكوّنة من أحد عشر عازفاً على الساعة الثامنة ونصف تماماً، وشرعت تعزف لحناً فرنسياً[1] تلته عدة رقصات... لا داعي لأن أقول إن ريشتي من الضعف والعجز بحيث لا تستطيع أن تصف بدقة تلك الحفلة الراقصة المرتجلة التي تكرّم رب الأسرة المحترم بإقامتها. وأنَى لي، إني لأسألك أيها القارئ، أنَى لي أنا السارد المتواضع لمغامرات السيد غوليادكين العجيبة الفريدة من نوعها، أنَى لي أن أصف بدقة عظمة كل ذلك التناغم بين الجمال، والتألق، والفرح، والجدية، والطيبة... كل ألعاب وضحكات أولئك السيدات المنتميات إلى الطبقة الراقية، واللواتي هنّ أشبه بالحوريات منهنّ بسيدات من الطبقة الراقية... كيف أفصّل القول في وصف أكتافهنّ الشبيهة بأزهار الزنبق، ووجوههنّ الشبيهة

---

(1) كان كل ما هو فرنسي آنذاك مظهراً من مظاهر الانتماء إلى الطبقة الأرستقراطية التي كانت تلجأ إلى استعمال اللغة الفرنسية في أحاديثها. انظر بداية رواية الحرب والسلم لتولستوي مثلاً.

بالورود، وقدودهنّ الجذابة، وأقدامهنّ الصغيرة، الخفيفة، المتجانسة (بتعبير أكثر دقّة وبلاغة). وأنَى لي، أخيراً، أن أصفَ فرسانهنّ البيروقراطيين، السعداء منهم والصارمين، الشباب منهم والشيوخ، الفرحين منهم والغارقين في التأمُّل، الذين يدخنون الغليون بين كل رقصة وأخرى منهم والذين لا يدخنون - أنَى لي أن أصفَ فرسانهنّ الذين يحملون رتباً وأسماء محترمة، ويشعرون شعوراً عميقاً بكرامتهم، ويخاطبون السيدات بالفرنسية في أغلب الأوقات ليمدحوهنّ أو ليصوغوا حِكَماً، وإذا ما استعملوا اللغة الروسية فإنهم لا يستعملون إلا العبارات الراقية، ولا يسمحون بتوظيف بعض العبارات السوقية أثناء التدخين في المكان المخصص للتدخين إلا نادراً، من مثل: «بيتكا أيها المهرج، أرى أنك بارع في رقصة البودكا»، «فاسيا أيها الوغد، لقد نجحت أخيراً في أن تجعلها تعلق في شراكك». إن ريشتي، كما سبق أن تشرّفت بأن شرحت لك أيها القارئ العزيز، قاصرة عن أن تصف كل ذلك، لذلك أؤثر أن ألتزم الصمت، وأن أعود إلى السيد غوليادكين البطل الوحيد الحقيقي لهذه القصة الواقعية.

الواقع أن بطلنا كان في وضع غريب كل الغرابة في تلك اللحظة. كان من بين الحاضرين أيها السادة، لا أقصد: من بين من يحضرون الحفل الراقص، ولكنه يكاد يكون من الحاضرين. كان يقف وحيداً، لكن بطلنا المدافع عن الاستقامة لم يكن يقف في مكان يستقيم الوقوف فيه. إنه يقف -الحقيقة أني متردّد في أن أقول ذلك- إنه يقف في مدخل سلّم الخدمة بمنزل أولسوفي إيفانوفيتش. ليس مشكلاً أن يقف هنا، أيها السادة، إنه يقف هنا لأنه يريد أن يقف هنا وكفى. إنه يقف، أيها السادة، في مكان إن لم يكن دافئاً

فهو مظلم على الأقل، إنه مختبئ خلف دولاب كبير، وحاجز عتيق، وبعض الخردوات، مختبئ مؤقّتاً ويشاهد ما يحدث بصفته مراقباً من خارج قاعة الاحتفال. إنه يكتفي بالمشاهدة في هذه الأثناء، أيها السادة، وإن كان بوسعه أن يدخل إلى القاعة هو الآخر، أيها السادة، وماذا سيمنعه من الدخول؟ هي خطوة واحدة فقط ويجد نفسه بالداخل بلا عناء. ولكنه يقف ها هنا منذ أزيد من ثلاث ساعات وسط كل هذه الخردوات، ويكتفي، لكي يبرّر تردّده، بأن يتذكر قول الوزير الفرنسي الراحل فيليل: «من يصبر وينتظر لا بدَّ أن ينتصر». كان السيد غوليادكين قد قرأ هذه الجملة في كتاب لا علاقة له بوضعه الراهن، إلا أنه أسعفه في تلك اللحظة بما يناسب وضعه الراهن. ما أكثر الأفكار التي قد تراود فكر إنسان يقفُ منتظراً في مكان مظلم أن ينتهي وضعه الراهن نهاية سعيدة. فها هو ذا، بعد أن انتهى من تذكر قولة الوزير الفرنسي السابق فيليل، يتذكر، دون أن يعرف السبب، قصة الوزير التركي السابق مارزيميريس مع الحسناء مارغرافين لويز. ويتذكر أيضاً أن اليسوعيين تبنّوا ذلك المبدأ القائل: الغاية تبرّر الوسيلة. وشجّعه ما تذكره بخصوص اليسوعيين، فأخذ يردّد: اليسوعيون، وما اليسوعيون جميعهم؟ إنهم مجرد أغبياء، وإنه لقادر على أن يضعهم في جيبه جميعاً. يكفي أن تفرغ غرفة البوفيه لدقيقة واحدة فقط (إنها الغرفة التي تتصل مباشرة بالمكان الذي كان السيد غوليادكين يقف فيه في تلك اللحظة)، حينها لن يعبأ بكل اليسوعيين حيثما وجدوا، وعلى الفور سيجتاز غرفة البوفيه نحو غرفة الشاي، وسيعبر إلى الغرفة التي يلعبون فيها الورق الآن، فإلى القاعة التي يرقصون فيها رقصة البولكا في هذه اللحظة. سيعبر، حتماً سيعبر، سيعبر رغم كل شيء، سيتسلل بحيث لا يراه أحد، بعد ذلك

سيعرف كيف يتصرف... هذا هو الوضع الذي هو عليه الآن بطل قصتنا الواقعية هذه. يبقى أنه من الصعب أن أفسر ما يقع بداخله في هذه اللحظات. الواقع أنه كان قد تمكّن من الوصول إلى البهو وإلى سلَّم الخدمة لأنه كان قد قال لنفسه: وما المانع في ذلك؟ إذا كان الآخرون قد وصلوا فلماذا لا أصل أنا؟... إلا أنه لم يجرؤ على أن يتقدّم أبعد من ذلك، واضح أنه لم يجرؤ... لا، ليس لأن هناك أشياء لا يجرؤ على فعلها، بل لأنه لم يشأ ذلك، لأنه يفضّل أن يقوم بذلك خلسة. وها هو ذا ينتظر انتظار المختلس، ينتظر منذ ساعة ونصف بالضبط. ولماذا لا ينتظر؟ فيليل نفسه انتظر. «ولكن ما علاقة فيليل بما أنا فيه الآن؟» قال السيد غوليادكين في نفسه، «ما جدوى فيليل الآن؟ ماذا لو... فجأة، ماذا لو أدخل هكذا فجأة؟ ما أنت إلا كومبارس» استمر قائلاً وهو يقرص خديه بأصابعه المخدّرة من البرد، «ما أنت إلا غبي، ما أنت إلا اسم على مسمى[1]...». الواقع أن ملاطفته لنفسه في هذا الموقف لم تكن متعمدة هادفة. وفجأة تقدم السيد غوليادكين خطوة إلى الأمام؛ كانت اللحظة المناسبة قد حانت حين صار البوفيه خالياً تماماً. لاحظ السيد غوليادكين ذلك عبر كوة صغيرة فاندفع نحو الباب، وها هو ذا أمامه ويهم بأن يفتحه. «أأدخل أم لا؟... ولماذا لا أدخل؟ كل الأبواب تفتح في وجوه الشجعان». بعد أن شجّعه هذا الكلام، تراجع إلى مكانه فجأة ومن دون توقع. «لا، لا، ماذا لو دخل أحدهم على حين غرة؟ ها هو ذا أحدهم قادم... ماذا دهاني كي لا أدخل حين

---

(1) يوحي اسم غوليادكين في بعض مشتقاته في اللغة الروسية بالعري والنذالة والغباء.

لم يكن في البوفيه أحد؟ كانت لحظة مناسبة كي أتقدّم إلى الأمام... وكيف أتقدّم إلى الأمام وأنا على ما أنا عليه من متردد. ما أنا إلا جبان خواف كدجاجة!... الخوف، هذا ما تجيده، نعم الخوف والبلاهة هو كل ما أجيده. والآن، الآن، ها أنت ذا متسمّر هنا كحطبة، نعم كحطبة، لا أقل ولا أكثر... آه، كم أتمنى أن أكون الآن في المنزل أشرب الشاي. إذا تأخرت في العودة فسيشرع بتروشكا في التذمر... ألا يحسن بي أن أعود إلى المنزل؟ فليذهب كل هذا إلى الجحيم، سأدخل وليكن ما يكون». ما أن عزم السيد غوليادكين هذه المرة حتى اندفع إلى الأمام فجأة وكأن يداً خفية دفعته من خلف. وسرعان ما وجد نفسه في قاعة البوفيه، فألقى بمعطفه ونزع قبعته، وخبأهما في أحد أركان القاعة على عجل، ثم عدّل من لباسه ومشّط شعره بيديه؛ وبعد ذلك... وبعد ذلك تسلّل إلى المطبخ، ومنه إلى الغرفة المحاذية دون أن يثير فضول أي واحد من المدعوين المتحلقين حول مائدة القمار؛ بعد ذلك... بعد ذلك... لم يعد يدرك شيئاً ممّا يجري حوله... وفجأة دخل قاعة الرقص كالصاعقة.

حين دخل وجد الراقصين قد توقفوا عن الرقص. كانت السيدات يتجولن في القاعة في جماعات صغيرة لطيفة، والرجال يشكلون حلقات صغيرة، ويتقدمون من السيدات يطلبون منهن أن يمنحنهن الرقصة المقبلة. لم يكن السيد غوليادكين يرى شيئاً. لم يكن يرى إلا كلارا أولسوفييفنا التي كانت بصحبة أندريه فيليبوفيتش وفلاديمير سيميونيفيتش وضابطَين أو ثلاثة، وشابَّين أو ثلاثة من الشباب الواعدين... كان ينظر إلى بعض المدعوين الآخرين... بل لم يكن ينظر إلى أحد، لم يكن ينظر إلى أحد على الإطلاق...

كان يتقدم إلى الأمام مدفوعاً بتلك القوى الخفية نفسها التي دفعت به نحو حفلة لم يستدعَ إليها. كان يتقدم، ويتقدم، ويتقدم إلى الأمام دائماً، فيصطدم بأحد المستشارين ويدوس على قدمه، وعلى طرف من ثوب سيدة محترمة فيمزقه قليلاً، ويصطدم بخادم يحمل طبقاً يطوف به بين المدعوين، وببعض الحاضرين... إلا أنه لم يلاحظ شيئاً من ذلك، أو بالأحرى لاحظه غير آبهٍ، ودون أن ينظر إلى أحد. كان كل همّه أن يتقدم دائماً إلى الأمام، إلى أن وجد نفسه أمام كلارا أولسوفييفنا فجأة. لا شكّ، لا شكّ البتة أنه كان سيقبل أن تخسف به الأرض بكل سرور في تلك اللحظة، قبل أن يطرف له جفن؛ ولكن فات الأوان، ولا وقت للتراجع، لا، لا وقت للتراجع... فما العمل إذاً؟ «المواظبة عند النجاح، والصمود عند الإخفاق...»، ليس السيد غوليادكين من مدبّري المكائد، ولا هو من ملمّعي الأرض بأحذيتهم... ولكن، ها قد حدث ذلك الآن. ها هم اليسوعيون قد وجدوا الفرصة السانحة كي يتدخلوا... غير أن السيد غوليادكين لم يعد يسليه أن يفكر فيهم. كان كل من يتحرك حوله، أو يصدر عنه صوت ما، أو يتكلم، أو يضحك، قد التزم الصمت، كانوا كأنهم اتفقوا على ذلك، وأخذوا فجأة يتحلقون حول السيد غوليادكين. بدا هذا الأخير وكأنه لا يسمع ولا يرى شيئاً، بل لا يستطيع أن يرى شيئاً... لا يستطيع ذلك البتة لأنه كان قد طأطأ رأسه ناظراً إلى الأرض لا يتحرك، واعداً نفسه وعد شرف أن يجد وسيلة ما تسمح له بأن يطلق النار على نفسه هذه الليلة بالذات. بعد أن وعد نفسه بذلك، أخذ السيد غوليادكين يقول لنفسه: «فليكن ما يكون»، وما أشد دهشته حين سمع نفسه وقد أخذ يتكلم فجأة.

بدأ السيد غوليادكين كلمته بالتهاني والتمنّيات المألوفة في مثل هذه المناسبات. غير أن بطلنا ما إن انتهى من التهاني حتى توقف عن الكلام فجأة. وأحس أنه إذا ما استمر في صمته فسيفسد كل شيء. وحدث ما كان يخشاه، إذ أخذ يتلعثم واحمرَّ وجهه، ثم اضطرب تماماً وفقد السيطرة على نفسه. رفع رأسه ناظراً إلى من حوله، نظر إلى من حوله ف. . . فتسمّر في مكانه من الفزع. . . كل من حوله كانوا متسمّرين لا يتحركون، كل من حوله كانوا صامتين، كل من حوله كانوا منتظرين؛ وسمع غير بعيد عنه بعض الهمسات، وعلى القرب منه بعض السخريات. . . وألقى السيد غوليادكين على أندريه فيليبوفيتش نظرة متواضعة يائسة، فردَّ عليه أندريه فيليبوفيتش بنظرة كانت كفيلة بأن تدمّره مرة أخرى لولا أنه كان قد دمِّر تماماً قبل ذلك. وطال الصمت.

- مردّ هذا كله إلى ظروفي وحياتي الخاصة. . . إنه ليس مبادرة رسمية يا أندريه فيليبوفيتش، قال السيد غوليادكين بصوت يكاد لا يسمع وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، فأنا يا أندريه فيليبوفيتش. . .

- إنه سلوك مخجل يا سيدي، مخجل تماماً، قال أندريه فيليبوفيتش بصوت أجش وبنوع من الاستياء وهو يمسك بيد كلارا أولسوفييفنا ويدير ظهره للسيد غوليادكين.

- لا أرى في هذا السلوك ما يدعو إلى الخجل يا أندريه فيليبوفيتش، رد السيد غوليادكين بصوت أجش هو الآخر وهو ينظر إلى من حوله نظرات ملؤها الشقاء والحيرة، محاولاً أن تقع عيناه بين المدعوين المندهشين على من هم في مثل مكانته الاجتماعية.

- لم يحدث شيء، لم يحدث أي شيء، أيها السادة، ما معنى

ما وقع الآن؟ ما وقع يمكن أن يقع لكل الناس. همس السيد غوليادكين وهو يتزحزح عن مكانه محاولاً أن يتخلّص من حلقة المدعوين. أفسحوا له، فمرَّ من بين صفّين من المدعوين المستطلعين المندهشين. إن القدر يقوده. هو نفسه أحس أن القدر يقوده. لا شكّ أنه كان مستعداً الآن أن يدفع ثمناً غالياً مقابل أن يعود، دون أن يخلَّ بالقواعد الاجتماعية المتعارف عليها، إلى ركنه الصغير خلف ذلك السلَّم الذي كان قد اختبأ تحته قبل قليل، ولكنه، وقد تأكد أن ذلك لم يعد ممكناً، لم يعد يبحث إلا عن الانسلال إلى ركن ما يختبئ فيه بطريقة متواضعة لطيفة، دون أن يزعج أحداً، دون أن يثير انتباه أحد، بطريقة تجعل المدعوين ورب المنزل يعاملونه معاملة حسنة. أحس السيد غوليادكين بدوار، وبأنه يفقد توازنه ويوشك أن يسقط.. وانتهى بأن وصل إلى ركن فاحتمى به، واتخذ هيئة المشاهد الذي لا يعنيه ما يدور حوله في شيء، متكِئاً بيديه على ظهر كرسيَّين، محاولاً قدر المستطاع أن ينظر إلى المدعوين حوله نظرات مطمئنة. وكان على مقربة منه ضابط وسيم ذو قامة طويلة أشعره وجوده بأنه مجرد ذبابة صغيرة.

- إن هذين الكرسيَّين محجوزان أيها الملازم الأول، هذا لكلارا أولسوفييفنا، وهذا للأميرة تشيفتشيخانوفا، وهما الآن ترقصان وأنا أحجزهما لهما أيها الملازم الأول. قال السيد غوليادكين بنَفَس متقطّع وهو ينظر نظرة ضارعة إلى الملازم الأول الوسيم الذي لم يقل شيئاً، واكتفى بأن أدار له ظهره مبتعداً وهو يبتسم ابتسامة قاتلة. حين صدّ عنه الملازم الأول، أراد السيد غوليادكين أن يجرّب حظه مرة أخرى فالتفت نحو مستشار حول عنقه وِسام سامٍ. لكن المستشار نظر إليه نظرة من البرودة بحيث أحس

السيد غولیادكين وكأن المستشار صبّ عليه سطلاً من الماء البارد. فتجمّد السيد غولیادكين في مكانه. وقرّر أن يلتزم الصمت ويلزم مكانه، وأن لا يكلم أحداً كي يظهر للآخرين أنه مدعو مثلهم، وأنه مرتاح لوجوده في هذه الحفلة مثلهم، وأن تصرفه طبيعي ومناسب للمقام كتصرفاتهم. لذلك انشغل بالنظر إلى لباسه، ولكنه سرعان ما رفع بصره وأخذ ينظر إلى سيد ذي مظهر محترم. «لا شكّ أن هذا السيد يضع على رأسه باروكة، إذا ما نزعناها وجدنا تحتها رأساً خالية من الشعر تماماً كباطن اليد»، قال السيد غولیادكين في نفسه. وتذكر السيد غولیادكين، بعد هذا الاكتشاف الهام، الأمراء العرب الذين إذا ما نزعنا العمامة الخضراء التي يضعونها على رؤوسهم اقتداء بالنبي محمد، ظهرت رؤوسهم تحتها صلعاء تماماً. وأدّى به تداعي الأفكار إلى أن تذكّر الأتراك وكيف أنهم ينتعلون البوابيج بدل الأحذية، ونظر إلى حذاء أندريه فيليبوفيتش فألفاه أشبه بالبوابيج التركية منه إلى الأحذية. ويبدو أن السيد غولیادكين قد بدأ يتعود على وضعه شيئاً فشيئاً. «إذا انفصلت هذه الثريا عن سلسلتها فجأة»، قال في نفسه وهو ينظر إلى سقف القاعة، «فسأهرع إلى كلارا أولسوفييفنا فوراً كي أنقذها. سأنقذها وأقول لها: لا تخافي، يا آنستي العزيزة، لم يحدث أي شيء، إنما أنا منقذك...». في تلك اللحظة بالذات أخذ السيد غولیادكين يجول بناظريه باحثاً عن كلارا أولسوفييفنا، فإذا بنظرته تقع على غيراسيميتش العجوز كبير الخدم في منزل أولسوفي إيفانوفيتش وهو يتقدم نحوه بثبات وعزم. ارتعش السيد غولیادكين وقطّب جبينه جراء شعور غامض ومزعج في الوقت نفسه. وأخذ ينظر حوله وهو يتمنى أن يجد وسيلة ما في الحال تنقذه وتساعده على أن يخرج من هذه الورطة بسلام، أو أن يتجاهله تماماً متظاهراً بأن كل

ما حوله لا يعنيه في شيء. ولكنه لم يجد الوقت الكافي كي يقرر القرار الصائب، إذ سرعان ما وجد غيراسيميتش واقفاً أمامه.

- اسمع يا غيراسيميتش، قال بطلنا وهو يلتفت إلى كبير الخدم مبتسماً ابتسامة مبتسرة، يجب أن تصدر أمراً بشأن تلك الشمعة التي هناك فوق الشمعدان، إنها توشك أن تسقط، وعليك أن تأمر بتثبيتها في مكانها قبل أن تسقط، لأنها ستسقط لا محالة يا غيراسيميتش...

- الشمعة؟ لا يا سيدي، إنها ثابتة؛ أما أنت فإن شخصاً يطلبك هناك.

- ومن يطلبني هناك يا غيراسيميتش؟

- لا أعرف من هو يا سيدي... إنه مبعوث من طرف شخص لا أعرفه... لقد سألني: هل ياكوف بتروفيتش غوليادكين هنا؟ وطلب مني أن أستدعيك لأمر مستعجل يا سيدي...

- لا، يا غيراسيميتش، أنت مخطئ، مخطئ تماماً يا غيراسيميتش.

- أشك في ذلك، يا سيدي...

- لا، لا يا غيراسيميتش، لا يجب أن تشك في ذلك، لا داعي للشكّ يا غيراسيميتش، لم يستدعني أحد يا غيراسيميتش، لا يمكن أن يستدعيني أحد، فأنا هنا في منزلي، أقصد في مكاني يا غيراسيميتش.

استردّ السيد غوليادكين أنفاسه ونظر حوله... إنه متأكد أن كل من في القاعة ينظرون إليه وكلهم آذان صاغية، ويترقبون ما سيحدث: الرجال تحلّقوا قربه، والسيدات أخذن يوشوشن قلقات، وربّ المنزل نفسه اقترب منه. وعلى الرغم أن تصرفاته لم تكن تكشف عن

مشاركته مشاركة فعلية مباشرة في ما يحاك له -لأن كل شيء كان يجري بكثير من اللباقة- فإن كل ما كان يحدث حول السيد غوليادكين لم يزده إلا إحساساً بأن اللحظة الحاسمة قد حانت، وبأن عليه أن يبادر بالتصرف تصرفاً يجعل أعداءه يغرقون في الخجل. كان السيد غوليادكين مضطرباً أيّما اضطراب. لكنه أحس أن نوعاً من الإلهام يهبط عليه فجأة، فعاد يوجّه كلامه إلى غيراسيميتش الذي كان لا يزال منتظراً، بصوت مرتجف واثق رغم ذلك:

- لا ، لا أيها الرجل، لم يستدعني أحد، لقد أخطأت، وليست هذه هي المرة الأولى بل قد أخطأت هذا الصباح أيضاً حين أكدت. . . حين تجرأت فأكدت لي، أي نعم لي أنا (وهنا رفع السيد غوليادكين صوته) أن أولسوفي إيفانوفيتش الذي أحسن إلي طوال حياتي والذي كان لي بمثابة الأب، قد أوصد بابه دوني في هذا اليوم الرائع الذي يشعر فيه قلبه الأبوي بسعادة عائلية كبرى (أخذ السيد غوليادكين الذي بدا راضياً عن نفسه منفعلاً، يجيل نظراته حوله بعينين مبللتين بالدموع) أكرر أيها الرجل الطيب أنك أخطأت، أخطأت خطأ فادحاً لا يغتفر. . .

إنها لحظة حاسمة. أحس السيد غوليادكين أن تصرفه أحدث أثراً ملموساً، فلزم مكانه لا يتحرك، غاضاً بصره بتواضع، منتظراً قبلات أولسوفي إيفانوفيتش المرحّبة. وبدا على المدعوين بعض التأثر والاضطراب، وبقي غيراسيميتش الرهيب نفسه جامداً في مكانه عاجزاً عن أن يضيف إلى قوله: «أشك في ذلك يا سيدي. . .» أي شيء آخر. وفجأة شرعت الأوركسترا تعزف رقصة البولكا. فضاع كل شيء، انتهى كل شيء. انتفض السيد غوليادكين، وتراجع غيراسيميتش خطوة إلى الوراء، واندفع كل من في القاعة كالبحر

الهائج نحو الفسحة المخصّصة للرقص، فافتتح فلاديمير سيميونوفيتش وكلارا أولسوفييفنا الرقص، يتبعهما الملازم الأول الوسيم صحبة الأميرة تشيفتشيخانوفا. وتقدّم جمهور من المدعوين ليتفرجوا معجبين مندهشين على راقصي البولكا - تلك الرقصة الجديدة الجذابة التي أصبحت تثير إعجاب الجميع. ونسي المدعوون السيد غوليادكين إلى حين. وفجأة قامت جلبة واضطراب عام، فتوقفت الأوركسترا عن العزف تواً... ذلك أن شيئاً لا يصدّق كان قد حدث. عندما تعبت كلارا أولسوفييفنا من الرقص تهاوت على مقعد متقطّعة الأنفاس، محمرّة الخدين، لاهثة، خائرة القوى. فهرع كل من في القاعة نحوها كي يهنئوها، ويشكروها على ما منحتهم من متعة - وفجأة وقف السيد غوليادكين أمامها. كان شاحب الوجه تماماً، مضطرباً، متعباً غير قادر على الحركة. ومدَّ يده بحركة متوسلة وهو يبتسم. اندهشت كلارا أولسوفيفنا فلم يتّسع لها الوقت كي تسحب يدها. ونهضت مستجيبة لدعوة السيد غوليادكين دون أن تعي ما تفعل. فكان أن خطا السيد غوليادكين خطوة مضطربة إلى الأمام، تلاها بخطوة أخرى، ورفع ساقه، ومسح الأرض برجله، ثم ضرب برجله الأرض، ثم تعثر... بدا واضحاً أنه كان يريد أن يراقص كلارا أولسوفييفنا هو أيضاً. أخذت كلارا أولسوفييفنا تصرخ، فهرع نحوها كل المدعوين كي يخلّصوا يدها من يد السيد غوليادكين. وفجأة وجد بطلنا نفسه وقد أبعد عنها مسافة لا تقل عن عشر خطوات. وسرعان ما تحلّق حوله الحضور. فأخذت سيدتان، كان قد أسقطهما حين تراجع إلى الخلف، تصرخان في وجهه، وحاصرته الأسئلة، والاستغرابات، والتعاليق، من كل جانب. وتوقفت الأوركسترا عن العزف. كان بطلنا المحاصر يقاوم وهو

يحاول أن يبتسم ويقول بصوت خافت كأنما يحدّث نفسه: «ولماذا لا؟ أليست رقصة البولكا رقصة جديدة شيقة، ممتعة بالنسبة إلى السيدات؟ لكن، وبما أن الأمور قد آلت إلى ما آلت إليه، فأنا مستعد للموافقة على...»، لكن يبدو أن موافقة السيد غوليادكين لم يطلبها أحد. وفجأة أحس بطلنا بيد تمسك بذراعه، بينما تتولى يد أخرى دفعه من خلف، إنه شخص ما يدفعه بعزم في اتجاه معيّن. وسرعان ما تبيّن له أنه يُساق نحو الباب. أراد السيد غوليادكين أن يقول شيئاً ما، أن يفعل شيئاً ما... لكن لا، إنه لم يعد يريد شيئاً. واكتفى بأن أخذ يبتسم رغم أنفه. أحس أن شخصاً ما يُلبسه معطفه، ويضع القبعة على رأسه، وأنه صار بعد ذلك في الفسحة أمام السَلَّم، وسط البرد والظلام، وأنه يهبط السلَّم. وزلت قدمه، وخيل إليه أنه يسقط في هاوية. أراد أن يصرخ - وفجأة وجد نفسه في فناء المنزل. شعر بريح باردة على وجهه. توقف لحظة سمع خلالها أصوات الأوركسترا وهي تعود إلى العزف. وفجأة تذكر السيد غوليادكين كل شيء؛ وبدا كأن القوة التي خانته قد عادت إليه فجأة. وانتزع نفسه من المكان الذي كان يقف فيه متسمّراً، وهرع إلى خارج المنزل، لم يكن يهمه المكان الذي سيتوجه إليه، لم يكن يهمه إلا المضي في الهواء الطلق نحو الحرية، نحو المكان الذي تقوده إليه رجلاه...

الفصل الخامس

كانت جميع الساعات في كل أبراج سان بطرسبورغ تدق معلنة منتصف الليل حين وصل السيد غوليادكين إلى رصيف فونتاكا، قرب جسر إسماعيلوفسكي، تائهاً حائراً، هارباً من أعدائه، من اضطهادهم له، من وابل الضربات التي أمطروه بها، من صرخات السيدات المسنّات المذعورات، من آهات النساء ونظرات أندريه فيليبوفيتش. كان السيد غوليادكين منهاراً - منهاراً تماماً، بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وإذا كان قد استطاع إلى تلك اللحظة أن يحافظ على قدرته على الجري فبفضل معجزة ما، معجزة يرفض أن يصدقها. إنها ليلة من ليالي نوفمبر الرهيبة، الرطبة، المَلأى بالضباب، الممطرة، المحملة بالزكام والالتهابات من كل نوع - باختصار، إنها ليلة من الليالي المحمّلة بكل هِبَات شهر نوفمبر في سان بطرسبورغ. كانت الريح تعوي في الشوارع المقفرة، فترفع مياه نهر فونتاكا السوداء إلى ما فوق السلاسل المخصّصة لإرساء السفن، وتلامس بغضب المصابيح القليلة المتناثرة على الرصيف، فتردّ هذه الأخيرة على عوائها بقرقعات حادة، لتكتمل صورة ذلك العزف الموسيقي المتواصل الحاد الثاقب الذي يعرفه جيداً كل سكان سان بطرسبورغ. كان المطر يهطل، والثلج يسقط. وكانت مياه المطر

التي تتلاعب بها الرياح القوية تسقط خطوطاً تكاد تكون أفقية، كما لو أنها نابعة من أنابيب المياه التي يستعملها رجال الإطفاء، فتهوي على وجه السيد غوليادكين التعيس وكأنها آلاف من الإبر والدبابيس. وفي صمت الليل الذي لم تكن تخرقه إلا قرقعات بعض العربات البعيدة، وعويل الرياح وصرير المصابيح، كان الصوت المتقاطر من كل الأسطح، والأفاريز، والمزاريب، يبدو حزيناً. إنه مكان خالٍ تماماً، يستحيل أن تعثر فيه على شخص ما في مثل تلك الساعة وذلك الطقس. وحده السيد غوليادكين كان ينط في تلك الساعة على رصيف الفونتاكا بخطاه القصيرة السريعة المألوفة، ويستعجل الوصول إلى منزله في الطابق الرابع من عمارة بشارع «الدكاكين الستة».

ورغم أن الثلج، والمطر، وكل ما ليس له اسم من عناصر الطبيعة الثائرة في سماء نوفمبر بسان بطرسبورغ، قد هاجمت كلها مجتمعة السيد غوليادكين البائس المدمَّر تماماً دون أن ترحمه أو تترك له أية فرصة، إذ نفذت إلى عظامه، وأعمت بصره، ودفعته في كل اتجاه فجعلته يتيه عن وجهته المقصودة ويفقد ما تبقى لديه من رجاحة عقل، رغم أن كل هذه العناصر قد تكالبت عليه من كل صوب، وكأنها متواطئة مع جميع أعدائه كي تزيد نهاره ومساءه وليله فساداً على فساد. رغم كل هذا بدا السيد غوليادكين وكأنه لم يكترث لما وضعه القدر أمامه من اختبار جديد، ذلك لأن كل ما حدث في منزل المستشار بيرنديف كان قد زعزع كيانه تماماً. فلو رآه في تلك اللحظة عابر سبيل محايد، لو رآه كيف يهرول متضايقاً، لأحس على الفور بفظاعة مصائب السيد غوليادكين، ولقال في نفسه إنه يبدو كمن يريد أن يختبئ عن نفسه، كمن يبحث عن وسيلة

ليهرب من نفسه. نعم، كذلك كان السيد غوليادكين يبدو في ذلك الحين، بل نستطيع أن نقول إن السيد غوليادكين لم يكن يتمنى أن يهرب من نفسه فحسب، وإنما كان يتمنى أن يزول من على سطح الأرض تماماً، أن لا يبقى له أي وجود، أن يتحول إلى رماد. لم يكن يسمع شيئاً حوله في تلك اللحظة، ولم يكن يفهم شيئاً ممّا يحدث، كان مظهره يوحي بأن الأشياء من حوله لم يعد لها وجود، كل الأشياء: قسوة الطقس، الطريق الطويل، المطر، الثلج، الرياح، وتلك العاصفة المهولة. سقط جرموق حذائه الأيمن، وبقي عالقاً في الوحل والثلج، فوق رصيف نهر فوتانكا، فلم يفكر ولو لحظة في أن يعود أدراجه كي يستعيده، بل إنه حتى لم يلاحظ أنه ضاع منه. لقد كان من الاضطراب بحيث أنه كان يقف، بين لحظة وأخرى، متسمّراً في مكانه فجأة وهو لا يحس بوجود الأشياء حوله، ولا يفكر إلا في مغامرته الفاشلة. كانت كل لحظة من تلك اللحظات بمثابة احتضار، ورغبة في تدمير النفس؛ لكنه سرعان ما كان يستأنف سيره غاضباً، ويشرع في الجري وهو لا يلوي على شيء، كما لو أن شخصاً ما يلاحقه، كما لو أن مصيبة أخرى أشد فظاعة من الأولى تطارده... وأخيراً، وبعد أن تعب تماماً، توقف عن الركض، واتكأ على سور الرصيف، كما قد يتكئ رجل بدأ أنفه ينزف على حين غرة، وأخذ يتأمل مياه نهر الفونتانا العكرة. لا نعرف كم من الوقت استغرق ذلك التأمل، كل ما نعرفه أن السيد غوليادكين كان حينها من اليأس، والمعاناة، والإرهاق، والضياع، بحيث أنه نسي كل شيء، نسي جسر إسماعيلوفسكي، وشارع الدكاكين الستة، وما كانت تشير إليه الساعة في تلك اللحظة... وما أهمية كل ذلك؟ ألم تعد كل الأشياء تستوي لديه؟ لقد انتهى كل

شيء، قضي الأمر، اتّخذ القرار وتم التصديق عليه، فما أهمية ذلك بالنسبة إليه؟... وفجأة... وفجأة ارتعش بكامل جسده، وتراجع خطوتين إلى الوراء رغم أنفه؛ كان نوع من القلق قد تلبّسه فجأة فأخذ ينظر حوله، لكن لم يكن حوله أحد، ولم يحدث أي شيء... ورغم ذلك... رغم ذلك، بدا للسيد غوليادكين أنه لمح شخصاً في تلك اللحظة، هنا، قريباً منه، بل قريباً جداً، متكئاً على سور الرصيف هو أيضاً. والغريب أن هذا الشخص كان يقول له شيئاً، كان يقول له شيئاً بكلمات متقطعة، كلمات تكاد لا تفهم، لكن ما قاله كان يعنيه، كان متعلقاً به. «ما هذا؟ أهي هلوسات أم ماذا؟» قال السيد غوليادكين وهو ينظر حوله. «ماذا أفعل هنا؟ آه، آه» قال خاتماً كلامه وهو يهز رأسه. ومع ذلك أخذ يتفحص ما حوله من ظلام دامس ويجاهد بلا هوادة أن يخترق ببصره الضعيف امتداد المياه أمامه وهو قلق بل خائف. ولكنه لم يرَ شيئاً، لا شيء يستحق أن يتطلع إليه بصره. بدا كل شيء على ما كان عليه، على ما ينبغي أن يكون عليه، أي أن الثلج كان يسقط كثيفاً، أكثر من ذي قبل، بحيث إنه لم يعد ممكناً أن ترى إلى أبعد من عشرين قدماً. والمصابيح تتأرجح مقرقعة أكثر من ذي قبل، والريح تغنّي أغنيتها الطويلة، الحزينة، الشاكية، كأنها شحّاذ لا يكل من استعطاء المارة سعياً وراء قوت يومه. «آه، آه، ماذا أصابني؟» قال السيد غوليادكين وقد عاد إلى الركض والالتفات حواليه. وكان أن نفذ إلى كيانه كله إحساس جديد، إحساس لا هو بالقلق ولا هو بالخوف. وسرَتْ في جسده قشعريرة. كانت تلك اللحظة مؤلمة لا تطاق. «حسناً، لا بأس، لم يحدث شيء»، قال لنفسه هامساً، «لم يحدث أي شيء، قد لا يكون لكل هذا أية أهمية، وقد لا يسيء إلى شرف أحد، قد

يكون ذلك ما كان ينبغي أن يحدث»، أردف وهو لا يفهم ما يقول، «قد تسوى الأمور كلها على أحسن وجه وفي الوقت المناسب، دون أن يحتج أحد أو يطالب طرف ما بتفسير لما وقع». أخذ السيد غوليادكين يتخلص من ندف الثلج التي كانت قد غطّت قبعته وياقته ومعطفه وربطة عنقه وحذاءه وهو يحس أن كلامه قد حمل إليه شيئاً من العزاء - لكنه لم يستطع أن يتخلص من ذلك الشعور الغريب، ذلك الشعور الغريب الغامض المقلق. وفجأة دوت طلقة مدفع في مكان بعيد[1]. «يا له من طقس فظيع!» قال بطلنا في نفسه. قد يحدث فيضان، يبدو أن مستوى الماء قد ارتفع كثيراً. ما أن انتهى السيد غوليادكين من أن يفكر في ما فكر فيه، حتى رأى أمامه عابر سبيل مقبلاً عليه. اعتقد السيد غولياذكين أن طارئاً ما أخّره عن العودة مثله. ليس هناك أي طارئ، الصدفة وحدها جعلتهما يلتقيان في المكان والزمان نفسهما. لكن السيد غولياذكين اضطرب بل خاف قليلاً، لا لأنه يخاف أن يصادف الأشرار في طريقه ولكن قد يكون... «من بوسعه أن يعرف حقيقة هذا عابر السبيل المتأخّر عن العودة؟» قال السيد غولياذكين في نفسه. «قد يكون عبوره من هنا مجرد صدفة، وقد لا يكون كذلك، بل قد يكون وجوده الآن هنا مقصوداً، فهو لم يمر بجانبي صدفة من دون أية نية مبيتة وإنما عن قصد ونية مبيتة...». ومع ذلك، قد لا يكون هذا الإحساس هو بالضبط ما أحسّه السيد غولياذكين، قد لا يكون ما أحسه إلا شيئاً يشبه هذا الإحساس، شيئاً مؤلماً إلى أقصى درجة. ومهما يكن

---

(1) بعد الفيضان المدمّر الذي عرفته سان بطرسبورغ سنة 1824، لجأت السلطات إلى إطلاق طلقات مدفعية لتنبيه المواطنين.

الأمر، فإن أوان الشعور بأي إحساس معيّن كان قد فات، لأن عابر السبيل كان قد أصبح على بعد خطوتين فقط. وسرعان ما عمد السيد غوليادكين، على عادته دائماً، إلى اصطناع هيئة خاصة به، هيئة يقصد من ورائها أن يُفهم الآخرين أنه مسالم، أنه لا يفعل أي شيء هنا، أن الشارع عريض ويسع جميع الناس، وأنه لا يؤذي أحداً. وفجأة تسمّر السيد غوليادكين في مكانه كأن صاعقة صعقته، والتفت بغتة نحو عابر السبيل الذي كان قد مرَّ بمحاذاته - التفت كما لو أن شيئاً جذبه إلى الخلف. وكان عابر السبيل قد اختفى بسرعة وسط دوامات الثلج. كان يمشي بخطى سريعة متدثّراً بمعطفه من رأسه إلى قدميه كالسيد غوليادكين تماماً، بل كان ينط على رصيف الفونتاكا بخطى قصيرة سريعة مثله تماماً. «ما هذا؟» قال السيد غوليادكين بصوت خافت وهو يبتسم ابتسامة حذرة غير مصدقة وقد اقشعرَّ بدنه قشعريرة أحس معها أن ظهره صار قطعة من جليد. اختفى عابر السبيل تماماً واختفى معه وقع خطواته على الرصيف، وبقي السيد غوليادكين متسمّراً في مكانه يبحث عنه. ولكنه انتهى بأن استعاد وعيه. «ماذا أصابني؟» قال السيد غوليادكين في نفسه متبرماً، «هل سأُجَنّ؟» ثم التفت واستأنف سيره رافعاً من وتيرته معجلاً، ومحاولاً أن لا يفكر في شيء، حتى أنه أغمض عينيه كي يتحقق ذلك. وفجأة، تناهى إلى سمعه، من خلال عويل الرياح وزمجرة العاصفة، وقع أقدام على مقربة منه، فارتعش وفتح عينيه. ومرة أخرى، رأى أمامه، على بعد عشرين خطوة، شبح رجل لا يني يتقدم نحوه. كان ذلك الرجل يسير بخطى حثيثة، مستعجلة، وكانت المسافة بينهما لا تزداد إلا تقلصاً، حتى صار السيد غوليادكين قادراً على أن يراه من جديد. تفرّسه فصرخ صرخة مندهشة مفزوعة،

وأحس بأن رجليه لم تعودا تقويان على حمله. إنه عابر السبيل نفسه الذي مرَّ بجانبه قبل عشر دقائق، والذي عاد إلى الظهور أمامه من حيث لم يتوقع. صعق السيد غوليادكين، إلا أن ظهور العابر لم يكن السبب الوحيد في تلك الصعقة، تلك الصعقة التي كانت من الهول بحيث إن السيد غوليادكين توقف، وصرخ، وأراد أن يقول شيئاً... ثم أسرع يلاحق ذلك الرجل المجهول، ويوجِّه إليه كلاماً ما، لكي يتوقف حالاً. وتوقف الرجل المجهول فعلاً على بُعد عشر خطوات من السيد غوليادكين. توقف تحت ضوء أحد المصابيح، والتفت نحو السيد غوليادكين، منتظراً ما سيقوله بنوع من التساؤل ونفاد الصبر... «معذرة، فأنا... أخطأت على ما يبدو» قال بطلنا بصوت مرتعش. أدار الرجل المجهول ظهره دون أن ينبس ببنت شفة وبنوع من التبرم، ثم ابتعد مسرعاً، وكأنه يريد أن يتدارك تلك الثواني التي ضاعت منه بسبب السيد غوليادكين. أما هذا الأخير فاضطربت أعصابه، ولم تعد قدماه تقدران على حمله، وكاد يتهاوى من الضعف... جلس على حافة الرصيف وهو يئنّ. لا شكّ أنه موقف قد يُفقِد الإنسان عقله. كان الرجل المجهول يبدو له الآن كأنه شخص يعرفه، بل إنه يعرفه، يوشك أن يعرفه. لقد سبق وأن رآه مراراً، رآه مؤخّراً ولكنه لا يذكر متى رآه، بل لقد رآه قبل أيام قليلة: أين رآه؟ هل رآه أمس؟ ليس مهماً أن يكون السيد غوليادكين قد رآه مراراً؛ إنه رجل يكاد لا يميزه شيء عن باقي الرجال، لا شيء ممّا قد يشدُّ أنظار الآخرين إليه. إنه مجرد رجل كباقي الرجال، رجل طيب كباقي الرجال الطيبين من دون شكّ، رجل قد يمتاز بمزايا كثيرة، مزايا مثيرة للانتباه... باختصار، إنه على ما هو عليه. وإن السيد غوليادكين لا يضمر له حقداً، ولا يكرهه، بل لا

يعيب عليه شيئاً، بل قد يكون على العكس من ذلك... ومع ذلك (وهذا هو الأهم) فإنه ما كان ليرغب في ملاقاة هذا الرجل ولو مقابل كل كنوز العالم، لا سيما الآن، في مثل هذه الظروف. إنه يعرف هذا الرجل حقّ المعرفة، بل يعرف حتى اسمه، اسمه الكامل، اسمه واسم أبيه[1]؛ ومع ذلك فإنه لا يريد أن ينطق، أو يقبل بأن ينطق باسمه واسم أبيه واسمه العائلي ولو مقابل كل كنوز العالم. إنني عاجز تماماً عن تحديد الوقت الذي استغرقه ذهول السيد غوليادكين، أو جلوسه على حافة الرصيف. ولكنه ما أن استعاد وعيه قليلاً حتى أخذ يجري بكل ما يملك من سرعة لا يلوي على شيء، ولا ينظر خلفه؛ كان يجري منقطع الأنفاس، فتعثّر مرتَين وكاد يسقط، وأدّى به الأمر أن صار حذاؤه الثاني يتيماً هو الآخر، بعد أن سقط بابوجه. وعندما خفض سرعته، أخيراً، كي يسترجع أنفاسه، نظر حوله فرأى أنه قطع رصيف الفونتاكا كله، وعبر جسر أنتشكوف، وخلّف وراءه جزءاً من شارع نيفسكي، وإنه الآن على ناصية شارع ليتانيا. ومضى في شارع ليتانيا. كان وضعه في تلك اللحظة يشبه وضع رجل وجد نفسه على حافة هاوية مهولة، رجل وضع رجله على حافة تلك الهاوية فأحس بأن قدميه لم يعد لهما من موطئ صلب، فإذا به يترنح، ويفقد توازنه مرة، فمرتين، ثم يسقط في قعرها وهو لا يملك لا القوة ولا الإرادة الكافيتَين كي يتماسك ويرجع إلى الخلف محوّلاً بصره عن تلك الهاوية العميقة، وها هو ذا يجدُ نفسه منجذباً إليها، فيرمي بنفسه فيها طائعاً، معجّلاً

---

(1) كان الناس في روسيا يحملون اسماً ثلاثياً مكوناً من الاسم الشخصي واسم الأب ثم الاسم العائلي. (المترجم)

بلحظة هلاكه. كان السيد غوليادكين يعرف، يحس، بل كان متأكداً تماماً أن شيئاً مشؤوماً سيحدث له، أن مكروهاً ما سيقع على رأسه، أنه سيصادف في طريقه، مثلاً، ذلك الرجل المجهول مرة أخرى؛ والغريب أنه صار يتمنى ذلك اللقاء، ويعتبره مقدّراً لا مفر منه، ويرغب في أن ينتهي كل هذا بأسرع ما يمكن، أن ينتهي ما يحدث له بأي شكل من الأشكال، المهم أن ينتهي الآن والسلام. ورغم ذلك واصل الجري ولم يتوقف، كأنه كان مدفوعاً بقوى ما خفية. خارت قواه، ثقلت قدماه. صار غير قادر على أن يفكر في شيء، رغم أن أفكاره كانت تتمسك بكل شيء كالعليق. أخذ كلب صغير مبلّل، بائس، تائه، يجري خلفه، جاعلاً ذنبه بين قائمتيه، ملصقاً أذنيه برأسه، ناظراً إليه، من حين إلى آخر، نظرات خجولة متفهّمة. وعادت إلى ذهنه، في تلك اللحظة، فكرة ما كان قد نسيها منذ وقت طويل... فكرة قديمة من بقايا حادث قديم. كانت تلك الفكرة تطرق دماغه كالمطرقة، وتلاحقه، رافضة أن تنزاح. «يا لهذا الكلب القذر!» همس السيد غوليادكين دون أن يفهم ما يقول. وأخيراً لمح رجله المجهول عند ناصية شارع إيطاليا. لكن الرجل المجهول لم يكن مقبلاً عليه هذه المرة، وإنما كان يجري في اتجاهه نفسه، غير بعيد عنه. وصلا إلى شارع «الدكاكين الستة». كان السيد غوليادكين منقطع الأنفاس. توقّف الرجل المجهول أمام العمارة التي يسكنها السيد غوليادكين. وسُمع صوت رنين جرس، تلاه على الفور صوت صرير مزلاج حديدي. فُتح الباب، فأحنى الرجل المجهول رأسه، ودخل، ثم غاب. وصل السيد غوليادكين في تلك اللحظة نفسها تقريباً، فدخل من الباب المخصّص للعربات كالسهم، وسار نحو الفناء منقطع الأنفاس، غير عابئ بهمهمات الحارس. وسرعان ما

لمح عند أدراج السلَّم المؤدي إلى منزله الرجل المجهول الذي كان قد غاب عن ناظريه هنيهة، فتبعه. كان السلَّم بارداً، غارقاً في الظلام والقذارة. كانت كل درجة في السلَّم مليئة بأكوام من الخرق البالية والخردوات التي تخلّص منها السكان، ممّا يفرض على كل من يأتي إلى العمارة وهو غير متعود عليها وعلى سلَّمها وقت انتشار الظلام، أن يبحث عن مسلك له طوال نصف ساعة، معرّضاً لأن تكسر ساقاه، لاعناً السلَّم والناس الذين أتى لزيارتهم والذين لم يجدوا منزلاً يسكنون فيه غير هذا المنزل في مثل هذه العمارة القذرة. لكن رفيق درب السيد غوليادكين بدا وكأنه متعود على كل ذلك، وكأنه في منزله، إذ كان يتلافى كل الحواجز بخبرة من يعرف المكان جيداً. أوشك السيد غوليادكين أن يلحق به، بل إن حافة معطف الرجل المجهول لطمت أنفه مرتين. كان قلبه يخفق بشدة. وتوقف الرجل العجيب أمام باب السيد غوليادكين تماماً، فطرقه، و(وهو شيء كان سيثير دهشة السيد غوليادكين في مناسبة أخرى) فتح الباب بتروشكا الذي بدا وكأنه لم ينم وبقي ينتظره، ففسح له حتى دخل ومشي خلفه وهو يحمل شمعة. ودخل بطلنا إلى منزله ثائراً وهو يحمل معطفه وقبّعته، واجتاز الممر، ووقف عند عتبة غرفته كالمصعوق. لقد صدق إحساسه إذاً، فأصبح كل ما خشيه وتوقعه في خياله أمراً واقعاً. أحس بأنه يفقد أنفاسه، وأصابه دُوار. كان الرجل المجهول يجلس أمامه تماماً، مرتدياً معطفه وقبّعته هو أيضاً، ويبتسم ابتسامة خفيفة، ويغمز بعينه، ويحييه بإشارة من رأسه تحية أخوية. أراد السيد غوليادكين أن يصرخ، ولكنه لم يستطع. . . أن يحتج بطريقة ما، لكنه لم يقوَ على ذلك. أحس بشعر رأسه ينتصب، فتهاوى على أحد الكراسي وهو يكاد أن يُغمى عليه من

الرعب. والواقع أنه كان في ذلك الموقف ما يدعو إلى الرعب.
كان السيد غوليادكين قد عرف رفيق ليلته حقّ المعرفة. لم يكن رفيق ليلته شخصاً آخر غيره... إنه السيد غوليادكين نفسه. إنه غوليادكين آخر، لكنه يشبهه تماماً، لنقل باختصار إنه من يمكن أن نسميه بـ«الصنو»، صنو السيد غوليادكين بكل ما تحمل الكلمة من معنى...

الفصل السادس

عند الساعة الثامنة من صباح الغد استيقظ السيد غوليادكين فوجدَ نفسه في سريره. وعلى الفور عادت إلى ذهنه كل الأحداث الخارقة التي عاشها ليلة البارحة، تلك الليلة التي لا تصدق، بكل مغامراتها التي لا تتصور، عادت إلى ذهنه وإلى خياله دفعة واحدة، وبكامل رعبها. وانقبض قلبه جراء تلك الكراهية القاسية المدمِّرة التي لاقاها من أعدائه، لا سيما ذلك المظهر الأخير منها. وفي الوقت نفسه بدا له أن كل ما حدث كان غريباً، غير معقول، خالياً من كل معنى، مستحيلاً إلى درجة أنه يصعب تصديقه. لقد كان السيد غوليادكين مستعداً، رغم ذلك، أن يسلم بأن كل ما حدث لم يكن إلا هذياناً لا علاقة له بالواقع، وعطباً مؤقتاً في المخيلة، وتعطُّلاً في العقل، لو لم يكن هو نفسه يعرف، من خلال تجربته المريرة، إلى أي مدى قد تصل درجة الكراهية لدى الإنسان أحياناً، وإلى أي مدى قد تصل الرغبة في الانتقام لدى عدو يريد أن ينتقم لشرفه وكرامته المجروحة. أضف إلى ذلك أن كل ما يحس به الآن من ألم في أعضائه، وتشوش في دماغه، ووجع في كليتيه، وزكام شديد، يشهد بقوة على أن نزهته الليلية وما وقع خلالها أقرب إلى الواقع منه إلى الخيال. ثم أليس السيد غوليادكين على علم، ومنذ

زمن طويل، أن شيئاً ما يُحاك له هناك، وأنهم يعدّون العدة ليضعوا شخصاً آخر في الواجهة؟ لكن ماذا يحيكون؟ ومن يكون ذلك الشخص؟ قرر السيد غوليادكين، بعد أن فكر في كل ذلك ملياً، أن يذعن، وأن لا يحتجّ ضدّ تلك القضية إلى أن يحين الوقت المناسب. «قد يكون هدفهم أن يبعثوا في قلبي قليلاً من الخوف ليس إلا، لذلك فإنهم ما أن يروا أني لا أحتجّ، وأني أذعن بكل تواضع، نعم بكل تواضع، حتى يتراجعوا من تلقاء أنفسهم عمّا يحيكون ويدبّرون، لا شكّ أنهم سيكونون أول البادئين بالتراجع».

تلك هي الأفكار التي دارت في ذهن السيد غوليادكين، حين كان مستلقياً فوق فراشه وهو يتمطى ويحاول أن يخفف من آلام أعضائه المنهوكة، منتظراً قدوم بتروشكا كما المعتاد. انتظر طوال ربع ساعة وهو يستمع إلى انشغال بتروشكا الكسول بالسماور خلف الستار، ومع ذلك لم يقرر استدعاءه. بدا السيد غوليادكين، هذه المرة، وكأنه يتحاشى مواجهة خادمه. «من يدري»، قال في نفسه، «من يدري كيف ينظر هذا الوغد إلى هذه القضية الآن. صحيح أنه لم يقل شيئاً، لكن لا شكّ أنه يحتفظ بأفكاره لنفسه». انفتح الباب آخر الأمر وظهر بتروشكا يحمل طبقاً. أخذ السيد غوليادكين يرمقه خلسة، منتظراً ما سيفعله، وهل سيشير إلى ما حدث. لكنه لم يقل شيئاً. وبدا، على عكس ما توقعه، أكثر تجهُّماً وعبوساً، أكثر غلظة وغضباً، وينظر إلى الأشياء من تحت. كان واضحاً أنه غاضب من شيء ما حتى أنه لم ينظر صوب سيده ولو مرة واحدة، ممّا أساء إليه قليلاً. وضع بتروشكا ما يحمله على المائدة، وعاد إلى مكانه خلف الستار دون أن يقول شيئاً. «إنه يعرف، إنه يعرف، لا شكّ أن هذا الوغد يعرف كل شيء» غمغم السيد غوليادكين وهو يُقبل على

الشاي. ومع ذلك، لم يطرح بطلنا على بتروشكا أي سؤال رغم أنه دخل إلى الغرفة عدة مرات لأغراض مختلفة. كان السيد غوليادكين يعاني من قلق كبير، ويحس بأن صدره منقبض كلما تذكّر أن عليه أن يذهب إلى المكتب. كان يستشعر أنه سيجد الأمور هناك، في المكتب، على غير ما يجب أن تكون عليه. «لنفرض أني ذهبت هناك، قال في نفسه، ووجدت أن شيئاً ما قد وقع، ألا يكون من الأفضل أن أتريث قليلاً؟ أن أصبر قليلاً؟ فليفعلوا هناك ما يحلو لهم، أما أنا فأظن أنه من الأحسن أن أنتظر هنا يوماً كاملاً أسترد قواي خلاله وأعافى، وأفكر في كل هذه القضية. وبعد ذلك أختار اللحظة المناسبة كي أسقط على رؤوسهم كالعاصفة». بقي السيد غوليادكين على تلك الحال يجتر أفكاره ويدخن غليوناً بعد غليون، والوقت يمضي، إلى أن بلغت الساعة التاسعة ونصف صباحاً. «على أي، لقد بلغت الساعة التاسعة والنصف»، قال السيد غوليادكين في نفسه، «وفات أوان الذهاب إلى المكتب. ثم إنني مريض، نعم مريض، مريض فعلاً. من ذا يستطيع أن يدّعي أنني لست مريضاً؟ لست أبالي على كل حال، فما عليهم إلا أن يحققوا في الأمر. فليحققوا وليبعثوا بالمراقب إذا أرادوا، أما أنا فلن أبالي أبداً. ظهري يؤلمني، وها أنا ذا أسعل، إنني مزكوم؛ ثم إنه لمن المستحيل أن أخرج في مثل هذا الطقس، سأمرض لا محالة إذا خرجت، وقد أموت، فما أكبر نسبة الموت في هذه الأيام...». هذه هي الأعذار التي انتحلها السيد غوليادكين كي يهدئ من روعه ويبرّر سلوكه في انتظار التقريع الذي سيتعرض له من طرف أندريه فيليبوفيتش بسبب إهماله لعمله... ومهما يكن من أمر، فإن بطلنا يحب كثيراً أن يبرّر ما يفعله بكل الأعذار التي لا يمكن دحضها، ليتخلص من تقريع

الضمير. ما أن طمأن السيد غوليادكين ضميره تماماً حتى تناول غليونه فحشاه، ولكنه ما إن شرع يدخنه ويستلذ به حتى قفز من على ديوانه، ورمى الغليون، وشرع يغسل أعضاءه ويحلق وجهه بسرعة كبيرة، ويمشط شعره، ويرتدي بدلته الرسمية، ويحمل بعض الأوراق ويخرج إلى المكتب مسرعاً.

دخل السيد غوليادكين إلى المكتب خجولاً وجلاً، وهو يتوقع أن يحدث شيء ما كريه، والواقع أن ذلك التوقع كان نابعاً من لا وعيه، غامضاً، وكريهاً هو أيضاً. جلس في مكانه المألوف قرب رئيس مكتبه أنطون أنطونوفيتش سيوتوتشكين خجولاً. وانشغلَ بدراسة الأوراق الموضوعة أمامه دون أن ينظر إلى أحد ممن حوله، ودون أن ينشغل بأي شيء آخر. كان قد قرر، ووعد نفسه، أن يتحاشى كل ما من شأنه أن يمنح زملاءه أي فرصة لتحدّيه، وأن لا يضع نفسه في مواقف صعبة، وذلك حتى لا يسمحوا لأنفسهم أن يسألوه أسئلة محرجة، أو أن يمازحوه، أو أن يلمحوا إلى أي شيء له علاقة بما حدث ليلة أمس، بل قرر أن يذهب أبعد من ذلك، فيتجنب المجاملات المعتادة والتي تقضي بأن يسأل زملاءه عن أحوالهم الصحّية مثلاً، أو عن أي شيء من هذا القبيل. لكن التمسك بمثل هذا التصرف، بمثل هذا السلوك، كان بالنسبة إليه مستحيلاً، لا يطاق. إن شكّه أو جهله لِمَا يجرحه كثيراً لأشدّ وقعاً على السيد غوليادكين من أن يُجرح فعلاً. لذلك تراه الآن، رغم الوعد الذي وعد نفسه بأن لا يحشر نفسه في شيء مهما حدث، وأن يبقى بعيداً عمّا يقع في جميع الأحوال، قد بدأ يخرج من قوقعته شيئاً فشيئاً، فيرفع رأسه ببطء من حين إلى آخر، وينظر إلى زملائه من حوله خلسة، محاولاً أن يكتشف شيئاً ما جديداً خاصاً يتداولونه

عنه، ويحاولون إخفاءه لغرض خبيث في أنفسهم. كان يفترض أن علاقة ما لا بدَّ أن تكون موجودة بين ما وقع ليلة أمس وما يراه الآن من حوله. وانتهى به قلقه أن صار يتمنى أن يتبدد الشك، أن تتضح الأمور وأن تجد لها حلاً، ولو كان ذلك الحل مقابل مصيبة تهوي على رأسه. واستجاب له القدر، إذ ما إن انتهى من أمنيته حتى تبددت كل شكوكه دفعة واحدة، لكن بطريقة غريبة غير متوقعة.

فُتح باب الغرفة الأخرى محدثاً صريراً خفيفاً محتشماً، وكأنه يريد أن يكشف أن الشخص الذي سيدخل الآن إلى المكتب نكرة عديم الأهمية. وظهر على استحياء، أمام مكتب السيد غوليادكين نفسه، شخص يعرفه بطلنا حقّ المعرفة. لم يرفع بطلنا بصره، لا، وإنما اكتفى بنظرة سريعة، لكنها كانت كافية كي يعرف كل شيء، كي يفهم كل شيء بأدق جزئياته. كان يشعر بخجل حارق، ويطأطأ رأسه صوب أوراقه، تماماً كالنعامة حين يطاردها الصياد فتغرس رأسها في الرمال الحارقة. انحنى الوافد الجديد أمام أندريه فيليبوفيتش. فما لبث هذا الأخير أن توجّه إليه بصوت لطيف، صوت بروتوكولي يعمد إلى استعماله كل رؤساء العمل حين يخاطبون مرؤوساً جديداً. «اجلس هنا، هنا قبالة السيد غوليادكين»، قال أندريه فيليبوفيتش وهو يدله على طاولة أنطون أنطونوفيتش، «وسنعهد إليك بعمل حالاً». ختم أندريه فيليبوفيتش كلامه بإشارة سريعة تعبِّر بوقار عن الدعوة إلى الجلوس، وعاد إلى ملفاته المتراكمة فوق مكتبه في الحال.

رفع السيد غوليادكين عينيه أخيراً. ولئن لم يسقط مغشياً عليه، فلأنه كان قد توقع كل شيء منذ البداية، واستعد لكل شيء منذ اللحظة الأولى، وخمّن في أعماق روحه من هو ذلك الغريب. ألقى السيد غوليادكين على الزملاء من حوله نظرة خاطفة، ليرى إن كانوا

قد شرعوا يتهامسون، وإن أثار ما حدث بعض السخريات البيروقراطية، وإن كانت بعض الأفواه مفغورة من الذهول، أو ما إذا كان أحدهم قد اختبأ تحت الطاولة من شدة الفزع. ويا لشدة دهشة السيد غوليادكين لما رأى الموظفين من حوله لا يحركون ساكناً، ولا يقومون بشيء ممّا توقّعه! لقد كانت دهشته من رد فعل السادة زملائه في المكتب كبيرة بالفعل، لأنه رد فعل خالٍ من أي معنى، بل إن السيد غوليادكين ذعر من ذلك الصمت العجيب الذي كان يلف المكتب، لأن الحقيقة الماثلة أمامه تعبِّر عن نفسها، إنها تقول إن في هذا الوضع شيء غير طبيعي، شيء مجرد من كل معنى، شيء لا يجوز. إن ما يحدث الآن أمامه ليدعو إلى الانفعال على الأقل. كل هذه الخواطر عبرتْ ذهن السيد غوليادكين عبوراً سريعاً. إنه يجلس الآن على أحرّ من الجمر، لأن هناك ما يدعو إلى ذلك. إن من يجلس الآن قبالة السيد غوليادكين هو رعب السيد غوليادكين، هو فضيحة السيد غولياكين، هو كابوس السيد غولياكين الذي عاشه أمس -باختصار، إنه السيد غولياكين نفسه-. ليس ذلك الغولياكين الجالس الآن على مقعده، الفاغر فاه، الحامل لريشته، ليس ذاك الذي يعمل هنا مساعداً لرئيس مكتبه، ليس ذاك الذي يحب أن يمحي وأن يذوب وسط الجمهور، ليس ذاك الذي يقول لسان حاله: «لا تمسوني إذا أردتم أن لا أمسّكم أنا أيضاً» أو بالأحرى: «أنا لم أمسّكم، إذاً عليكم أن لا تمسوني أنتم أيضاً»، لا، إنه غولياكين آخر، مختلف تماماً، لكنه يشبه السيد غولياكين في الوقت نفسه. له القامة نفسها، الهيئة نفسها، اللباس نفسه، الصلعة نفسها. باختصار، إنه تشابه تام، تام إلى درجة أننا لو أوقفنا أحدهم إلى جانب الآخر لما استطاع أحد أن يتبجح بأن

بوسعه أن يميز بين الحقيقي والمزيف، بين القديم والجديد، بين الأصل والصورة.

كان بطلنا في تلك اللحظة، إذا جازت المقارنة، في وضع رجل صوّب شخص خبيث مرآة نحوه كي يتسلى. «ما هذا؟ أهو حلم أم لا؟» قال في نفسه، «أهو الحاضر أم أمس وقد عاد؟ هل يحق لهم ذلك؟ من أجازه، من منحه رخصة الدخول؟ هل أنا نائم أم أحلم؟». وحاول السيد غوليادكين أن يقرص نفسه، بل نوى أن يقرص أحد زملائه... لا إنه ليس حلماً. وأحس السيد غوليادكين بالعرق يبلِّل كامل جسده، وبأنه عرضة لشيء لم يسمع عن مثله من قبل ولم يره قط، شيء مُحقِّر فوق كل ذلك. كان السيد غوليادكين يشعر بالإهانة لأنه أول من يتعرض لمثل تلك السخرية المكشوفة. وانتهى به الأمر أن أخذ يشك في وجوده نفسه. ورغم أنه كان قد استعدَّ لذلك كل الاستعداد، وتمنى أن يزول شكّه في شأن تلك المغامرة بشكل أو بآخر، إلا أن واقعيتها الفعلية تجاوزت كل ما توقعه. كان يحس، في بعض اللحظات، أنه فقد صوابه ووعيه تماماً. ولمّا تدارك نفسه في إحدى تلك اللحظات، تبيّن له أن ريشته تجري على الورق بشكل آلي لا شعوري، فشكّ في نفسه، وأخذ يراجع ما كتبه، فلم يفهم شيئاً... وأخيراً نهض غوليادكين الآخر، الذي كان قد بقي جالساً طوال ذلك الوقت في هدوء ودعة، من على كرسيه وخرج من الباب المفضي إلى مكتب من المكاتب الأخرى المجاورة لسبب من الأسباب التي اقتضتها ضرورة عمله الإداري. نظر السيد غوليادكين حوله. لا شيء حوله، الصمت يخيم على المكان، الريشات تجري على الأوراق، الصفحات تقلَّب فتحدث تلك الخشخشة المألوفة، الموظفون يتجاذبون أطراف الحديث

بأصوات خافتة في تلك الأركان البعيدة عن مكتب أندريه فيليبوفيتش. رفع السيد غوليادكين عينَيه نحو أنطون أنطونوفيتش. وبما أن هيئة بطلنا كانت تعكس حالته النفسية في تلك اللحظة وتنسجم مع رد فعله أمام ذلك الأمر، وكفيلة بأن تثير الانتباه، فإن أنطون أنطونوفيتش وضع قلمه وسأله عن صحّته بطيبته المعهودة.

- أنا يا أنطون أنطونوفيتش، أنا في صحّة جيدة، وأشكر الرب على ذلك يا أنطون أنطونوفيتش، قال السيد غوليادكين متلعثماً... لست أعاني من أي مرض، أردف السيد غوليادكين بصوت متردد مكرِّراً اسم أنطون أنطونوفيتش غير ما مرة، وغير مطمئن له كل الاطمئنان.

- آه... حسبتك تعاني من ألم ما... لا غرابة أن يعاني الناس من المرض، خاصة في هذه الآونة التي تشهد رياحاً قوية مضرّة...

- نعم يا أنطون أنطونوفيتش، أعرف أنها رياح قوية مضرّة... لكن ليست هذه هي المسألة يا أنطون أنطونوفيتش، واصل السيد غوليادكين وهو يلحُّ في النظر إلى أنطون أنطونوفيتش... لا أعرف كيف أعبِّر عن ذلك يا أنطون أنطونوفيتش... أقصد، أريد أن أقول، لا أعرف من أين أبدأ الكلام عن هذه القضية يا أنطون أنطونوفيتش...

- ماذا قلت من فضلك؟ فأنا... أعترف أني لم أفهم ما قلته؛ حاول أن تعبِّر بوضوح... ما هي الصعوبات التي تعترضك هنا؟ قال أنطون أنطونوفيتش بنوع من الصعوبة هو أيضاً، وهو ينظر إلى السيد غوليادكين الذي تبلّلت عيناه بالدموع.

- أنا. . . أقصد يا أنطون أنطونوفيتش، يوجد هنا موظف يا أنطون أنطونوفيتش.

- وضّح كلامك من فضلك، فأنا لم أفهم شيئاً ممّا قلت حتى الآن.

- أريد أن أقول يا أنطون أنطونوفيتش، يوجد هنا موظف جديد. . .

- فعلاً، إنه سميّك.

- ماذا؟ صاح السيد غوليادكين.

- قلت إنه سميّك، اسمه غوليادكين هو الآخر. . . هل هو أخوك؟

- لا يا أنطون أنطونوفيتش، فأنا. . .

- همم. ظننته أحد أقاربك، هل تعلم أن بينكما شيء من التشابه؟ كأنكما تنتميان إلى عائلة واحدة.

تجمّد السيد غولياذكين في مكانه من الذهول. وعجز عن الكلام لحظات. هل يعقل أن نتعامل بمثل هذا الاستخفاف مع شيء كهذا، مع فضيحة كهذه، مع شيء لم يسمع عن مثله أحد من قبل، مع هذا الشيء النادر الكفيل بأن يثير انتباه أي شخص ولو كان ممن لا يثير انتباههم أي شيء؟ كيف يتحدث عن انتمائه إلى نفس العائلة في الوقت الذي يبدو فيه الأمر واضحاً وضوح الشمس؟!

- اسمع يا ياكوف بتروفيتش، إني أنصحك بزيارة طبيب كي تستشيره، أردف أنطون أنطونوفيتش، لا يبدو أنك تتمتع بصحّة جيدة، لا سيما عيناك. . . نظرات عينيك غريبة.

- لا، شكراً يا أنطون أنطونوفيتش، أنا، طبعاً أشعر، أقصد أنني أريد أن أسألك عن ذلك الموظف يا أنطون أنطونوفيتش. . .

- ماذا تريد أن تعرف عنه؟

- ألم تلاحظ فيه شيئاً غير عادي يا أنطون أنطونوفيتش، شيئاً يميزه... أقصد، شيئاً يجعلنا نتساءل؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد يا أنطون أنطونوفيتش، أقصد... أنه يشبه شخصاً ما شبهاً مثيراً للانتباه مثلاً، أقصد، أنه يشبهني مثلاً... لقد لاحَظتُ قبل قليل أنه من المحتمل أن يكون من العائلة نفسها، أشرت إلى ذلك إشارة عابرة يا أنطون أنطونوفيتش... أنت تعرف أن التوأمين قد يتشابهان تشابه قطرتَي ماء. هل فهمت ما أقصد؟

- نعم فهمت، قال أنطون أنطونوفيتش وهو يفكر في ذلك مندهشاً من ذلك الشبه المثير فعلاً... نعم، صحيح، إنه تشابه يثير الدهشة فعلاً... نعم، ملاحظتك في محلها، إنكما تتشابهان فعلاً إلى حدّ يستحيل معه أن نميز أحدكما عن الآخر... أردف وهو لا يزداد إلا دهشة... إن تشابهكما يا ياكوف بتروفيتش كالمعجزة، خارق للعادة كما يقال أحياناً... أقصد أنه مثلك تماماً... هل لاحظت ذلك يا ياكوف بتروفيتش؟ كنت سأطلب منك تفسيراً، لكنني أعترف أني لم أولِ ذلك اهتماماً كبيراً... شيء مدهش، مدهش حقاً... أعرف يا ياكوف بتروفيتش أنك لم تولد هنا، أليس كذلك؟

- بلى، لم أولد في هذه المدينة.

- هو أيضاً لم يولد هنا. هل ولدتما في المدينة نفسها؟ وأمك، إذا سمحت لي بالسؤال، أين عاشت طوال حياتها؟

- هل قلت... هل قلت يا أنطون أنطونوفيتش إنه ليس من هنا؟

- نعم، إن شبهكما هذا معجزة حقيقية، واصل أنطون

أنطونوفيتش الثرثار الذي يجد لذة في اقتناص مثل هذه المناسبات. فعلاً، إنه شبه مثير للدهشة. . . ولكننا غالباً ما لا ننتبه إلى مثل هذه الأشياء، قد نلمس شخصاً، بل قد نصطدم به، ومع ذلك لا نلاحظ شيئاً، لكن. . . لا تقلق، فمثل هذه الأمور قد تحدث. سأقص عليك قصة مشابهة وقعت لإحدى خالاتي، كانت قد بدأت هي الأخرى، قبيل وفاتها، ترى نفسها مزدوجة. . .

- لا ، معذرة إذا قاطعتك يا أنطون أنطونوفيتش، ما كنت أريد أن أعرفه عن هذا الموظف هو كيف. . . أقصد، هو هنا بأية صفة؟

- إنه يحلُّ محلَّ المرحوم سيمون سيميونوفيتش. لقد أصبح مكانه شاغراً بعد وفاته. وما دام المكان قد أصبح شاغراً، فإنهم وظّفوه ليسدَّ الفراغ الذي تركه سيمون سيميونوفيتش. مسكين سيمون سيميونوفيتش، هل تعرف أنه ترك ثلاثة أطفال، ثلاثة أطفال صغار؟ أتت أرملته وارتمت عند قدمَي صاحب المعالي. يقولون إنها كانت تمثل فقط، لأنه في الحقيقة تملك بعض المال، لكنها تخفيه. . .

- لا ، أرجوك يا أنطون أنطونوفيتش، أريد أن أعود إلى قضيتنا. . .

- أية قضية؟ آه، نعم، لكن لماذا أنت مهتم بها كل هذا الاهتمام؟ ألم أدعك إلى نبذ القلق لأن مثل هذه الأشياء قد تقع؟ ثم إنه شيء مؤقت. . . لا يد لك فيه، إنها مشيئة الرب، هو الذي دبّر ذلك الأمر على هذا النحو، وإنه لأثم أن تعترض على مشيئة الرب. إنها حكمته المقدّسة. أما أنت يا ياكوف بتروفيتش فلا أحسب أنك تستطيع أن تغيّر في هذا الأمر شيئاً. المعجزات كثيرة في هذا العالم. وإن أمنا الطبيعة لكريمة، ولن يحاسبك أحد على ما ليس لك فيه يد، ما لا دخل لك فيه. سأضرب لك مثلاً على كرم الطبيعة، أتمنى أن

تكون قد سمعت عن التوأمين اللذين يسميان بـ. . . كيف يسمونهما هناك؟ نعم، تذكرت، يسمونهما التوأمين السياميين. . . إنهما يولدان بظهرين ملتصقين، ويعيشان هكذا، يأكلان معاً، وينامان معاً، ويظهر أن ذلك يدرُّ عليهما كثيراً من المال. . .

- فلتسمح لي يا أنطون أنطونوفيتش. . .

- أفهمك، أفهمك. . . حسناً، إنه شيء عادي تماماً، وأنا وبعد أن نظرت في القضية بتمعّن خلصت إلى ما دعوتك إليه: لا تقلق. . . إنه مجرد موظف كالآخرين، ويبدو أنه موظف نشيط. يقول إن اسمه غوليادكين، وإنه ليس من هنا، أما رتبته فمستشار رسمي. وقد كان له لقاء خاص مع صاحب المعالي.

- ها. . . وكيف كان اللقاء؟

- عادياً على ما يبدو؛ يقولون إنه عرف كيف يشرح وضعه، وكيف يتحدث عن دوافعه، يبدو أنه قال لصاحب المعالي إنه لا يملك ثروة خاصة، وأنه يرغب في العمل، لا سيما تحت أوامر صاحب المعالي في المديرية التابعة له. . . باختصار، لقد عرف كيف يعبِّر عمّا يريده. إنه ذكي على ما يبدو. نعم ذكي، لكنه كان يحمل توصية من جهة ما، أنت تعرف أنه لا بدَّ من التوصيات في مثل هذه الحالات وإلا فإن التعيين لا يتم. . .

- ومن. . . من أوصى بتعيينه من فضلك؟. . . من كان وراء هذه القضية المخجلة؟

- نعم، لقد كانت توصية مهمة، على ما يقال، ويبدو أن صاحب المعالي وأندريه فيليبوفيتش قد ضحكا معاً بعض الشيء.

- تقول إنه ضحك مع أندريه فيليبوفيتش؟

- نعم. أقصد أنه ابتسم في وجهه، وقال له: ولماذا لا؟ وأنه لا مانع لديه، شريطة أن يؤدّي عمله كما يجب.

- هكذا إذاً؟ واصل من فضلك، لقد بعثت فيّ الحياة إلى حدٍّ ما يا أنطون أنطونوفيتش، واصل...

- معذرة... لكنني أقول لك... أقول لك مرة أخرى لا ينبغي أن تقلق، إنها قضية تافهة، لا تستوجب القلق، ولا تدعو إلى الشك...

- نعم، ولكنني... أنا... أريد أن أسألك يا أنطون أنطونوفيتش إذا ما كان صاحب المعالي قد أضاف شيئاً... عني، مثلاً.

- ماذا؟ لا، لا شيء؛ يجب أن تطمئن، إنها حالة خاصة فعلاً، ومثيرة للانتباه... وإن لم ألحظ شيئاً أول الأمر. والحقيقة أني لا أعرف لماذا لم ألحظ شيئاً إلى أن فاتحتني في الموضوع. لكن، يجب أن تطمئن تماماً رغم ذلك. لم يقولا أي شيء خاص...
أضاف أنطون أنطونوفيتش وهو ينهض من على كرسيه.

- ولكن يا أنطون أنطونوفيتش، أنا...

- أوه... أعذرني من فضلك، لقد أصرفت في الثرثرة، بينما تنتظرني قضية مهمة ومستعجلة يجب أن أهتم بها.

وفجأة ناداه صوت أندريه فيليبوفيتش باحترام كبير:

- أنطون أنطونوفيتش، صاحب المعالي يطلبك.

- حالاً، حالاً يا أندريه فيليبوفيتش، سأذهب إليه حالاً.

تأبّط أنطون أنطونوفيتش أحد الملفات، وهرع أول الأمر نحو أندريه فيليبوفيتش، ثم توجَّه إلى مكتب صاحب المعالي على الفور.

«ما هذا الذي يحدث هنا؟ ما هذه اللعبة التي تُلعب هنا؟ الآن أرى المسار الذي اتخذته القضية... ليس هذا بالأمر السيّئ... يبدو أن الأمور أخذت منحى ساراً» قال بطلنا لنفسه وهو يفرك يديه ويفقد الأحساس بالكرسي الذي يجلس عليه من فرط الفرح، «قضيتنا إذاً قضية عادية، وكل ما حدث ليس إلا ترهات لا تعني شيئاً. لم يحدث أي شيء، لا شيء على الإطلاق، انظر إليهم، انظر إلى هؤلاء اللصوص إنهم لا يحركون ساكناً، إنهم منغمسون في أعمالهم... عظيم، عظيم... كم أحب الناس الطيبين، وكم أنا مستعد لأن أحترمهم... ورغم ذلك يبدو لي... حين أفكر في الأمر ملياً... يبدو لي هذا الأنطون أنطونوفيتش من النوع الذي يخاف الإنسان من أن يبوح له بما في دواخله... إنه عجوز شابَ رأسه... على كل حال، لا يهم هذا كله، لا يهم ما دام صاحب المعالي لم يشر إلى ما حدث ولو بكلمة واحدة... عظيم، عظيم... إنني أؤيد هذا الموقف... لكن لماذا يحشر هذا الأندريه فيليبوفيتش نفسه في هذا الأمر بضحكاته المختصرة؟ ماذا سيجني من وراء ذلك؟ يا له من ثعبان... لا بدَّ أن تجده في طريقك أينما ذهبت، لا بدَّ أن يسعى إلى قطع الطريق أمامك كقطة سوداء، نعم إنه يقطع الطريق أمامك ويخلق لك المشاكل دائماً، دائماً أبداً...».

ألقى السيد غوليادكين نظرة حوله مرة أخرى، فاستعاد الأمل. ورغم ذلك، كان يحس في دواخله بفكرة ما تزعجه، فكرة مشؤومة. وخطر له أن يستبق الأمور بأن يحاول الكشف عمّا يخفيه الموظفون عنه. أن يحشر نفسه بينهم (عند موعد مغادرة العمل مثلاً، أو أن يتظاهر بأنه تجمعه وإياهم قضية من القضايا) مستغلاً لحظة من تلك اللحظات التي يتجاذبون خلالها أطراف الحديث، كي يلمّح

للموضوع بطريقة ما، كأن يقول لهم مثلاً: «أرأيتم ذلك الشبه؟ صدفة غريبة، أليس كذلك؟ يا لها من كوميديا مبتذلة!» - باختصار، أن يتظاهر بأنه يسخر من ذلك هو نفسه كي يقيس درجة حرارة الخطر. ذلك لأن الشيطان يرقد في المياه العذبة الصافية. لم ينفّذ السيد غوليادكين ما فكّر فيه، وتراجع في الوقت المناسب، حين أدرك أنها خطوة متسرعة. «هذا هو طبعك دائماً»، قال لنفسه وهو ينقر على جبينه بإصبعه، «سرعان ما تنخرط في اللعبة وتعبّر عن سعادتك بالانتصار أيها الأبله، حري بك أن تتريث يا ياكوف بتروفيتش، يجب أن نتريث قليلاً وأن نصبر». ورغم ذلك، فإن السيد غوليادكين، وكما سبق أن قلنا، كان قد بدأ يشعر بالأمل، كما لو أنه بُعث من بين الموتى. «لا بأس»، قال في نفسه، «كأن ما يعادل ثقل طن أزيح عن صدري. مع أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى القلق، **كان يكفي أن يُفتح الصندوق**[1]. كان كيريلوف على حقّ، كان على حقّ ذلك الكيريلوف... يا له من ماكر ذلك الكيريلوف، ويا له من حكّاء عظيم... وما المشكل في ذلك، ما المشكل أن يرغب في أن يكون موظفاً؟... فليكن موظفاً وليسعد بذلك... لن نطلب منه إلا شيئاً واحداً: أن لا يسيء لأحد، أن لا يطأ قدم غيره، فيما عدا ذلك فليكن موظفاً إذا شاء... لقد اطّلعنا على ذلك وصادقنا عليه».

كان الوقت يمر أثناء ذلك، كان يطير، وحلّت الساعة الرابعة دون أن يحس بحلولها. وأغلقت المكاتب. حمل أندريه فيليبوفيتش

---

(1) إشارة لإحدى حكايات كيريلوف: **الصندوق**، حيث يدّعي خبير مزعوم في الميكانيك أنه قادر على فتح صندوق لا قفل له في الأصل.

قبعته، فحذا الجميع حذوه. تأخّر السيد غوليادكين قليلاً، ولم يغادر الإدارة إلا بعد أن غادرها جميع الموظفين وتفرّقت بهم السُّبُل. ما أن خرج السيد غوليادكين إلى الشارع حتى شعر وكأنه في الجنة، إلى درجة أنه رغب في أن يتجول في شارع نيفسكي. «هكذا هو القدر»، قال في نفسه، «ها هي ذي القضية تشهد مساراً غير متوقع... وها هو ذا الجو قد تحسّن، فأصبح جميلاً، انظر إلى هذا الجليد، إنه يناسب الروس... الجليد والروس يناسب بعضهما البعض، وأنا أحب الروس، أحبهم وأحب الثلج، وندف الثلج الأولى كما يقول الصيادون، آه، كم هو جميل الجري خلف أرنب فوق ندف الثلج الأولى!».

هكذا عبّر السيد غوليادكين عن حماسه. ومع ذلك، كان يحس أن شيئاً ما «يتنمل» داخل رأسه، شيء كالقلق... كانت تأتي لحظات يحس خلالها أن قلبه ينقبض تحت تأثير ذلك الشيء انقباضاً يجعله عاجزاً عن أن يعرف كيف يطمئن. «مع ذلك، يجب أن أتريث يوماً واحداً، بعدها أستطيع أن أفرح. ما هي القضية في الجوهر؟ حسناً، لنفكّر جيداً، لِنتقصَّ الأمر من كل الجوانب، شيء من التفكير يا صديقي الشاب، هيا، فكر قليلاً... هذا رجل يشبهك، بل يشبهك تماماً. طيب، وماذا في ذلك؟ هل فيه ما يدعوني إلى البكاء؟ ما يضر بي؟ إنني بعيد كل البُعد عن هذه القضية، إنها لا تعنيني في شيء، سأمضي في طريقي وأنا أصفّر، هذا ما ينبغي أن أفعله... لقد اختار هذه الوظيفة بالذات طريقاً للنجاح، نعم، لكن ماذا في ذلك؟ فليختر الطريق التي يريد... طيب، يقولون إنها معجزة، إنها شيء غريب، إنها شيء يشبه ظاهرة التوأمين السياميين... وما علاقة السياميين بما نحن فيه؟ صحيح أنهما توأمان غريبان، لكن ألم يعرف

التاريخ، أحياناً، رجالاً عظاماً غريبين؟ فهذا سوفوروف[1] الشهير مثلاً، يقولون إنه كان يجيد تقليد صوت الديك... صحيح أنه كان يفعل ذلك لأغراض سياسية، لكن ماذا عن قادة الجيش العظام؟ وما علاقة هؤلاء أيضاً بما أنت فيه الآن؟ أنا، أنا مكتفٍ بذاتي، وكفى. لا أريد أن أعرف أحداً، ولا أريد أن أهتم بأحد، أريد أن أبقى على ما أنا عليه، أن أبقى بريئاً، وأن أزدري الآخرين. لست من مدبّري المكائد، وإني لفخور بذلك. إنني طاهر. نقي. مستقيم. مهذب. دمث. ولا أحقد...».

وفجأة صمت السيد غوليادكين، وتسمّر في مكانه مضطرباً كورقة في مهبّ الريح، بل أغمض عينَيه لحظة آملاً أن لا يكون ذلك الشيء الذي أثار خوفه إلا وهماً، ثم فتحهما وألقى نظرة خاطفة على يمينه. لا، لم يكن وهماً. إلى جانبه كان زميله الذي رآه صباحاً يكردح ويبتسم، وينظر إليه، وكأنه يتحيّن فرصة سانحة كي يبادره بالحديث. إلا أنهما لم يتحدّثا إلى بعضهما. وسارا في الطريق جنباً إلى جنب صامتَين. صبّ السيد غوليادكين جهده كله في أن يدثّر نفسه تدثيراً، بأن يحشر نفسه في معطفه، وأن يحشو رأسه في قبعته حتى العينَين إذا استطاع. ولكنه اغتاظ لمّا رأى أن معطف رفيق طريقه وقبّعته يشبهان معطفه وقبّعته تماماً، كما لو أنه استعارهما منه.

- سيدي العزيز... قال بطلنا أخيراً، وهو يحاول أن يتكلم بصوت يكاد يكون خافتاً دون أن ينظر إلى رفيق طريقه، سيدي العزيز، أعتقد أن طريقينا مختلفان... بل أنا موقن من ذلك، أردف

---

(1) جنرال روسي شهير، عُرف بانتصاراته وتصرفاته الغريبة.

قائلاً بعد صمت قصير، وأتمنى أن تكون قد فهمتني جيداً. . . أضاف بشيء من الصرامة.

- كنت أود. . . قال رفيق طريق السيد غوليادكين بعد أن قرّر الخروج عن صمته، كنت أود. . . أرجو أن تتكرم وتغفر لي ما أقدمت عليه. . . فأنا لا أعرف أحداً هنا أتوجه إليه بالكلام. . . إن وضعي الآن. . . وأرجو أن تسامحني على جرأتي. . . لقد بدا لي هذا الصباح أن رأفتك دفعتك إلى أن تعبِّر عن شيء من الودّ اتجاهي. ولقد شعرت أنا أيضاً، ومن أول نظرة، بشيء من الانجذاب نحوك، إنني. . . (هنا تمنى السيد غوليادكين أن تبتلع الأرض زميله الجديد) لكم آمل يا ياكوف بتروفيتش أن تصغي إليّ بتسامح. . .

- نحن. . . هنا. . . نحن. . . يستحسن أن نذهب إلى منزلي. . . ردّ السيد غوليادكين. سنقطع شارع نيفسكي، سنرتاح أكثر إذا عبرنا إلى الجهة الأخرى من الشارع، ثم نسير في شارع صغير بعد ذلك، سنرتاح أكثر في شارع صغير.

- حسناً، لنسر في شارع صغير كما تريد. قال بخجل رفيق طريق السيد غوليادكين بنبرة تعبِّر عن أن القرار ليس بيده، وأن وضعه يفرض عليه أن يكتفي بشارع صغير. أما السيد غوليادكين فلم يفهم شيئاً ممّا يحدث له. ولم يصدّق نفسه. كان لا يزال تحت تأثير الصدمة.

الفصل السابع

استعاد السيد غوليادكين بعض وعيه بالواقع من حوله وهو يصعد السلَّم متوجّهاً إلى منزله، فأخذ يشتم نفسه قائلاً: «ما أشد غبائي! إلى أين أنا ذاهب به؟ إنني أضع الحبل حول عنقي بنفسي. ماذا سيقول بتروشكا حين يرانا معاً؟ ماذا سيظن هذا الوضيع وهو في الأصل شكّاك؟...». لكن وقت الندم كان قد فات؛ طرقَ السيد غوليادكين الباب فانفتح، وأخذ بتروشكا يساعد الضيف وسيده على خلع معطفيهما. ورمقه السيد غوليادكين بنظرة سريعة محاولاً أن يسبر أغواره من خلال هيئته، وأن يتبيّن ردّ فعله [illegible] فما أشد دهشته حين رأى أن خادمه لم يبدِ أي استغراب؛ بل إنه بدا كمن كان يتوقع شيئاً مثل هذا. كانت هيئته كما هي عليه دائماً، هيئة ذئب جائع، ينظر إلى ما حوله بطرف عينه، مستعداً لأن يفترس أول من يصادفه في طريقه. «هل سُحروا اليوم جميعاً أم ماذا؟» تساءل بطلنا في نفسه، «هل مر الشيطان من هنا؟ لا شكّ أن شيئاً غير عادي يخامر عقولهم جميعاً اليوم. اللعنة، ما كل هذا العذاب!». تلك هي الأفكار التي كانت تروج في ذهن السيد غوليادكين حين كان يدعو ضيفه إلى الدخول إلى غرفته، وإلى الجلوس، بكل احترام. بدا الضيف مرتبكاً أيّما ارتباك، خجلاً كل الخجل، يتابع كل ما يفعله ربّ المنزل، ولا يتوقف عن

النظر إليه علّه يسبر أغواره. كان في حركاته شيء من الشعور بالمهانة، والخوف، والرعب، إلى درجة أنه بدا في تلك اللحظة، إذا جازت المقارنة، كرجل ارتدى ثياب غيره لأنه لا يملك ثياباً خاصة به: الأكمام قصيرة، الصدرية أقصر، وهو لا يتوقف عن جذبها وتعديلها، وينسلُّ نحو ركن من الأركان باحثاً عن مكان يختبئ فيه، ليتابع النظرات التي تراقبه، ويصيخ السمع علّه يعرف إن كانوا يتحدثون عنه، إن كانوا يسخرون منه، إن كانوا يضحكون عليه، فيحمرُّ وجهه، ويحار أين يحشر نفسه، ويتعذب بسبب كبريائه المجروح... وضع السيد غوليادكين قبّعته على حافة النافذة، فأسقطتها حركة من يده المضطربة، فهرع الضيف كي يلتقطها، ونفض عنها الغبار، ثم أعادها إلى مكانها بحذر، ووضع قبعته على الأرض، قرب كرسي جلس عليه بتواضع. أزال هذا الحادث الصغير الغشاوة عن عيني السيد غوليادكين حين أدرك أن الآخر محرج كل الحرج، فلم يعد يفكر كيف سيبدأ الحديث، تاركاً ذلك الشرف للضيف كما تقتضي أصول الضيافة. لكن يبدو أن الضيف، من جهته، لم يجرؤ على ذلك. هل هو الخجل أم الحياء أم الأدب ما منعه من أن يبدأ الحديث قبل أن يدعوه رب المنزل إلى ذلك؟ إنه لمن الصعب أن نعرف السبب. في تلك الأثناء دخل بتروشكا، فتوقّف عند العتبة وهو ينظر عكس الجهة التي كان الضيف وسيده يجلسان فيها.

- هل عليّ أن آمر بعشاءين؟ سأل بصوت مبحوح مهمل.

- أنا، أنا لا أعرف... نعم أيها الرجل الطيب، مُر لنا بعشاءين.

انصرف بتروشكا، واسترق السيد غوليادكين نظرة إلى ضيفه. احمرَّ وجه هذا الأخير تماماً. ولأن السيد غوليادكين رجل طيب،

فقد ألهمته طيبته بعض الأفكار بشأن ضيفه: «مسكين هذا الشاب، إنه لم يتسلّم وظيفته إلا هذا الصباح، واضح أنه عانى كثيراً قبل ذلك، يبدو أنه لا يملك أي شيء ذا قيمة إلا بدلته المحترمة هذه، إنه لا يملك حتى ما يشتري به وجبة عشاء، ما أتعسه! يكفي أن تنظر إلى وجهه لتدرك حجم معاناته. طيب، لا يهم... فلربما كان هذا أفضل...».

- عذراً، هل تسمح لي أن أسألك عن اسمك الشخصي؟ سأله السيد غوليادكين.

- يا... يا... ياكوف بتروفيتش، أجاب الضيف بصوت خافت كما لو أحس بالخجل، واحمرَّ وجهه كما لو أنه يعتذر عن حمله لاسم ياكوف بتروفيتش.

- ياكوف بتروفيتش! ردّد بطلنا وهو عاجز عن السيطرة على ذهوله.

- نعم، بالضبط،... فأنا سميّك... أجاب الضيف المتواضع وهو يحاول أن يبتسم، وأن يمزح قليلاً، لكنه سرعان ما انكمش وعاد إلى تقمّص هيئته الجادة، وارتبك قليلاً لمّا رأى أن رب المنزل راغب عن المزاح.

- هل... هل لي أن أعرف السبب الذي شرفني بـ...

- لمّا عرفت كرمك وأخلاقك الغالية، قاطعه الضيف بسرعة وخجل وهو ينهض من على كرسيه قليلاً، سمحت لنفسي بأن أتوجّه إليك ملتمساً... صداقتك وحمايتك... توقّف الضيف عن مواصلة كلامه مرتبكاً، وقد بدا واضحاً أنه أخذ يبحث عن كلمات ليست بالمبالغة في المدح والتزلف حتى لا تمس بكبريائه، وليست جريئة كثيراً حتى لا تبدو مدّعية لتكافؤ غير مناسب في هذا المقام.

باختصار، لقد كان ضيف السيد غوليادكين يتصرف تصرف شحّاذ نبيل يرتدي لباساً مرقّعاً ويحمل في جيبه وثائق شخص مترف لم يتعلم بعدُ كيف يمدّ يده كي يشحذ.

- إنك تحرجني. . . أجاب السيد غوليادكين وهو ينظر إلى نفسه وإلى جدران غرفته، وإلى ضيفه. . . كيف أستطيع. . . أقصد. . . كيف أستطيع أن أخدمك؟

- لقد شعرت أنني منجذب إليك منذ التقيتك أول مرة يا ياكوف بتروفيتش. . . ولتتكرم بأن تغفر لي أني عقدت بعض الآمال عليك. . . أني تجرأت فعقدت بعض الآمال عليك يا ياكوف بتروفيتش. فأنا. . . تائه هنا يا ياكوف بتروفيتش. . . أنا فقير، وقد قاسيت كثيراً وعانيت من كثير من الآلام يا ياكوف بتروفيتش، وما زلت أعاني. . . ولمّا عرفت أنك تحمل، إلى جانب المزايا الطبيعية التي فطرت عليها، الاسم نفسه الذي أحمله. . .

ثم أردف قائلاً بعد أن التزم الصمت لحظة:

- . . . لمّا علمت أنك سميّي وأنك تنتمي إلى الإقليم نفسه الذي أنتمي إليه، فقد قررت أن أتوجّه إليك وأن أعرض عليك وضعي بكل مصاعبه. . .

- طيب، حسناً. . . الحقيقة أني لا أعرف ماذا أقول لك، أجاب السيد غوليادكين بصوت مضطرب. لنتناول العشاء أولاً، بعد ذلك نستطيع أن نتحدث. . .

انحنى الضيف ممتثلاً؛ أحضِر الغداء. جهّز بتروشكا المائدة، فجلس السيد غوليادكين وضيفه لتناول الوجبة. لم يدم تناولهما وجبة الغداء طويلاً. كانا متعجّلين: رب المنزل كان متعجّلاً لأنه لم يكن مرتاحاً، ولأنه كان يعرف أن الوجبة فقيرة فأحرِج، أضف إلى ذلك أنه

كان يرغب في أن يتناول ضيفه غداء محترماً من جهة، وأن لا يبدو أنه يعيش عيشة الفقراء من جهة أخرى. أما الضيف فكان متعجّلاً لأنه كان عرضة لاضطراب وحرج شديدَين. حين تناول قطعة خبز وانتهى من أكلها، لم يجرؤ أن يمد يده لتناول قطعة أخرى. كان يحس بالخجل من أن يختار ما يتناوله من الغداء، ولا يتوقف عن التأكيد أنه لم يعد يحس بالجوع، وأن الطعام لذيذ، وأنه راضٍ عنه كل الرضا، وأنه سيظل يذكره طوال حياته. ما إن انتهى السيد غوليادكين من غدائه حتى أشعل غليونه، واقترح على ضيفه غليوناً آخر يحتفظ به للأصدقاء. جلسا متقابلين، وشرع الضيف يحكي مغامراته.

دام سرد السيد غوليادكين الثاني لمغامراته ثلاث ساعات أو أربعاً. كانت قصة حياته عبارة عن وقائع عادية تافهة، بل مثيرة للشفقة. تحدّث عن عمله في إحدى محاكم الإقليم، عن قضاة التحقيق ورؤساء المحاكم، عن عدد من المكائد البيروقراطية المعهودة، عن أحد الموظفين المرتشين، عن دوريات التفتيش، عن رئيس من الرؤساء وكيف نقلوه فجأة، عن عمته وكيف ظلمته، عن مكائد أعدائه وكيف أدّت إلى فقدانه لوظيفته، عن مجيئه إلى سان بطرسبورغ مشياً على قدميه، عن تلك الأيام والليالي الطويلة التي قضاها باحثاً عن العمل في كل مكان في سان بطرسبورغ من دون جدوى، عن إنفاقه كل ما كان معه من النقود على الأكل، عن اضطراره إلى العيش في الشارع مكتفياً بالخبز الأسود الرديء يبلّله بدموعه، وبالنوم على الأرض حيثما اتفق، وعن ذلك الرجل المحسن الذي اعتنى به، وأوصى به إلى من وظفوه في وظيفته الجديدة. كان ضيف السيد غوليادكين يبكي أثناء سرد قصة حياته، ويجفّف دموعه بمنديل أزرق مخطّط يظنه من يراه قماشاً مشمعاً.

وختم كلامه بأن اعترف للسيد غوليادكين أنه لا يملك الآن ما يضمن به العيش والسكن، وأنه لا يملك حتى ما يشتري به لباساً رسمياً محترماً أو حذاء مهترئاً، وأن اللباس الرسمي الذي يرتديه الآن ما هو إلا لباس رسمي مستأجر لأيام قليلة.

تأثر السيد غوليادكين بما سمعه، وانفعل انفعالاً صادقاً. صحيح أن قصة ضيفه كانت تافهة، إلا أن كل كلمة من كلماته استقبلها قلبه كما تُستقبل هبة سماوية. فنسي شكوكه وهو يستمع إلى ضيفه، وفتح قلبه للحرية وللفرح، وانتهى بأن نعت نفسه، في أعماق قلبه، بالغبي. غبي لأن الأمور تبدو طبيعية، ولأنه لم يكن هناك ما يدعوه إلى أن يعذب نفسه، وأن يدق ناقوس الخطر. صحيح أن في الأمر نقطة شائكة... لكنها ليست كارثة في نهاية الأمر... ولا يمكنها أن تلطّخ سمعة رجل أو تجرح كبرياءه، وتقف حجر عثرة في طريق بناء مستقبله، لا سيما أنه ليس بالمسؤول عن تدخّل الطبيعة في ذلك التشابه... أضف إلى ذلك أن الضيف التمس منه الحماية، وبكى، واتهم القدر، فبدا بعيداً عن كل ادّعاء، أو مكر، أو بهرجة، مثيراً للشفقة، فقيراً، نكرة، بل خجلاً من ذلك التشابه الخارق، ولو لأسباب قد تكون مختلفة. إن وضعه ليوحي بالثقة التامة، إذ لم يسعَ إلا إلى أن ينال رضا صاحب البيت، فتصرَّف تصرُّف رجل يعذّبه الندم، ويشعر أنه مخطئ في حقّ الآخر. كان كلما دار الحديث بينهما حول ما يثير خلافاً في الرأي، إلا ويوافق السيدَ غوليادكين في رأيه. وحين يحدث أن يبدي رأياً مخالفاً لرأي غوليادكين دون قصد فينتبه إلى ذلك، يتدارك الموقف بأن يعيد النظر في ما قاله فيشرحه شرحاً جديداً، ويؤكد أن رأيه في النهاية لا يختلف عن رأي السيد غوليادكين في شيء، وأنه يفكر بطريقة تفكيره نفسها، وأنه ينظر إلى الأمور بنفس

نظرته إليها. باختصار، لقد كان يبذل كل ما في جهده ويلجأ إلى جميع الوسائل المتاحة كي يُرضي السيد غولیادکین ويثير عطفه. فكان أن خلص السيد غولیادکین إلى أن ضيفه رجل طيب إلى أقصى حدّ. وجيء بالشاي أثناء ذلك. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة. كان السيد غولیادکین يشعر بارتياح كبير، وبأنه متحمس رائق المزاج، فأقبل يحاور ضيفه حواراً جذّاباً. إنه يحب في مثل هذه اللحظات التي يكون خلالها رائق المزاج، أن يحكي عن أشياء مهمة. هذا ما فعله في هذا المساء: تحدّث لضيفه بإسهاب عن العاصمة، عن مسارحها، عن نواديها، عن لوحات الرسام برولوف، عن ذينك الإنجليزيَّين اللذين جاءا من لندن إلى سان بطرسبورغ خصيصاً من أجل أن يمتعا ناظريهما بجمال سور «حديقة الصيف»، وعادا من حيث جاءا على الفور، عن مكتبَي أولسوفي إيفانوفيتش وأندريه فيليبوفيتش، عن روسيا التي تسير في طريق التقدُّم من ساعة إلى أخرى، والتي:

تُزهر الآداب فيها اليوم والفنونُ

وعن تلك الحكاية التي قرأ عنها في **نحلة الشمال** مؤخّراً، والتي تروي قصة أفعى في الهند اسمها «البُوَا»، وهي أفعى ذات قوة خارقة للعادة، وعن البارون برابيئوس... إلخ. باختصار، لقد كان السيد غولیادکین سعيداً ذلك المساء، أولاً لأنه كان ينعم بطمأنينة تامة، وثانياً لأنه لم يعد يخشى أعداءه فحسب، وإنما كان مستعداً لأن يدعوهم إلى مواجهة حاسمة، وثالثاً لأنه كان في موقف الحامي لضيفه في ذلك المساء، وأخيراً لأنه يعمل عملاً خيرياً. ورغم ذلك، كان يحس، في قرارة نفسه، أنه ليس سعيداً كل السعادة في تلك اللحظة، وأن بداخله دودة، صحيح أنها دودة صغيرة، ولكنه يحس

أنها لا تزال تنخر قلبه على مهل وبلا هوادة. والحقيقة أن ذكرى ليلة أمس في منزل أولسوفي إيفانوفيتش هي ما كان ينخر قلبه. لقد كان مستعداً أن يدفع الكثير مقابل أن تنمحي عدة أشياء ممّا وقع خلال تلك الليلة. «وليكن، لم يحدث شيء...» خلص إلى القول وقد قرّر بينه وبين نفسه أن يتصرف منذ اليوم تصرفات لائقة، وأن لا يزل مثل تلك الزلات. وبما أن السيد غوليادكين كان في تلك اللحظات منشرحاً، وبما أنه يكاد يكون سعيداً كل السعادة، فقد شعر برغبة في أن يتمتع بالحياة قليلاً. فطلب من بتروشكا أن يحمل إليه خمراً من صنف «الروم»، صنع منه «بنشا» (شراباً مسكراً). فشرب منه صاحب البيت وضيفه كأساً، ثم كأساً أخرى. ازداد الضيف لطفاً، وبرهن عدة مرات عن صدقه وعن طبعه الطلق المنشرح. وشارك السيد غوليادكين في ما يسعده، وبدا شديد الابتهاج بفرحه، وأخذ يعامله كما لو أنه ولي نعمته الوحيد. وتناول ريشة وورقة، ورجا السيد غوليادكين أن لا يسترق النظر إلى ما سيكتبه، فلمّا فرغ ممّا كتبه أطلع صاحب المنزل عليه. إنه شعر لا يخلو من العاطفة، مكتوبة بخط وأسلوب متناسقَين، ويبدو أنها من نظم الضيف اللطيف نفسه. وإليكم هذا الشعر:

إنْ غداً نسيتني
فأنا لن أنساك أبداً
هذه الحياة عذبتني
فلا تنسني أبداً

عانق السيد غوليادكين ضيفه وقد بللت الدموع عينيه من فرط الانفعال. وأخذ يفضي إليه ببعض أسراره الحميمة، ويركز كثيراً على

أندريه فيليبوفيتش وكلارا أولسوفييفنا. «اسمع يا ياكوف بتروفيتش، سنكون معاً أنت وأنا»، قال بطلنا، «سنعيش معاً كسمكة في الماء، كأخوين، وسنمكر، يا أخي، سنمكر معاً، سنكيد لهم كي ندمّرهم... سندمّرهم، نعم، بالمكائد سندمّرهم، وإياك أن تثق بهم، لا تثق بهم أبداً ولا تكشف لهم عن أي سر، لا تكشف لهم عن أي شيء... أنا أعرفك يا ياكوف بتروفيتش... أعرف طبعك: إنك ممن لا يتورعون عن أن يفرغ جعبته عند أول مناسبة لأنك طيب القلب، احذرهم ولا تثق بهم، لا تثق بأحد منهم، واتركهم على مسافة بعيدة منك». وافق الضيف السيد غوليادكين موافقة تامة، وشكره، وانتهى بأن ذرف بعض الدموع هو أيضاً. «اسمع يا ياشا، اسمع»، واصل السيد غوليادكين قائلاً بصوت مرتجف ثقيل، «تعال اسكن معي إلى حين أو إلى الأبد. ما رأيك في ذلك، يا أخي؟ لا تعبأ بهذه المصادفة الغريبة، لا تكترث بها، لا تعذّب نفسك بهذا الأمر، لا تثر عليه... إنها رغبة الطبيعة، وإن الطبيعة لسخية يا أخي، هكذا هي الأمور يا عزيزي ياشا، وإنني لأقول لك ذلك عن حب، عن حب أخوي. سنكيد لهم نحن أيضاً، سننصب لهم الشباك، وسنوقع بهم». شرب كل أخ كأساً ثالثة، ثم كأساً رابعة، وسيطر على السيد غوليادكين عندها شعوران: الأول فهو أنه سعيد غاية السعادة، أما الثاني فهو أنه لم يعد قادراً على أن يقف على قدميه. وكان من الطبيعي، والحالة هذه، أن يدعو الضيف إلى المبيت في منزله. فأُعِد سرير للضيف بأن صفّت الكراسي وضُمّت إلى بعضها. وصرّح السيد غوليادكين الأصغر أن المبيت في منزل صديق مريح ولو كان على الأرض، وأنه مستعد لأن ينام في أي مكان بتواضع وامتنان، وأنه يشعر الآن وكأنه في الجنة، وأنه استطاع

أن يصمد خلال حياته أمام عدد كبير من المصائب والأحزان، وأنه قاسى الكثير وتحمّل الكثير، وقد -من ذا يعرف ماذا يخبئ لنا المستقبل؟- أعاني من أشياء كثيرة في المستقبل. احتجَّ السيد غولياادكين الأكبر على كلامه، ورأى أن من واجبه أن يشرح له أن عليه أن يضع ثقته في الرب. وافق الضيف على كلامه كل الموافقة، وقال طبعاً، «الرب لا نظير له[1]». وبهذه المناسبة استشهد السيد غولياادكين بالأتراك، قائلاً إنهم على حقّ حين يذكرون الرب حتى أثناء نومهم. وبعد أن عارض بعض الآراء المغرضة وغيّرها بخصوص محمد نبي الأتراك، واعترف بحنكته السياسية الفريدة من نوعها، انتقل إلى وصف صالون جزائري من صالونات الحلاقة قرأ عنه في أحد الكتب. وضحك الضيف وصاحب البيت كثيراً من سذاجة الأتراك، واندهشا من تعصُّبهم الديني الذي يؤجّجه الأفيون. . . شرع الضيف يخلع ملابسه، فانسحب السيد غولياادكين خلف الستار، وذلك لأن طيبة قلبه جعلته يقول لنفسه إن قميص الضيف قد لا يكون لائقاً، وأنه لا ينبغي أن يزيد في معاناته وقد عانى ما فيه الكفاية من قبل. هذا من جهة، أما من جهة أخرى فلأنه كان يريد أن يتأكد أن بتروشكا لم يبرح مكانه خلف الستار، وأن يسبر أغواره، وأن يسليه إذا أمكن، وأن يعامله معاملة طيبة حتى تشمل السعادة كل من في البيت، وتصفى القلوب من الضغينة. لنشر أن السيد غولياادكين لم يكن مطمئناً إلى بتروشكا كل الاطمئنان.

- تستطيع أن تخلد إلى النوم الآن يا بيير، قال السيد غولياادكين بصوت عذب حين دخل إلى مكان بتروشكا خلف الستار، تستطيع أن

(1) من الأمثال الشعبية القدرية المشهورة في روسيا.

تخلد إلى النوم الآن، وأيقظني غداً على الساعة الثامنة، هل فهمت يا بتروشا[1]؟

رغم أن نبرة صوت السيد غوليادكين كانت عذبة رقيقة على غير العادة، فإن بتروشكا لم يقل شيئاً، وبقي منشغلاً بسريره يرتّبه دون أن يكلّف نفسه عناء الالتفات نحو سيده ولو من باب الاحترام.

- هل سمعتني يا بيير؟ كرّر السيد غوليادكين. بإمكانك أن تخلدَ إلى النوم الآن، وأيقظني غداً على الساعة الثامنة يا بتروشكا، هل فهمت؟

- فهمت، نعم، فهمت، غمغم بتروشكا بصوت يكاد لا يسمع.

- طيب، طيب يا بتروشكا... فأنا لم أقل لك ذلك إلا لكي تشعر بالراحة والسعادة. نحن الآن سعيدان، لذلك أردت أن تكون سعيداً أنت أيضاً. والآن أتمنّى لك نوماً هنيئاً. نم جيداً يا بتروشكا، نم جيداً... العمل بانتظارنا غداً... وينبغي أن لا ينصرف ذهنك إلى بعض الظنون...

لم ينهِ السيد غوليادكين كلامه. «ألم أبالغ؟» قال في نفسه، «ألم أبالغ كثيراً؟ هكذا أنا دائماً... أبالغ وأتجاوز الحدود...».

غادر بطلنا حجيرة بتروشكا مستاء من نفسه كل الاستياء، لأن غلظة بتروشكا وانغلاقه على نفسه أزعجاه قليلاً. «أُشَرِّف هذا الوغد، أشرّفه أنا -سيده- بالذهاب إلى حيث ينام وبالملاطفة فلا يقدّر ذلك. على كل حال، إن الخسّة لمن صفات هذا النوع من البشر». قال السيد غوليادكين في نفسه وقفل عائداً إلى غرفته متثائباً. ولما رأى ضيفه مضطجعاً جلس بالقرب منه لحظة، وقال هامساً وهو يؤرجح رأسه:

(1) يستعمل اسم بتروشا عوض بتروشكا عند الرغبة في الملاطفة و«الدلع».

«اعترف يا ياشا، اعترف أيها النذل أنك مذنب في حقي... هل تعرف يا سميّي أنك... لا أعرف كيف أعبِّر عن ذلك...» أردف السيد غوليادكين مازحاً مع ضيفه بنوع من الألفة. ثم ودّعه بنوع من الصداقة، وذهب لينام. كان الضيف قد علا شخيره حين اضطجع السيد غوليادكين على سريره وهو يكلِّم نفسه هازلاً: «إنك سكران أيها الفتى، سكران يا بيوتر بتروفيتش، سكران أيها الوغد، سكران يا اسماً على مسمّى، قل لي لماذا أنت فرحان هذه الليلة؟ سترى كيف سيحمل لك الغد ما يبكيك أيها البكّاء، كيف أتعامل معك، قل لي كيف؟». وأحسّ بطلنا في تلك اللحظة بشعور غريب، شعور يشبه الشك والندم. «لقد بالغت»، قال في نفسه، «وها هي ذي رأسي تؤلمني... أنا سكران... لم أعرف كيف أتحكم في نفسي... ما أغباني! ما كل تلك الأطنان من السخافات التي حكيتها... وأردت أن أتحايل زيادة على ذلك!... يا لي من وغد! لا شكّ أن نسيان الإساءة وغفرانها من الفضائل الحميدة، لكن ذلك لا يعني شيئاً، نعم، لا يعني أي شيء».

فكر السيد غوليادكين في ذلك، ثم نهض من على سريره، وحمل شمعة، ومضى نحو ضيفه سائراً على رؤوس أصابعه كي يلقي عليه نظرة أخرى. وبقي منحنياً يتفرسه مدة طويلة غارقاً في التأمل. «يا له من منظر لا يسرّ!... إنه تهريج، مجرد تهريج، ولا شيء غير ذلك».

عاد السيد غوليادكين إلى الاضطجاع على سريره. كان رأسه مليئاً بالصخب والطنين، وعلى وشك أن ينفجر. وأحس أنه يفقد الوعي بما حوله شيئاً فشيئاً... فحاول أن يفكر في شيء آخر، أن يتذكر شيئاً مهماً، أو أن يعالج قضية في غاية الأهمية، حسّاسة، لكنه لم يستطع. واستولى عليه النعاس، فما لبث أن نام كما ينام من لم يتعود على أن يشرب خمسة كؤوس من الخمر خلال ليلة واحدة.

الفصل الثامن

وفي الغد، استيقظ السيد غوليادكين على الساعة الثامنة كالمعتاد. فما لبث أن تذكر وقائع الأمس... تذكرها فأبدى استياءه. «لقد تصرفت أمس تصرف الأغبياء» قال في نفسه وهو ينهض من على سريره ويلتفت حيث ينام ضيفه. فما أشد دهشته حين رأى أن الضيف والسرير قد اختفيا من الغرفة تماماً، فكاد أن يصرخ: «ما هذا؟ ماذا حدث؟ ما هذه الواقعة الجديدة؟». في اللحظة التي كان السيد غوليادكين ينظر إلى المكان الخالي من الضيف فاغراً فاه مندهشاً، دخل بتروشكا حاملاً صينية الشاي. «أين هو؟... أين هو؟...» تمتم بطلنا بصوت بالكاد يُسمع وهو يشير بإصبعه إلى المكان الذي خصّص للضيف ليلة أمس. لم يجب بتروشكا بشيء أول الأمر، بل لم ينظر إلى سيده، واكتفى بأن التفت إلى الركن الأيمن من الغرفة، فالتفت السيد غوليادكين إلى حيث التفت خادمه كأنه أرغم على ذلك. ولكن بتروشكا أجاب، بعد صمت طويل، وبصوت أجش فظ: «سيدي ليس في البيت».

«هل تتغابى أم ماذا يا بتروشكا! أنا سيدك». قال السيد غوليادكين بصوت متردد وهو ينظر إلى خادمه مندهشاً.

لم يجب بتروشكا، ولكنه نظر إلى سيده نظرة من الحدّة بحيث

أن السيد غوليادكين احمرّ تماماً، نظرة محمّلة باستياء مذلّ هو أقرب إلى الشتيمة منه إلى أي شيء آخر. أسقط في يد السيد غوليادكين، كما يُقال. وأخبره بتروشكا، أخيراً، أن الآخر غادر المنزل قبل ساعة ونصف، وأنه لم يشأ أن ينتظر. كان واضحاً أن جواب بتروشكا كان جائزاً ومعقولاً، وأنه لم يكذب، وأن نظرته المعبِّرة عن الشعور بالإهانة وتوظيفه لكلمة الآخر، لم تكن إلا استمراراً بغيضاً لتلك القضية البغيضة. ورغم ذلك أدرك السيد غوليادكين، وإن بشيء من الغموض، أن هناك شيئاً غير عادي في ما يحدث، وأن القدر ما زال يدخر له هدية أخرى، هدية غير سارة. «طيب، سننظر في ذلك، سننظر فيه في وقته وحينه... سنعالج الأمر... آه يا إلهي -قال في نفسه متأوّهاً بصوت مختلف- ماذا دهاني كي أدعوه إلى منزلي؟ لأي غرض فعلت ذلك؟ أرى أنني أضع رأسي بمحض إرادتي حول حبل المشنقة الذي أعدّه لي أولئك اللصوص، بل أنا من أعدّ الحبل، آه، يا صاحب الرأس البئيسة... لماذا لا تستطيع أن تقاوم الإقبال على الحماقات كالأطفال، كالموظفين في المكاتب، ككل المرؤوسين، ما أنت إلا ممسحة، خرقة عفنة، مهذار، امرأة ثرثارة... رباه!... لقد بلغت الوقاحة بذلك الوغد أن نظم شعراً، وباح بحبه لي... كيف، كيف أطرد ذلك الوغد بطريقة مهذّبة إذا عاد؟ إن طرق التصرف والتعبير كثيرة طبعاً... سأقول له مثلاً: أنت تعرف أن مرتبي متواضع... أو أخيفه بأن أقول له: بالنظر إلى الظروف العامة فأنا مضطر لأن... نعم سأقول له إني مضطر لأن أطلب منك أن نتقاسم ثمن الكراء ونفقات الطعام، وأن تؤدّي المبلغ مقدّماً... لا، لا، عليّ اللعنة، لا، طلب كهذا سيحطّ من سمعتي، إنه طلب فظ، فلأبحث عن وسيلة أخرى... ماذا لو أدفع بتروشكا مثلاً إلى أن

يسيء معاملته، بأن يتجاهله أو يعامله بفظاظة وغلظة، أن لا يحترمه بتاتاً، أن يحوّل حياته هنا إلى شيء لا يطاق؟ . . . ولماذا لا أطردهما معاً؟ لا ، لا ، عليّ اللعنة. إن تصرُّفاً كهذا قد لا يخلو من خطر . . وقد يكون خالياً من أي خطر أيضاً، المسألة كلها تتعلق بوجهة النظر . . . لا ، لا ، إنه تصرف مشين، مشين تماماً . . . ولكن، ماذا إذا لم يعد؟ سيكون ذلك شيئاً قبيحاً أيضاً، لا سيما بعد أن أسرفت في الحديث معه أمس. . . آه، إن الأمور لا تسير في الاتجاه الصحيح، إن قضيتنا ليست على ما يرام، آه، ما أغباني! كيف أعجز عن أن أميّز بين ما يجب فعله مما لا يجب؟ كيف أعجز عن التفكير بشيء من العقل؟ . . . لكن، ماذا لو عاد ورفض ما عرضته عليه؟ فليعد، ليته يعود، سيسرّني كثيراً أن يعود. . .». كان السيد غوليادكين منشغلاً بهذه الأفكار، وهو يحتسي الشاي، ولا يتوقف عن النظر حيث علّقت ساعة الحائط. «إنها التاسعة إلا ربعاً الآن، حان وقت الذهاب إلى العمل. ماذا سيحدث هناك؟ ماذا سيحدث هناك يا ترى؟ آه، كم أود أن أعرف ما يُحاك لي هناك، كم أود أن أسبر أغوارهم، أن أكشف عن أهدافهم، وعن نواياهم، وكل ما يحيكون. آه، كم أود أن أعرف إلى أين يريدون أن يصلوا، وما هي الخطوة الأولى التي سيقدمون عليها! . . .». نفد صبر السيد غولياكين، فرمى غليونه الذي لم يكن قد فرغ من تدخينه بعدُ، ارتدى ثيابه وهرع نحو المكتب، عازماً على أن يكشف الغطاء عن الخطر المحدق، وأن يتحقق بنفسه ممّا يُحاك له. فالخطر قائم لا محالة: وهو يعرف أنه قائم. «سننفذ إلى حقيقة الأمر. . .» قال السيد غوليادكين في نفسه وهو يخلع عنه معطفه وجرموقَيه في البهو، «سنتعرف على خبايا هذه القضية حالاً». وأخذ بطلنا يعدّل ثيابه

مصطنعاً الوقار اللازم. وفيما هو يهمُّ بالدخول إلى المكتب، إذا به يصطدم عند العتبة بضيفه، رفيقه وصديقه منذ الأمس. بدا السيد غوليادكين الأصغر وكأنه لم ينتبه إلى وجود السيد غوليادكين الأكبر، رغم أنه كان أمامه تماماً، وجهاً لوجه. كان مستعجلاً، فيما يبدو، ذاهباً إلى حيث لا يعلم أحد وهو منقطع النفس، بل إن مظهره كان من الاستعجال بحيث أن كل من يراه يستطيع أن يقرأ على وجهه مباشرة: «مكلّف بمهمة رسمية».

– ها... هذا أنت يا ياكوف بتروفيتش. قال بطلنا وهو يمسك بذراع ضيف الأمس.

– فيما بعد، فيما بعد، معذرة، أجّل كلامك إلى ما بعد. صرخ غوليادكين الأصغر وهو يتملّص منه.

– اسمح لي يا ياكوف بتروفيتش، يبدو لي أنك كنت تريد أن... أليس كذلك؟

– ماذا تقول؟ اختصر من فضلك. قال ضيف الأمس وتوقّف عن الكلام وكأنه أرغم على ذلك، وقرّب أذنه من فم محدثه.

– أعترف يا ياكوف بتروفيتش أنني مستغرب أن تستقبلني... أن تستقبلني استقبالاً لم أتوقعه تماماً...

– هناك مساطير يا سيدي. اذهب إلى سكرتير صاحب المعالي وسلِّم تقريرك إلى السيد مدير مكتبه كما تقتضي المسطرة... هل لديك طلب ما؟

– أنت... لا أعرف ماذا أقول يا ياكوف بتروفيتش. إنك تذهلني حقاً يا ياكوف بتروفيتش. ألم تعرفني؟ أم أنك تمزح على عادتك؟

– آه، هذا أنت! قال السيد غوليادكين الأصغر وكأنه لم يتعرّف

إلى غوليادكين الأكبر إلا في تلك اللحظة. هذا أنت! قل لي هل نمت نوماً طيباً! قال السيد غوليادكين الأصغر قوله ذاك وهو يبتسم ابتسامة خفيفة، ابتسامة رسمية شكلية، لكنها ليست كما كان ينبغي أن تكون (على اعتبار أنه كان ينبغي أن يعترف بفضل السيد غوليادكين عليه) وأردف قائلاً إنه سعيد جداً أن يكون السيد غوليادكين قد نام نوماً طيباً، ثم انحنى انحناءة خفيفة، وتحرك في مكانه قليلاً، ونظر إلى اليمين فإلى اليسار، ثم خفض عينَيه، ونظر نحو باب جانبي، وتمتم يقول بسرعة إنه مكلّف بمهمة خاصة وهرع نحو الغرفة المجاورة. واختفى في لمح البصر.

«هكذا إذاً!» قال السيد غوليادكين بصوت خافت متسمّراً في مكانه، «هكذا إذاً! أوصلت الأمور إلى هذا الحد! . . .». وشعر السيد غوليادكين برعشات تجتاح جسده كله دون أن يعرف السبب. «لقد أدركت منذ مدة طويلة أن الأمور وصلت إلى هذا الحدّ»، أردف السيد غوليادكين وهو يتوجه نحو مكتبه، «لقد خمنت منذ مدة طويلة أنه مكلّف بمهمة خاصة، بالأمس فقط كنت أقول مع نفسي أنه لا شكّ مكلّف من طرف شخص ما بمهمة خاصة. . .».

– هل أنهيت كتابة التقرير أمس يا ياكوف بتروفيتش؟ سأل أنطون أنطونوفيتش سيوتوتشكين السيدَ غوليادكين حين جلس إلى جانبه. هل هو معك الآن؟

– إنه معي. أجاب السيد غوليادكين بصوت خافت وهو ينظر إلى رئيس مكتبه نظرة تائهة.

– طيب. . . سألتك عنه لأن أندريه فيليبوفيتش طلبه مرتين حتى الآن. وقد يطلبه صاحب المعالي بعد قليل. . .

– نعم، نعم، التقرير جاهز. . .

- طيب، طيب.

- أعتقد يا أنطون أنطونوفيتش أني قمت بواجبي بإخلاص دائماً، وأنني أنجزت الأعمال التي يعهد بها رؤسائي إليّ بكل انضباط وحماس حتى الآن.

- نعم، أكيد... لكن ماذا تقصد بذلك؟

- لا شيء يا أنطون أنطونوفيتش. وإنما أردت أن أشرح لك يا أنطون أنطونوفيتش أنني... أقصد... أردت أن أقول أن الحسد والعدوانية الساعيان في طلب رزقهما اليومي الكريه لا يوفران أحداً...

- عذراً... لم أفهمك جيداً. إلى من تُلمّح في هذه اللحظة؟

- أقصد يا أنطون أنطونوفيتش أنني أتبع الطريق القويم دائماً، وأنني أمقت الطرق الملتوية، وأنني لست من مدبّري المكائد... وذلك أمر يحق لي أن أفتخر به...

- نعم، أكيد أنه شيء طيب. إنني أعترف بجودة طريقتك في التفكير، ولكن اسمح لي يا ياكوف بتروفيتش أن ألفت نظرك أن التهجُّمات الشخصية لا تجوز في المجتمع الراقي. قد أتسامح مع من يذكرني بسوء وراء ظهري مثلاً -إذ من ذا لا يتعرض للنقد وراء ظهره؟- لكنني لن أتسامح أبداً مع من يعاملني بوقاحة علانية. لقد شاب شعري في خدمة الدولة أيها السيد، ولن أسمح لأحد بأن يعاملني بوقاحة...

- لا، يا أنطون أنطونوفيتش... أنا... ليس هذا ما قصدته يا أنطون أنطونوفيتش... أعتقد أنك لم تفهمني جيداً. أنا أيضاً لا يمكن إلا أن أعتبر أن من الشرف...

- أنا أيضاً أطلب منك أن تعذرني. لقد تعلّمت على الطريقة القديمة. وقد فات الأوان الآن كي أتعود على أساليبكم الجديدة. وأعتقد أنني لم أبخل جهداً في خدمة الوطن بطريقتي القديمة. وأظن أنك لا تجهل سيدي العزيز أنني أحمل وساماً اعترافاً بما قدمته من خدمات جُلّى على امتداد خمس وعشرين سنة...

- أعرف ذلك يا أنطون أنطونوفيتش، أعرفه جيداً، ولكن ليس هذا ما أتكلّم عنه... أتكلّم عن القناع يا أنطون أنطونوفيتش...

- عن القناع؟

- أقصد... إنني أخشى أن تفسّرَ كلامي تفسيراً خاطئاً مرة أخرى... إن كلامي يتمحور... أقصد أن الفكرة التي أدافع عنها يا أنطون أنطونوفيتش هي أن لابسي الأقنعة قد كثروا في زماننا هذا، حتى أصبح من العسير اليوم أن نتعرّف إلى الشخص خلف القناع...

- أعتقد أن ذلك ليس صعباً كما يبدو لك، بل إنه قد لا يتطلب أي جهد أحياناً.

- لا، افهمني جيداً من فضلك يا أنطون أنطونوفيتش، إنني أتحدّث عن نفسي، فأنا مثلاً لا أضع قناعاً إلا عند الضرورة، أقصد إنني ألبسه في الكرنفال أو بعض السهرات... أعني أني ألبسه، ألبسه بالمعنى الحقيقي لا المجازي، ولا ألبس قناعاً حين أكون مع الناس في حياتي اليومية، أقصد أني لا ألبسه بالمعنى المجازي هنا وليس الحقيقي. هذا ما أردت أن أقوله يا أنطون أنطونوفيتش.

- طيب، لندعْ هذا جانباً الآن، فوقتي لا يسمح. قال أنطون أنطونوفيتش وهو ينهض من على كرسيه ويجمع الأوراق اللازمة للتقرير الذي كان عليه أن يقدّمه لصاحب المعالي. أما عن قضيتك، فأعتقد أنها ستتضح عمّا قريب. حينئذٍ ستعرف من عليك أن تحمله

التبعة ومن يجب أن تتهم؛ في انتظار ذلك، أرجوك بكل تواضع أن تعفيني من شروحاتك وتعليقاتك الخاصة الطويلة التي تسيء إلى العمل. . .

- أرجوك يا أنطون أنطونوفيتش. . . قال السيد غوليادكين وقد اصفرّ قليلاً في اللحظة التي كان أنطون أنطونوفيتش يهمُّ بالانصراف. أرجوك يا أنطون أنطونوفيتش، فأنا لم أقصد قط. . .

«ماذا يحدث هنا؟» واصل السيد غوليادكين قائلاً في نفسه بعد أن بقي وحيداً، «ما معنى ما يحدث هنا؟ وما معنى هذه المصيدة الجديدة؟». في تلك اللحظة التي كان السيد غوليادكين يتأهّب لحلّ مشكلته الجديدة مندهشاً مضطرباً، سمع ضجة في الغرفة المجاورة. فُتح الباب، فظهر أندريه فيليبوفيتش الذي لم يكن قد غادر الغرفة متوجِّهاً إلى مكتب صاحب المعالي إلا قبل قليل، ظهر منقطع الأنفاس ونادى السيد غوليادكين. وبما أن السيد غوليادكين كان يعرف جيداً السبب الذي من أجله ناداه رئيسه، ولكي لا يدعه ينتظر، فقد هبَّ قائماً من على كرسيه وأسرع يرتّب الملف المطلوب ويستعدّ لأن يحمله إلى صاحب المعالي برفقة أندريه فيليبوفيتش. وفجأة، ظهر السيد غوليادكين الأصغر وكأنه انسلَّ من تحت ذراع أندريه فيليبوفيتش حين كان على عتبة المكتب، فدخل إلى المكتب منشغلاً، منقطع الأنفاس من كثرة الانهماك في العمل، متظاهراً بالوقار والالتزام بالرسميات، وهرع نحو السيد غوليادكين الأكبر الذي لم يكن يتوقع مثل هذا الهجوم. . .

- التقرير يا ياكوف بتروفيتش، التقرير. . . صاحب المعالي يسأل هل هو جاهز؟ قال الصديق الجديد للسيد غوليادكين بصوت خافت متسرّع. أندريه فيليبوفيتش ينتظرك. . .

- لست في حاجة إليك كي أعرف أنه ينتظرني. قال السيد غوليادكين القديم بصوت خافت ومتسرّع أيضاً.

- لا، ليس هذا ما قصدته يا ياكوف بتروفيتش، ليس هذا ما قصدته على الإطلاق يا ياكوف بتروفيتش، فأنا لم أقدم على هذا إلا من باب التعاطف...

- وأنا أرجوك أن تعفيني من هذا التعاطف... والآن اسمح لي، اسمح لي من فضلك...

- ضعْ التقرير في ملف يا ياكوف بتروفيتش، ولا تنسَ أن تضع شريطة صغيرة في الصفحة الثالثة. اسمح لي يا ياكوف بتروفيتش...

- بل اسمح لي أنت، ما هذه الـ...

- انظر إلى هذه البقعة من الحبر يا ياكوف بتروفيتش، هل لاحظت هذه البقعة؟

نادى أندريه فيليبوفيتش السيد غوليادكين مرة الثانية.

- حالاً، حالاً، أنا قادم... قادم... ألا تفهم اللغة الروسية يا سيدي؟

- يستحسن أن تحكَّ البقعة بموسى يا ياكوف بتروفيتش، ثقْ بي، لا تفعل ذلك بنفسك واترك الأمر لي، اتركني أزيلها بالموسى...

ناداه أندريه فيليبوفيتش مرة ثالثة.

- أين هي البقعة التي تتحدث عنها؟ لم أرَ أية بقعة.

- إنها بقعة كبيرة، انظر، إنها هنا، رأيتها هنا... دعني أزيلها... هل تسمح لي بأن أزيلها يا ياكوف بتروفيتش؟ إن معي موسى، سأفعل ذلك من باب التعاطف يا ياكوف بتروفيتش، نعم

سأزيلها بحكة صغيرة من هذه الموسى، سأفعل ذلك من كل قلبي... سأحكها بالموسى إلى أن تزول تماماً...

وكان أن وقع شيء غير متوقع إذ عمد السيد غولياdكين الأصغر، بعد المناقشة القصيرة التي دارت بينهما، إلى الاستيلاء على الملف الذي طلبه صاحب المعالي رغم أنف السيد غولياdكين، وعوض أن يعمل على إزالة بقعة الحبر بالموسى من كل قلبه كما اقترح على السيد غولياdكين القديم، طوى الأوراق بسرعة وتأبّطها، وهرع نحو أندريه فيليبوفيتش الذي لم يلاحظ شيئاً من ألاعيبه، ودخل بصحبته إلى مكتب المدير. بقي السيد غولياdكين القديم متسمّراً في مكانه ممسكاً بالموسى، كأنه يتأهّب لأن يحك بها شيئاً ما...

لم يكن بطلنا قد فهم بعد ما جرى له. ولم يكن قد استعاد وعيه. صحيح أنه كان قد شعر بصدمة ولكنه اعتقد أنها صدمة لا تختلف عن باقي الصدمات التي قد يتعرّض لها الإنسان في حياته. ولكنه استطاع، أخيراً، مدفوعاً بإحساس بضيق فظيع، أن ينتزع نفسه من مكانه، ويهرول مسرعاً نحو مكتب المدير وهو يسأل الرب أن يهبه مخرجاً موفّقاً من هذا المأزق، وأن لا يكون له تداعيات سلبية... وفي القاعة الأخيرة، قبل مكتب المدير، التقى وجهاً لوجه بأندريه فيليبوفيتش ومعه سميّه اللذين كانا عائدين لتوهما من مكتب صاحب المعالي، فأفسح لهما. كان أندريه فيليبوفيتش يبتسم ويتحدّث بمرح. وكان سميّ السيد غولياdكين القديم يبتسم هو الآخر، ويتظاهر بالانشغال، ويكردح خلف أندريه فيليبوفيتش على مسافة قصيرة منه، ويسرُّ له بشيء ما وهو سعيد كل السعادة، وأندريه فيليبوفيتش يرد عليه هازاً رأسه موافقاً ملاطفاً. سرعان ما أدرك بطلنا

كل شيء: أدرك أن عمله (وقد تأكد من ذلك فيما بعد) كاد يتجاوز كل الآمال التي عقدها عليه صاحب المعالي، وأنه أنجز في الوقت المحدد المناسب تماماً، وأن صاحب المعالي ارتاح لعمله كل الارتياح، وقيل إن صاحب المعالي قال شكراً للسيد غوليادكين الأصغر، شكراً جزيلاً، بل قيل إنه قال إنه لن ينسى العمل الذي أنجزه وأنه سيتذكره في الوقت المناسب... كان طبيعياً أن يكون ردّ فعل بطلنا هو الاحتجاج، الاحتجاج بكل قوة، بكل ما أوتي من قوة. لذلك اندفع نحو أندريه فيليبوفيتش ممتقعاً، مصفرّاً اصفرار الموتى. لكن أندريه فيليبوفيتش، ما أن علم أن القضية التي يريد السيد غولياد كين أن يحدّثه عنها قضية خاصة، حتى رفض أن يستمع إليه، وأفهمه أنه لا يملك دقيقة فراغ واحدة يخصّصها لقضاياه الخاصة.

صعقتِ النبرةُ الجافة الفظة التي عبر بها أندريه فيليبوفيتش السيدَ غولياد كين، فقال في نفسه: «طيب، أعتقد أنه يستحسن أن أغيّر المُخاطَب... أن أتوجه إلى أنطون أنطونوفيتش». إلا أن أنطون أنطونوفيتش، لسوء حظ السيد غولياد كين، كان غائباً عن المكتب في مهمة ما في تلك اللحظة. «إذاً فقد كان على حق حين طلب مني أن أعفيه من الشروح والتعليقات». قال السيد غولياد كين في نفسه، «هذا ما كان يقصده ذلك المتكتّم، لم يبقَ أمامي والحالة هذه إلا أن أطلب مقابلة صاحب المعالي».

تهاوى السيد غولياد كين على كرسيه ممتقع اللون، مشوش العقل، قلقاً كل القلق، لا يدري كيف يتصرف. «لا شكّ أنه من الأفضل أن لا يكون لكل هذا أية دلالة»، قال السيد غولياد كين في نفسه. «إن قضية كهذه القضية لا يمكن تصديقها بتاتاً، بل إنها

مستحيلة، ولا يمكن أن تقع. لا شكّ أني توهمت أنها وقعت، أو أن ما وقع بالفعل ليس ما تصورت أنه وقع، أو قد أكون أنا من قابل صاحب المعالي... وحسبت نفسي شخصاً آخر... باختصار، إنها قضية مستحيلة».

ما كاد السيد غوليادكين يقرُّ، بينه وبين نفسه، أنها قضية مستحيلة تماماً، حتى دخل إلى الغرفة السيد غوليادكين الأصغر، متأبّطاً عدة ملفات وحاملاً أخرى بكلتا يديه. بعد أن تبادل وأندريه فيليبوفيتش بعض الكلمات بخصوص بعض القضايا المستعجلة، وبعد أن تبادل مع مجموعة من الموظفين بعض الملاطفات على عجل كما قد يفعل من لا يتسع وقته كثيراً لمثل هذه التفاهات، همّ بأن يغادر الغرفة. لكنه، ولحسن حظ السيد غوليادكين القديم، توقف عند العتبة كي يتبادل بعض الكلمات العابرة مع موظفَين أو ثلاثة ممن صادفهم عند الباب. فما كان من السيد غوليادكين إلا أن هرع نحوه. ولكن السيد غولیادكين الأصغر ما أن رأى ما عزم عليه السيد غولیادكين الأكبر، حتى شرع يبحث بناظريه حوله عن مكان كي يتخلص منه بأسرع ما يمكن. غير أن بطلنا لم يمهله، فأمسك بكمّه. ابتعد الموظفون الذين كانوا قد تحلّقوا حول المستشارين الرسميين مترقّبين ما سيحدث بعد بفضول. كان المستشار الرسمي الأقدم (السيد غولیادكين الأكبر) يعرف حقّ المعرفة أن الموظفين متعاطفون مع خصمه، ويدرك أن مكيدة ما تدبّر له في غفلة عنه، ممّا دعاه إلى أن يصمد أكثر. لقد كانت تلك اللحظة حاسمة.

- ماذا هناك؟ قال السيد غولیادكين الأصغر وهو ينظر إلى السيد غولیادكين الأكبر نظرة وقحة.

كان السيد غولیادكين يجد صعوبة في التنفس.

- إنني لأتساءل سيدي العزيز، قال السيد غوليادكين، كيف ستفسر لي تصرفك الغريب معي؟

- طيب، وماذا بعد؟ قال السيد غوليادكين الأصغر وهو يلقي نظرة على من حوله من الموظفين الذين كانوا يحيطون بهما، كما لو أنه يريد أن يقول لهم: الآن تبدأ المسرحية الهزلية.

- إن جرأة ووقاحة أساليبك في الوقت الحالي يا سيدي العزيز... يدينانك أكثر من أي كلام أقوله. لا تعقد آمالاً كبيرة على حِيَلك فهي خرقاء لا تنطلي على أحد...

- طيب، أخبرني الآن يا ياكوف بتروفيتش هل نمت جيداً أمس؟ أجاب السيد غوليادكين الأصغر وهو يحدّق في عينَي السيد غوليادكين الأكبر.

- أرى أنك نسيت نفسك يا سيدي العزيز. أجاب المستشار الرسمي الأقدم وقد فوجئ بسؤال المستشار الرسمي الأصغر، وأحس أن ساقيه تكادان تعجزان عن حمله... وإنني لآمل أن تغيّر من نبرة صوتك...

- يا حبيبي... قال السيد غوليادكين الأصغر للسيد غوليادكين الأكبر وهو يتقزّز تقزّزاً وقحاً. وفجأة، وبطريقة غير متوقعة، تخلّى عن تقزّزه متظاهراً بنوع من اللطافة، وأمسك بإصبعين من أصابع يده خد السيد غوليادكين اليمنى الربلة. فاستشاط السيد غوليادكين غضباً... ما أن رأى صديق السيد غوليادكين أن خصمه يرتعد بكل أعضائه، ويلزم الصمت من شدة الحنق وقد احمرّ وجهه تماماً وعيل صبره، فصار قادراً على أن ينتقل من القول إلى الفعل، حتى سارع إلى استباقه بطريقة أكثر وقاحة. فأخذ يربت على وجهه مرتين أو ثلاث، ويتلاعب بغضبه المشلول العاجز لحظات، وختم بأن لكز

كرشه البارز قليلاً بوقاحة مثيرة للغضب، والموظفون المتحلقون حولهما ينظرون إلى ما يفعل مسرورين، ثم قال له وهو يبتسم ابتسامة يغمرها اللؤم والحقد: «يا لك من ماكر يا عزيزي ياكوف بتروفيتش، يا لك من ماكر! سنمكر معاً، أنا وأنت، سنمكر معاً». ثم لم يدع له فرصة أن يسترجع توازنه من تلك الهجمة الأولى، فاصطنع بشكل مفاجئ هيئة شخص مشغول (دون أن ينسى أن يبتسم إلى الجمهور من حولهما ابتسامة صغيرة) ونظر إلى الأرض، وتقلّص، وامّحى، وقال بسرعة: «مهمة خاصة» وحرّك ساقيه القصيرتين وهرول نحو الغرفة المجاورة. بقي بطلنا متسمّراً في مكانه مشدوهاً، لا يصدّق ما رأت عيناه...

وعاد إلى وعيه بعد أن أدرك، فجأة، أنه ضاع، أنه تحطّم، وأن سمعته مرّغت في الوحل، وأنه صار أضحوكة أمام الجميع، وأنه أهين من طرف من حسبه أمس أول أخلص أصدقائه، وأنه تصرّف كما يتصرّف الأغبياء. فكان أن اندفع يلاحق عدوه غير عابئ بأولئك الذين كانوا شهداء على ما تعرّض له من إهانة. «إنهم متواطئون جميعهم»، قال في نفسه... «ويؤازر بعضهم البعض وينقلبون ضدي». لكن بطلنا ما أن قطع عشرة أمتار حتى أدرك أن لا فائدة ولا أمل في اللحاق به، فقفل عائداً. «لن تفر مني»، قال في نفسه، «سأعترض طريقك في الوقت المناسب، عندئذٍ سيؤدّي الذئب ثمن دموع الحَمَل، كما يُقال». وعاد السيد غوليادكين إلى الجلوس بدم بارد وعزيمة قوية وهو يكرر عدة مرات قائلاً: «سأتمكّن منك». لم يعد الأمر يتعلق، بالنسبة إليه، بالدفاع السلبي، وإنما أصبح يتعلق بالعزيمة على الهجوم، على الغارة. ولو رأى أحد السيد غوليادكين في تلك اللحظة، وقد احمرّ وجهه تماماً ولم يعد قادراً على التحكم

في ما يغلي بداخله، لو رآه وهو يغرس ريشته في المحبرة ويحرث بها الورقة التي أمامه بهياج، لأدرك أن القضية لن تتوقف عند هذا الحدّ، وأنها لن تنتهي كما تنتهي قصص النساء المسنّات. كان قد اتخذ في قرارة نفسه قراراً ما، وأقسم من أعماق قلبه أن ينفّذه. الحقيقة أنه لم يكن يعرف بعدُ كيف يتصرّف تصرفاً جيداً، بل إنه لم يكن يعرف بتاتاً كيف يتصرف، لكن لا يهم، إن ذلك لن يغيّر من الأمر شيئاً.

«إننا لا نحقق النجاح في عصرنا هذا بواسطة الدّجَل والوقاحة، يا سيدي العزيز، إن الدّجل والوقاحة لا ينتجان أي شيء طيب، إنهما لا يؤدّيان إلا إلى المشنقة. وحده غريشكا أوتربييف[1]، يا سيدي، بلغ هدفه بالدّجل بعد أن خدع شعباً أعمى، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً يا سيدي الفاضل». رغم هذا الاعتبار الأخير، قرّر السيد غوليادكين أن يتريث إلى أن يسقط القناع عن بعض الوجوه، وأن تتضح الأمور أكثر. كان عليه أن ينتظر إلى أن تغلق الإدارة أبوابها أولاً، وأن لا يُقدم على أي شيء قبل ذلك. وبعد أن تغلق الإدارة أبوابها سيتخذ إجراء معيّناً. وبعد أن يتخذ ذلك الإجراء سيعرف كيف يتصرف، كيف يرسي دعائم خطة عمل محكمة كي يدمِّر الغطرسة، ويسحق الثعبان ويجعله يَعض الأرض عاجزاً عجزاً بغيضاً. لن يَسمح لأحد أبداً بأن يعامله كخرقة لمسح الأحذية. لن يقبل بذلك، لا سيما في اللحظة الراهنة. لو لم يتعرّض بطلنا لتلك الإهانة الأخيرة، فربما كان سيكتم غيظه في قلبه، ويسكت عمّا يجري حوله، ويخضع

---

(1) ادّعى غريشكا أوتربييف أنه ديمتري ابن القيصر إيفان الرهيب واستولى سنة 1605 على العرش، لكنه لم يحكم البلاد إلا بضعة أشهر.

للأمر الواقع، ويتجنب الاحتجاج بشدة، ويقبل بالنقاش، ويبرهن على أنه على حقّ، ثم يتنازل قليلاً، ثم يتنازل أكثر، ثم يقبل بتسوية شاملة، وحين يعترف عدوه بأنه على حقّ قد يوافق على المصالحة، بل قد يرق قلبه قليلاً، وتولد -من يدري؟- صداقة جديدة، صداقة قوية حارّة، أكبر من صداقة أمس، صداقة تستطيع أن تبدِّد في النهاية ما نتج عن ذلك التشابه البغيض بين وجهَين من إزعاج، بل تستطيع أن تجعل المستشارين الرسميين سعيدين مئة سنة، و. . . وانتهى السيد غولياذكين إلى أن بدأ يشعر بقليل من الندم لأنه دافع عن نفسه وعن حقه ولم يجنِ من ذلك إلا الانزعاج. «كان يكفي أن يتراجع»، قال السيد غولياذكين في نفسه، «كان يكفي أن يقول إنه يمزح فقط، كنت سأسامحه حينها، بل كنت سأسامحه أكثر لو أنه اعترف بما اقترف أمام الجميع. أما أن أدعه يعاملني كخرقة بالية فلا. لم أسمح لأشخاص كثيرين قبله بأن يسيئوا معاملتي، فكيف أسمح بذلك لشخص فاسد مثله. لست خرقة بالية يا سيدي، لا، لست خرقة بالية». باختصار، لقد كان بطلنا عازماً كل العزم: «أنت البادئ يا سيدي، أنت المذنب». كان عازما على أن يحتجَّ، أن يحتجَّ بكل ما أوتي من قوة، وبكل ما يملك من إمكانات. ذلك طبعه. لن يرضخ للإهانة أبداً، وأبداً لن يسمح لأحد أن يعامله كخرقة بالية، خاصة ذلك الفاسد. ومع ذلك، لو أن شخصاً ما أراد، أراد بشدة، أن يجعل منه خرقة بالية، لتمكّن من ذلك، لتمكّن من أن يجعل منه خرقة بالية دون مقاومة منه أو خطر (فهو يحس أحياناً أن ذلك ممكن)، عندئذٍ سنحصل على خرقة بالية لا على غولياذكين - نعم، سنحصل على خرقة بالية وسخة يرثى لها، إلا أن تلك الخرقة سوف لن تكون كالخرق الأخرى، ستكون خرقة ذات كرامة وطموحات،

ذات عواطف وطموحات... صحيح أنها طموحات متواضعة وعواطف عاجزة، ومكبوتة في ثنايا تلك الخرقة الوسخة، ولكنها عواطف على كل حال...

كانت الساعات تمر بطيئة بطئاً لا يصدق. ودقّتِ الساعة الرابعة أخيراً. فأخذ الموظفون ينهضون من على كراسيهم بعد أن رأوا رئيسهم ينهض، ومضوا إلى منازلهم. اندسّ السيد غوليادكين بين صفوف المغادرين. كان يرقب ذاك الذي لا ينبغي أن يفلت منه. رأى بطلنا صاحبه أخيراً وهو يتقدّم نحو حرّاس المعاطف، ويجاملهم على عادته الكريهة في انتظار أن يناولوه معطفه. إنها لحظة حاسمة. نجح السيد غوليادكين في أن ينسل من بين الموظفين إلى حيث تسلُّم المعاطف، وطلب معطفه. لكن صديقه كان قد سبقه إلى ذلك لأنه نجح بطريقته الخاصة أن يقف أمامهم تماماً، وينخرط في الحديث معهم، وأن يجاملهم، ويهمس في آذانهم مازحاً، وأن يتزلّف لهم.

حين ارتدى السيد غوليادكين الأصغر معطفه، ألقى نظرة ساخرة مكشوفة على السيد غولياديكين القديم. ويبدو أنه تصرّف بهذه الطريقة الجريئة كي يهاجمه. ثم أخذ ينظر حوله بوقاحته المعهودة. فما لبث أن هرول نحو الموظفين -كي يترك لديهم انطباعاً حسناً من دون شكّ- فشرع يحدّث هذا، ويهمس في أذن ذاك، ويجامل ثالثاً، ويبتسم في وجه رابع، ويصافح خامساً، قبل أن يتوجه صوب السلَّم مرحاً. جرى السيد غولياديكين الأكبر خلفه، فاستطاع، لحسن حظه، أن يلحق به عند آخر درجة من أدراج السلَّم، ويمسكه من ياقة معطفه. بدا السيد غولياديكين الأصغر وكأنه أُخذ على حين غرة، فأخذ ينظر حوله بنوع من الحيرة.

- كيف أفهمك؟ همس قائلاً بصوت ضعيف.

- لو كنت شخصاً محترماً، يا سيدي العزيز، لتذكرت ما كان بيننا أمس من صداقة. قال بطلنا.

- آه، نعم. وماذا بعد؟ هل نمت جيداً؟

أخرسَ الغضب السيد غوليادكين القديم لحظة.

- أنا... نعم، نمت جيداً... لكن اسمح لي يا سيدي الفاضل أن أقول لك إنك تلعب لعبة غامضة تماماً...

- من يقول ذلك؟ أعدائي هم من يقول ذلك. أجاب بصوت متقطّع ذاك الذي يسمّي نفسه السيد غوليادكين، وتملّص من قبضة السيد غولياكين الضعيفة. ثم نزل الأدراج مسرعاً وهو يتطلع حوله، فلمّا أبصر عربة قادمة جرى نحوها، فركبها واختفى عن عينَي السيد غوليادكين الأكبر. بقي المستشار الرسمي وحيداً، مهجوراً من الجميع، فاقداً الأمل. نظر حوله، لكنه لم يبصر أية عربة. حاول أن يعود إلى الركض من جديد، لكن ساقيه لم تسعفاه. استندَ بظهره إلى عمود أحد المصابيح خائر القوى، منهوكاً، فاغراً فاه، منطوياً على نفسه، وبقي على تلك الحال وسط الرصيف لحظات طويلة. كان يبدو للسيد غوليادكين أن كل شيء قد ضاع...

الفصل التاسع

يبدو أن كل شيء، بما في ذلك الطبيعة نفسها، قد تسلّح ضدّ السيد غوليادكين؛ لكنه لم يركع ولم يُهزم؛ كان يدرك أنه لم يهزم. لكنه كان مستعداً للقتال. أخذ يحك إحدى يديه بالأخرى بحماس بعد أن تغلّب على دهشته الأولى حتى ليبدو لكل من يراه أنه لن يذعن. ومع ذلك، فإن الخطر كان قائماً، ملموساً؛ وإنه ليدرك ذلك أيضاً. لكن كيف يتعامل مع هذا الخطر؟ هذا هو السؤال. وتداعت أفكار السيد غوليادكين وهو لا يني يفكّر في الأمر: «أليس من الأفضل أن يبقى الأمر على ما هو عليه، وأن أتراجع بكل بساطة؟ طيب، وماذا بعدُ؟ طيب، لا شيء. سأنأى بنفسي، كما لو أني لست أنا، كما لو أني شخص آخر». وأردف قائلاً في نفسه... «سأكون كالمتفرّج: لست أنا، وانتهى الأمر. وسيفهم هو كل شيء، وقد يتراجع هو أيضاً، سيدور ويدور حول نفسه، ذلك الوغد، ثم يتراجع هو الآخر. نعم، هو ذاك، سوف أهزمه بالإذعان. فأين الخطر إذاً؟ وعن أي خطر نتحدث؟ كم أود لو يدلني أحد على مكمن الخطر في هذه القضية؟ إنها قضية تافهة، تافهة تماماً...».

وتوقف السيد غوليادكين عن محادثة نفسه فجأة. ماتت الكلمات على لسانه؛ أنّب نفسه على تلك الأفكار التي راودته، بل اتهمها

بالحقارة والجبن لأنها فكرت مثل تلك الأفكار. لكن قضيته لم تعرف طريقها نحو الانفراج رغم ذلك. أحس أن اتخاذ قرار ما في هذه اللحظة بالذات ضرورة قصوى؛ بل لقد كان مستعداً أن يدفع أي ثمن لمن يرشده إلى ما يجب أن يفعل بالضبط. لكن... لكن كيف يعرف القرار الناجع الذي يجب أن يتخذه بالضبط؟ ثم إن وقته لا يتّسع للتفكير في ذلك القرار. ولكي لا يضيع وقته أكثر نادى على حوذي كانت عربته تمرُّ بالقرب منه، فطلب منه أن يتوجه نحو بيته. «والآن، كيف حالك؟» قال مسائلاً نفسه، «كيف حالك الآن يا ياكوف بتروفيتش؟ وماذا ستفعل؟ ما الذي ستفعله الآن أيها الوغد الرعديد؟ بلغت بالأمور إلى أقصى ما يمكن أن تبلغه، وها أنت الآن تشكي وتبكي!». هكذا كان السيد غوليادكين يسخرُ من نفسه في اللحظة التي كانت العربة تمضي نحو بيته وتميل بجسده يمنة ويسرة. كانت سخريته من نفسه ونكأه لجروحه تشعره، في تلك اللحظة، بنوع من اللذة العميقة، لذة تكاد تبلغ مبلغ الشهوة الجسدية. «تصور، ماذا لو أن ساحراً ما، أو شخصاً ما مبعوث من طرف جهة رسمية ما موكول لها ذلك، قال لك: ما رأيك يا غوليادكين أن تضحّي إصبعاً من أصابع يدك اليمنى مقابل أن يسوّى الأمر تماماً، سيختفي غوليادكين الثاني إلى الأبد، وسترتاح، لكن سيكون عليك أن تعيش من دون إصبع يدك اليمنى... سأعطيه إصبع يدي اليمنى من دون شكّ، نعم سأعطيه إياه بلا تردد، نعم بلا تردد... ها، فليذهب إلى الجحيم كل هذا، صرخ المستشار الرسمي يائساً، إنني أسألك: ما فائدة هذا كله؟ أكان من الضروري أن يحدث هذا كله؟ أن يحدث هذا بالضبط وليس شيئاً آخر غيره؟ كانت الأمور تسير على أحسن ما يرام أول الأمر، كنا فرحين سعداء إلى أن... حدث ما حدث...

هل كان يجب أن يحدث ما حدث؟ . . . لا فائدة من الكلام، إن الكلام لا يحل المشاكل، وحده الفعل قادر على ذلك. نعم، يجب أن أتصرف».

وصل السيد غوليادكين إلى منزله وهو يكاد يتخذ قراراً ما. فتناول غليونه، وأخذ يدخن بكل شراهة وينفث سحائب دخانه يميناً ويساراً، ويذرع الغرفة جيئة وذهاب بخطوات واسعة. إنه مضطرب اضطراباً شديداً. أثناء ذلك أخذ بتروشكا يعدُّ المائدة. وأخيراً اتخذ السيد غوليادكين القرار الذي أراد، فرمى غليونه فجأة، وارتدى معطفه، وأخبر خادمه أنه لن يتناول العشاء في منزله وخرج. لحقَ به بتروشكا لاهثاً على السلَّم، وهو يمسك في يده القبّعة التي نسيها. أخذ منه السيد غوليادكين القبّعة، وخطر له لحظة أن يقول شيئاً يبرّر به نسيانه حتى لا يفسِّر بتروشكا ذلك النسيان تفسيراً خاطئاً -كأن يعتقد أن أموراً ما وقعت فجعلت سيده ينسى قبّعته مثلاً- وبما أن بتروشكا لم ينظر إليه وعاد أدراجه على الفور، فقد أعفى السيد غوليادكين نفسه، على الفور، من كل تبرير، ووضع قبّعته على رأسه، ونزل الأدراج، وهو يهمس بأن الأمور قد تتحسن، وأن القضية ستسوّى بطريقة أو بأخرى، إلا أن ذلك لم يمنع من أن يحس برعشة تسري في جسده بأكمله. نادى على عربة وطلب من الحوذي أن يمضي إلى منزل أندريه فيليبوفيتش. «ألا يكون من الأفضل أن أؤجّل الزيارة إلى الغد؟» قال السيد غوليادكين لنفسه وهو يهم بأن يشد حبل جرس منزل أندريه فيليبوفيتش، «ماذا سأقول له؟ إنها ليست قضية خاصة تتطلب أن أفاتحه فيها. إنها قضية تافهة، نعم، هي كذلك، بل هي تافهة تماماً، إنها تكاد لا تكون شيئاً يُذكر، بل هي لا شيء على الإطلاق. . . يكفي أن ننظر إليها عن كثب. . . أن ننظر

إلى كل تلك الظروف التي...». وفجأة شدّ السيد غوليادكين الحبل، فسُمع صوت الجرس، تلاه وقع أقدام تتقدم نحو الباب...
أخذ السيد غوليادكين يلعن نفسه على تعجُّله وعلى شجاعته في آن معاً. وتذكّر على الفور مشاكله ومواجهاته مع أندريه فيليبوفيتش، تلك المشاكل والمواجهات التي كاد ينساها بسبب مشاغله. لكن أوان الهروب كان قد فات، إذ سرعان ما فُتح الباب. من حسن حظه قيل له إن أندريه فيليبوفيتش لم يعد بعدُ، وأنه سيتعشّى خارج منزله. «أعرف أين يتعشى: إنه يتعشى قرب جسر إسماعيلوفسكي»، قال بطلنا في نفسه وهو يحس بارتياح كبير. وحين سأله الخادم عن اسمه كي يخبر سيده عند عودته، أجابه: «لا داعي أيها الرجل الطيب، سأعود مرة أخرى أيها الرجل الطيب». ونزل الأدراج فرحاً تماماً. حين صار في الشارع قرّر أن يصرف الحوذي فنقده أجره، فلمّا طلب منه هذا الأخير «بقشيشاً» قائلاً: «لقد انتظرتك كثيراً يا سيدي، ولم أتردد في قهر حصاني لخدمتك». أعطاه خمس كوبيكات أخرى عن طيب خاطر، ومضى.

«لا شكّ أن القضية قد بلغت مبلغاً لا يمكننا معه أن نتركها على ما هي عليه»، فكّر السيد غوليادكين وهو يمضي في طريقه، «ومع ذلك، إذا فكرنا بطريقة سليمة، فهل سنجد في القضية ما يدعو إلى القلق؟ لن أتعب من ترداد: ليس هناك ما يدعو إلى القلق. فلماذا كل هذا القلق إذاً وكل هذا الصراع مع النفس؟ لماذا أعذّب نفسي؟ لماذا أقتلها؟ ما وقع قد وقع، وما دام الأمر كذلك فما علينا إلا أن نفكر في القضية ملياً: هذا رجل... رجل أتى يحمل رسائل توصية توصي به خيراً... موظف يُقال إنه حسن السلوك، لكنه فقير وعانى في حياته الكثير من الآلام... ما أكثر مثل هذه الإخفاقات!... نعم ما

أكثرها، لكن الفقر ليس عيباً، والحال أني بعيد عن كل هذا. . . ولا علاقة لي به. ثم إن أشياء مثل هذه قد تحدث، تشاء الصدفة أحياناً أن يخرج إلى الوجود رجل يشبه رجلاً آخر تماماً، رجل شاءت الطبيعة نفسها أن يشبه رجلاً آخر كما تشبه قطرة ماء قطرة ماء أخرى، أن يكون نسخة طبق الأصل لذلك الرجل، فهل يمنعه هذا الشبه من أن يلتحق بالعمل في إدارة ما؟ القدر أراد ذلك، القدر وحده، فهل يحق لنا أن نرميه كما ترمى الخرق البالية؟ أن نمنعه من الوظيفة؟ هل من العدل أن نفعل ذلك؟ إنه رجل فقير، ضائع، وملاحَق، فكيف لا تعطف عليه القلوب؟ إن الإحسان يفرض علينا أن نحتضنه. نعم، هو ذاك، هو ذاك تماماً. ولكن، هل كل الرؤساء يفكرون بالطريقة نفسها التي تفكّر أنت بها، أيها الغبي؟! لحسن الحظ أنه وجد عند رؤساء إدارتنا آذاناً صاغية، لحسن الحظ أنهم احتضنوا ذلك المسكين ذو الحظ العاثر. . لنفرض أننا توأمان مثلاً، وأننا ولدنا توأمين هكذا كما نحن الآن، فما الغريب في ذلك؟ ليس في ذلك أية غرابة. . . سيتعود الموظفون على ذلك، أما من أتى إلى مكتبنا لغرض من أغراضه فلن يرى في ذلك أية وقاحة أو إهانة، بل إننا إذا تأمّلنا في الأمر ملياً فسنجد فيه ما يدعو إلى العطف: لقد أرادت مشيئة الرب المقدّسة أن تخلق مخلوقَين متشابهَين، متشابهَين تماماً، وتكرّمت إرادة رؤسائنا الراعية، لمّا أدركت كنه المشيئة الإلهية، بأن شغّلت التوأمَين معاً في الإدارة نفسها. . . صحيح. . . » أردف السيد غوليادكين وهو يسترد أنفاسه ويخفض صوته قليلاً، «صحيح أنه كان يستحسن أن لا يحدث شيء من هذا، وإن كان مثيراً للشفقة، وأن لا يكون هناك توأمان أيضاً. . . فليذهب كل ذلك إلى الشيطان. . . ما حاجتنا إلى كل هذا؟ وهل هناك حاجة خاصة مستعجلة تدعو إلى

ذلك؟ رباه! ماذا تفعل بنا الشياطين؟... إن سلوكه وطبعه النزق، إن عيوبه، إن نذالته، وتزلّفه، لتجعله، لتجعل هذا الاسم المطابق تماماً لمسمّاه، قادراً على أن يتصرف ويُقدم على ما يُسيء إلى سمعتي، يا له من وغد حقير!... عليك أن تراقبه جيداً... آه، اللعنة، يا لها من عقوبة سماوية!... طيب، ولماذا ينبغي أن تراقبه؟ لا أعتقد أنه ينبغي أن أراقبه؟ صحيح أنه وغد، ولكن إذا كان هو وغداً، فأنت رجل شريف... سيقول الناس هذا الغوليادكين رجل وغد فلا تعيروه اهتماماً، لا تخلطوا بينه وبين الآخر، الآخر رجل شريف، تقي، هادئ، ليس بالحقود، كفء في عمله وجدير بأن يُرقّى، هذا ما سيقولون عني... نعم، طيب، ولكن... ماذا إذا... ماذا إذا خلط الناس بيننا، كل شيء ممكن... آه، يا إلهي... إنه سينتحل شخصيتي، سيحلّ مكاني ذلك الوغد، وسيلقي بي كما تُلقى الخرقة البالية، دون أن يفكر لحظة أن الإنسان لا يمكن أن يكون خرقة بالية... آه، يا إلهي، ما هذه المصيبة، ما هذه المصيبة!».

مضى السيد غوليادكين في طريقه وهو يتأمّل ويشتكي، دون أن يعي الطريق الذي يسلك ولا المكان الذي يقصد. ولم يستعد وعيه بما حوله إلا حين وصل إلى شارع نيفسكي واصطدم بأحد المارة اصطداماً عنيفاً. اعتذر السيد غولياذكين دون أن يرفع بصره. ولم يرفعه إلا بعد أن غمغم الرجل الذي اصطدم به بكلام غير طيب، وهو يبتعد عنه. حين رفع السيد غولياذكين رأسه، رأى أنه أمام المطعم الذي استراح فيه قبيل ذهابه إلى تلك السهرة في منزل أولسوفي إيفانوفيتش. سرعان ما أحس بطلنا بقرصات في معدته، فتذكّر أنه لم يتناول عشاءه، وأنه غير مدعو لأي عشاء في أي مكان، فصعد أدراج المطعم على الفور كي يأكل لقمة على عجل. رغم أن

الأسعار في هذا المطعم كانت غالية، فإن السيد غوليادكين لم يأبه بذلك، لأن الوقت لا يسعفه الآن كي يتوقف عند مثل هذه الأشياء التافهة. في قاعة تتلألأ فيها الأضواء، وأمام بسطة فوقها أصناف مختلفة ومتنوعة ممّا يحلو للناس أن يتناولوه في مطعم، اجتمع عدد لا يستهان به من الزبائن. كان القائم على البسطة لا يكاد يجد وقتاً لخدمة الزبائن، إذ كان يسكب الشراب، ويقدِّم الأطباق، ويتقاضى ثمن الوجبات في الوقت نفسه. انتظر السيد غوليادكين أن يأتي دوره، فمدَّ يده إلى فطيرة صغيرة وتناولها. ومضى إلى أحد الأركان حيث انهمك في أكل فطيرته مولياً ظهره للزبائن، ولمّا التهمها توجّه نحو البسطة، فوضع الطبق حيث ينبغي أن يوضع. ولأنه كان على علم بثمن الفطيرة فقد نقد القائم على البسطة قطعة نقدية من عشر كوبيكات وهو ينظر إليه، وكأنه يقول له: انظر، ها هو ذا الطبق، وها هو ذا ثمن الفطيرة...

- روبل وعشر كوبيكات، قال القائم على البسطة بنبرة حادة.

اندهش السيد غوليادكين أيّما اندهاش.

- ماذا قلت؟ إنني لم آخذ إلا فطيرة واحدة.

- بل إحدى عشرة فطيرة، هذا هو عدد الفطائر التي أخذتها. ردّ النادل متأكداً كل التأكد ممّا يقول.

- أعتقد... أعتقد أنك على خطأ... فأنا لم آخذ إلا فطيرة واحدة.

- لقد عددت الفطائر التي أخذتها. إحدى عشرة، هذا هو عددها. وما دمت قد أخذتها فعليك أن تؤدّي ثمنها. نحن لا نقدّم الطعام هنا بالمجان...

صُعق السيد غوليادكين. «ما الذي يحدث هنا؟ هل سُحرت؟»

أثناء ذلك، كان النادل ينتظر قرار السيد غوليادكين. وكان الزبائن قد شرعوا يتحلقون حوله. فلم يجد السيد غوليادكين بدّاً من أن يدس يده في جيبه ليخرج قطعة فضية بروبل واحد، كي يؤدّي ثمن الفطائر على الفور، ويبتعد. «فليكن، ما دام يقول إحدى عشرة فطيرة فهي إحدى عشرة فطيرة»، قال في نفسه وقد احمرّ وجهه تماماً، «ثم ما الغرابة في أن يأكل الانسان إحدى عشرة فطيرة؟ جاع رجل فأكل إحدى عشرة فطيرة، هنيئاً مريئاً... ليس في ذلك ما يثير الدهشة أو يبعث على الضحك...». وفجأة أحس وكأن إبرة وخزته، فما أن رفع بصره حتى أدرك سرّ ما حدث على الفور، أدرك سرّ السحر وحقيقته... على باب الغرفة المجاورة، خلف ظهر النادل مباشرة وقبالة السيد غوليادكين، على باب تلك الغرفة التي كان السيد غوليادكين قد حسبها، حتى تلك اللحظة، مرآة، كان يقف رجل... إنه هو نفسه من يقف هناك... السيد غوليادكين نفسه... ليس السيد غوليادكين القديم، ليس بطل قصتنا هذه، وإنما غوليادكين الآخر، غوليادكين الجديد. بدا غوليادكين الآخر منشرحاً. كان يبتسم للسيد غوليادكين، للسيد غوليادكين الأول، ويلوح له بيده، ويغمزه، ويخطو في مكانه خطوات قصيرة، ويكردح، وينظر إليه وكأنه يستعد لأن يهرب، لأن يمرق إلى الغرفة المجاورة، ومنها إلى الشارع بأسرع ما يستطيع... بعدها لن ينجح في اللحاق به أبداً. كان لا يزال يمسك في يده آخر قطعة من الفطيرة العاشرة، فإذا به يلتهمها أمام عينَي السيد غوليادكين وهو يتلذذ بالتهامها بحركات من لسانه. «لقد حلّ ذلك النذل مكاني إذاً»، قال السيد غوليادكين في نفسه وقد احمرّ وجهه من الاضطراب، «لم يخجل من أن يفعل ذلك على مرأى من الجميع. هل يرونه؟ يبدو أنهم لم يلحظوا وجوده...». ألقى السيد غوليادكين الروبل على

البسطة بسرعة، وانسلَّ من بين الجمهور متوجِّهاً نحو الشارع دون أن يعير ابتسامة القائم على البسطة الخبيثة المنتصرة أي اهتمام. «شكراً له لأنه أبقى على القليل من كرامتي»، قال السيد غولياذكين في نفسه، «فليبارك ذلك اللص، وليبارك القدر أيضاً، لأن المشكل حُلّ، أما ذلك النادل فقد عاملك بفظاظة لأن ذلك من حقّه، أليس من حقّه أن يطالب بروبل وعشر كوبيكات؟ ألم يقل أن المطعم لا يقدِّم الوجبات بالمجان؟ نعم، من حقّه أن يفعل ذلك، ولكن ألم يكن من الممكن أن يعاملني ذلك الوغد بأدب؟».

كان السيد غولياذكين يحدّث نفسه بذلك الكلام وهو ينزل أدراج المطعم. لكنه ما إن بلغ آخر الأدراج حتى تسمّر في مكانه، واحمرّ وجهه فجأة إلى درجة أن عينَيه دمعتا، ذلك لأنه شعر بكرامته وقد امتهنت. بقي متسمّراً في مكانه لحظة، ضرب الأرض بعدها بقدمه عازماً على فعل شيء ما، وقفز من الدرج إلى الرصيف، وهرع نحو منزله لاهثاً، لا يلوي على شيء، غير عابئ بالتعب. حين وصل إلى منزله جلس على الديوان، دون أن يكلّف نفسه عناء تغيير ثيابه وحشو غليونه كما العادة، وتناول المحبرة والريشة، وورقة للكتابة، وشرع يخط ما يلي بيد مرتعشة بسبب ما كان يفتعل بداخله من اضطراب:

السيد ياكوف بتروفيتش،

ما كنت لأكتب إليك لولا أن الظروف وسلوكك قد أرغماني على ذلك يا سيدي. صدّقني: إن الضرورة وحدها هي ما يدفعني إلى أن أدخلَ معك في شروح مثل هذه، لذلك أرجو أن لا تعتقد أني تعمّدت أن أكتب إليك بنية أن أهينك، يا سيدي، وإنما بدافع قوي من الظروف التي باتت تربط بيننا.

«يبدو لي أن البداية جيدة مهذبة، ولا تخلو مع ذلك من قوة وصرامة. . . لا شيء فيها ممّا قد يصدمه، فيما يبدو. . . ثم إن ذلك من حقي. . .» قال السيد غوليادكين لنفسه وهو يعيد قراءة ما كتب.

إن سلوكك الغريب والداعي للاستغراب في تلك الليلة العاصفة، بعد المعاملة الفظة الوقحة التي عاملني بها أعدائي الذين لن أذكر أسماءهم احتقاراً لهم، يا سيدي، كان نواة كل ما هو قائم بيننا من سوء تفاهم الآن. إن رغبتك الملحّة وإصرارك على أن تتدخل في حياتي العامة والخاصة، يا سيدي، لشيء يتجاوز الحدود التي تفرضها أبسط مبادئ الأدب وقواعد التعامل بين الناس في المجتمع. وأعتقد أني لا أحتاج إلى أن أذكّرك، يا سيدي، بسطوك على ملفاتي وعلى اسمي الخاص من أجل الحصول على رضا الرؤساء -ذلك الرضا الذي لا تستحقه-. كما لا أحتاج إلى أن أذكّرك برفضك المقصود والمهين لكل شرح يتطلبه ما أقدمت عليه وتعمدته. وأظن أن لا حاجة إلى أن أذكّرك، أخيراً، بتصرفك الغريب، بل الغامض، في المطعم. لست مغتاظاً على روبل ضاع مني دون مقابل، ولكني مغتاظ من اعتدائك السافر على كرامتي، وذلك بحضور عدد من الأشخاص الذين، وإن كنت لا أعرفهم، فهم ينتمون إلى الطبقة الراقية بلا شكّ. . .

تساءل السيد غوليادكين في نفسه: «هل بالغت؟ وهذه الإشارة إلى الطبقة الراقية مثلاً، أليست مهينة؟ لكن لا بأس. . . لا بدَّ من شيء من الحزم، ومع ذلك بإمكاني أن ألجأ إلى شيء من المداهنة في الأخير. سأرى ماذا أستطيع أن أفعل من أجل ذلك. . .».

ما كنت لأسمح لنفسي أن أزعجك برسالتي هذه، يا سيدي، لولا اقتناعي العميق بأن نبل قلبك واستقامة طبعك سيدلّانك على الوسائل الكفيلة بأن تصلح ما أفسدت، وبأن تعيد الأمور إلى ما كانت عليه.

وإني لأسمح لنفسي، وكلي أمل، أن أعتقد أنك لن تفسّر رسالتي هذه تفسيراً يجرح شعورك، وأن لا ترفض، في الوقت نفسه، أن تبعث إليّ برسالة مع خادمي تشرح فيها هذه القضية.

وفي انتظار جوابك يشرّفني، يا سيدي،

أن أكون خادمك المتواضع

ي. غوليادكين.

«حسناً... ها قد سوينا القضية: وقد تطلّب مني ذلك أن أصل حدّ مراسلته. لكن، من المخطئ؟ إنه هو، هو من ألجأني إلى ضرورة مفاتحته في القضية كتابةً. إنني على حق في ما أقدمت عليه...».

أعاد السيد غوليادكين قراءة الرسالة مرة أخيرة، ثم طواها، وختمها ونادى بتروشكا. دخل بتروشكا غاضباً مثقل العينَين بالنعاس على عادته.

- خذْ هذه الرسالة أيها الرجل الطيب... هل فهمت؟

لم يحرك بتروشكا ساكناً.

- خذها واحملها إلى الوزارة، واسأل هناك عن سكرتير القسم[1] فاخرمابيف المكلّف بالمداومة اليوم. هل فهمت؟

---

(1) تقع مرتبة سكرتير القسم في الرتبة الثانية عشرة من لائحة المراتب التي سبق أن أشرت إليها، وهي مرتبة متواضعة جداً.

- فهمت.

- «فهمت»؟ ألا تستطيع أن تقول: فهمت يا سيدي؟ طيب... اسأل عن فاخرماييف، وقل له: اسمع، سيدي يبعث لك بتحياته ويرجوك أن تبحث في سجلّ العناوين الخاص بالموظفين في إدارتنا عن عنوان المستشار الرسمي غوليادكين...

لم يقل بتروشكا شيئاً، وخيل للسيد غوليادكين أنه رآه يبتسم.

- طيب، إذاً اسأله عن عنوانه كما قلت لك، وقل له: أين يسكن الموظف الجديد غوليادكين من فضلك؟

- حاضر.

- اسأله عن العنوان، واحمل هذه الرسالة إلى ذلك العنوان؛ هل فهمت؟

- فهمت.

- إذا وصلت إلى ذلك العنوان... أي العنوان الذي ستحمل إليه الرسالة، ورأيت أن السيد الذي ستحمل إليه الرسالة، أعني ذلك الغوليادكين... لماذا تضحك أيها الغبي؟

- أنا؟ لماذا أضحك؟ إنه أمر لا يعنيني. أنا لست في حاجة إلى الضحك...

- طيب، إذاً... إذا سألك ذلك السيد عن حال سيدك، وعن صحّته، وأخذ يلقي عليك مجموعة من الأسئلة، فلا تجبه، واكتفِ بالقول عند أي سؤال يطرحه عليك: سيدي بخير. وقل له: إن سيدي يرجوك أن تبعث له بجواب مكتوب. أفهمت؟

- فهمت.

- طيب، قل له كما قلت لك، قل له سيدي بخير، وقل له

أيضاً: سيدي مدعو لزيارة بعض الأصدقاء، ويرجوك أن ترد عليه بجواب مكتوب. أفهمت؟

- فهمت.

- طيب، اذهب إذاً. آه من هذا الغبي كم يتعبُني! إنه لا يجيد غير السخرية. ممَ يضحك طوال الوقت؟ آه من كل هذه المشاكل التي هوت على دماغي دفعة واحدة، آه منها... لكن، من يدري؟ فقد تكون الخاتمة حسنة... سيضيع هذا الوغد ساعتين على الأقل في التسكُّع، الرب وحده يستطيع أن يعرف أين يذهب. يستحيل أن تبعث به إلى حيث تريد فينفّذ دون أن يتسكّع قبل أن يذهب إلى حيث بعثت به. آه من هذه المشاكل، آه ثم آه.

كان بطلنا يشعر شعوراً حاداً بتلك المصائب التي تعترضه، لذا قرر أن يهدئ من روعه قليلاً على امتداد ساعتَين، ريثما يعود بتروشكا. أمضى ساعة بأكملها يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ثم أخذ يدخّن، لكنه سرعان ما ترك غليونه وحاول أن يقرأ، ثم اضطجع على الأريكة وتناول غليونه مرة أخرى، إلا أنه سرعان ما تركه وعاد يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. كان يريد أن يفكر، غير أنه كان عاجزاً تماماً عن أن يفكر في شيء محدّد. أحس السيد غوليادكين أن عجزه عن التصرف قد بلغ أقصاه، فقرر أن يتخذ بعض الإجراءات. «لن يعود بتروشكا قبل أن تنقضي ساعة أخرى»، قال في نفسه، «بإمكاني أن أترك المفتاح عند بوّاب العمارة، وخلال هذا الوقت سأقوم... نعم سأقوم بتحرياتي بنفسي». أسرع يستعد للقيام بتحرياته الخاصة، فأخذ قبعته وغادر غرفته، وأغلق الباب بالمفتاح، ثم مضى إلى البواب فأودعه المفتاح وأعطاه عشر كوبيكات -مع أنه ليس من عادته أن يكون كريماً- ثم توجّه إلى حيث عزم. توجه أول الأمر إلى جسر

إسماعيلوفسكي الذي لم يصل إليه إلا بعد نصف ساعة. ثم دخل إلى فناء عمارة يعرفها حقّ المعرفة، ورفع عينيه نحو نوافذ منزل مستشار الدولة بيرنديف. كانت جميع نوافذ المنزل مظلمة إلا ثلاثاً أسدلت عليها ستائر حمراء. «يبدو أن منزل أولسوفي إيفانوفيتش خالٍ من المدعوين اليوم»، قال السيد غوليادكين في نفسه، «وأن الأسرة كلها لم تبرح البيت». بقي السيد غوليادكين واقفاً في الفناء لَحظات طويلة، كاد بعدها أن يقدم على تنفيذ قرار ما. لكنه سرعان ما أحجم عن ذلك وعاد إلى الشارع وهو يحرك يده بإشارة تعبِّر عن تخلّيه عما كان قد عزم عليه. «لا... ليس هذا هو المكان الذي كان ينبغي أن أجيء إليه. ماذا سأفعل هنا؟... لا، من الأفضل أن... نعم، من الأفضل أن أقوم بتحرياتي بنفسي». لمّا اتخذ السيد غوليادكين هذا القرار اتجه نحو مكتبه. لم تكن المسافة قصيرة. كانت الطريق نحو المكتب مثقلة بالوحل، وكان الثلج يسقط ندفاً. لكن بطلنا بدا وكأنه لم يعبأ في تلك اللحظات بتلك العقبات. صحيح أنه تبلّل تماماً، واتسخت ثيابه بالوحل بشكل كبير، لكن ذلك «لا يهم، المهم أن أبلغ هدفي». كان السيد غوليادكين يوشك أن يبلغ هدفه بالفعل، إذ سرعان ما أبصر مبنى الوزارة الضخم الذي يلوح من بعيد وكأنه كتلة ضخمة قاتمة. «توقف!» قال السيد غوليادكين في نفسه، «إلى أين أنت ذاهب؟ وماذا سأفعل هناك؟ هبني توصلت إلى عنوانه، قد يكون بتروشكا توصل إليه قبلي وعاد إلى المنزل. إنني لا أقوم إلا بتضييع وقتي الثمين، نعم، إنني أبدّد وقتي الخاص، ومن أجل لا شيء. على كل حال، لا يهم، ما زال بوسعي أن أتدارك الموقف... لكن، ألا يكون من المفيد أن أذهب إلى فاخرماييف؟ لا، لا، سأذهب إليه فيما بعد... وهل كان هناك داعٍ إلى أن أخرج من

البيت؟ لا، طبعاً، لم يكن هناك أي داعٍ، ولكنه طبعي اللعين، هكذا أنا، مستعجل على الدوام، بداعٍ أو لغير داعٍ... همم... ما الساعة الآن؟ لا شكّ أنها تجاوزت التاسعة. قد يكون بتروشكا عاد ولم يجدني في المنزل... لم يكن خروجي من البيت إلا حماقة... آه، يا لها من حماقة!».

بعد أن اعترف بطلنا لنفسه بأن مغادرته للمنزل كانت مجرد حماقة، عاد إلى بيته في شارع الدكاكين الستة راكضاً. حين وصل إليه متعباً مفرغاً تماماً، أخبره البواب أن بتروشكا لم يعد بعد. «اللعنة، هذا ما توقعته تماماً»، قال بطلنا في نفسه، «مع أن الساعة قد تجاوزت التاسعة فعلاً. يا له من وغد! إنه لا يتردد في السكر حين تسنح له الفرصة، يا إلهي، ما هذا اليوم المشؤوم!». توجّه السيد غوليادكين نحو باب منزله وهو لا يتوقف عن التفكير والتشكي، فتحه، أشعل شمعة، خلع ثيابه، تناول غليونه واضطجع على الديوان متعباً مرهقاً مكدوداً محطّماً، وأخذ ينتظر بتروشكا. كانت الشمعة تلقي بضوئها المتمايل الشاحب على الجدران... وكان السيد غوليادكين ينظر إليها وهو يفكر، وبقي على تلك الحال إلى أن نام نوماً ثقيلاً.

استيقظ من نومه متأخّراً. كانت الشمعة قد أوشكت على أن تذوب تماماً، فأخذت تنوس وتبعث بدخانها في أرجاء الغرفة. وقف السيد غوليادكين من مكانه منتفضاً وقد تذكر كل شيء. سمع شخير بتروشكا قوياً وراء الستار. هرع السيد غوليادكين نحو النافذة، ما من ضياء في أي مكان، فتح كوة التهوية... لا شيء إلا الصمت المطبق، كانت المدينة لا تزال نائمة، كأنها ميتة. لا شكّ أن الساعة لم تكن قد تجاوزت الثانية صباحاً أو الثالثة بأقصى تقدير... ودقّت

الساعة خلف الستار في تلك اللحظة بالذات دقّتين. فهرع السيد غوليادكين نحو الستار الذي ينام بتروشكا خلفه.

استطاع بعد لَأيٍ أن يوقظه ويجلسه. في تلك اللحظة انطفأت الشمعة تماماً. مرّت عشر دقائق قبل أن يعثر السيد غوليادكين على شمعة أخرى فيشعلها. أثناء ذلك، كان بتروشكا قد عاد إلى النوم ثانية. «استيقظ أيها الوغد، استيقظ أيها الحقير» قال السيد غوليادكين وهو يحركه. نجح، بعد نصف ساعة من الجهد المتصل، في أن يوقظه، فجرّه إلى الجهة الأخرى من الستار. عندئذٍ لاحظَ السيد غوليادكين أن بتروشكا كان قد تعتعه السكر، كما يُقال.

- يا لك من كسول! يا لك من وغد! صرخ السيد غوليادكين، هل تريد أن تقتلني؟ يا إلهي، أين أضاع هذا الوغد الرسالة؟ ماذا صنع بها؟ لماذا كتبتها؟ وهل كنت في حاجة إلى أن أكتبها؟ يا لغبائي، هل كنت في حاجة إلى أن أتشبّث بكبريائي؟ هذا ما صنعته بك أنفتك أيها الوغد... أنت، أنت أيها اللص، قل لي أين الرسالة؟ لمن أعطيتها؟...

- لم أعطها لأحد... لم تكن معي أية رسالة.

بلغ الحنق بالسيد غوليادكين أقصاه.

- اسمع يا بيتر... استمع قليلاً... استمع إليّ جيداً...

- ها أنا ذا أسمع...

- أين كنت؟ أجب...

- أين كنت؟ كنت في رفقة طيبة... ماذا تريد مني؟

- آه، يا إلهي... قل لي أين ذهبت أول الأمر؟ هل ذهبت إلى مبنى الوزارة؟ استمع إليّ يا بيتر... هل أنت سكران؟

- سكران؟ اقتلني إذا كنت قد شربت... لم أشرب ولو قطرة واحدة...

- لا، لا، لا مانع من أن تسكر... لم أسألك هذا السؤال إلا عرضاً. لا مانع عندي من أن تكون سكران... بل إنه لشيء حسن أن تكون سكران يا بتروشكا... ليس لدي أي اعتراض على ذلك... ربما نسيت، ولكنك ستتذكر. حاول أن تتذكر. لقد ذهبت إلى الموظف فاخرماييف... هل ذهبت أم لا؟

- لم أذهب، ثم إنه لا وجود لأي موظف بهذا الاسم... نعم، وإنني مستعد لأن...

- لا، لا، يا بيتر، لا، لست غاضباً منك... إطلاقاً... إني أتفهّم، أتفهّم تماماً... لا شكّ أن الجو بارد ورطب، ويشجّع على أن نشرب قليلاً... هو ذاك... لست غاضباً أيها الرجل الطيب... لقد شربت اليوم أنا أيضاً... هيا، اعترف، حاول أن تتذكر، قل لي هل قابلت الموظف فاخرماييف؟

- طيب، ما دام الأمر كذلك، فأنا أقسم أني ذهبت إليه... نعم، وإنني لمستعد لأن...

- طيب، طيب يا بتروشكا، لست غاضباً... ها أنت ذا ترى أني لست غاضباً... واصل بطلنا يخاطب خادمه مظهراً ثقته به، مبتسماً له، مربّتاً على كتفه، كي يلين ويعترف... هيا... هيا، اعترف أنك شربت قليلاً أيها الوغد، قليلاً فقط، شربت مقابل عشرة كوبيكات فقط، أليس كذلك؟ يا لك من وغد... طيب، لا بأس... لست غاضباً أيها الرجل الطيب، لست غاضباً...

- لا، لست وغداً... لم أفعل شيئاً، زرت بعض الناس

الطيبين. . . هذا كل ما فعلت، لست وغداً. . . ولم أكن وغداً في يوم من الأيام. . .

- لا، لا، يا بتروشكا، استمع إليّ. . . استمع جيداً. . . لم أقصد الإساءة إليك. . . لم أنعتك بالوغد لأشتمك، لقد نعتك بذلك كي أسلّيك. . . يجب أن تعلم يا بتروشكا أن من الناس من يسعد حين تنعته بالوغد أو اللئيم، لأن ذلك يجعله يعتقد أنه لا يُخدع، بل إن من الناس من يحب أن ينعت بمثل هذه النعوت. . . هيا، هيا، صارحني الآن يا بتروشكا، ولا تخفي عني شيئاً، صارحني كصديق. . . هل ذهبت إلى الموظف فاخرماييف، وهل أعطاك العنوان؟

- نعم أعطاني العنوان، نعم أعطاني العنوان أيضاً، إنه موظف طيب. قال لي: سيدك طيب، طيب جداً، سلّم لي عليه، واشكره، وقل له إني أحبه، وأحترمه، وقال لي أيضاً: لأن سيدك رجل طيب، فأنت أيضاً فتى طيب يا بتروشكا. . . هذا ما قاله. . .

- آه، يا إلهي، والعنوان؟ ماذا عن العنوان يا يهوذا الملعون؟ (لم ينطق السيد غوليادكين بهده الكلمات الأخيرة إلا همساً).

- العنوان؟ أعطاني العنوان. . .

- أعطاك العنوان؟ طيب، قل لي أين يسكن غوليادكين، المستشار الرسمي غوليادكين؟

- قال لي، غوليادكين يسكن في شارع الدكاكين الستة. قال لي اذهب إلى شارع الدكاكين الستة، على اليمين، ثم اصعد السلَّم حتى الطابق الثالث، هناك تجد غوليادكين، هذا ما قاله لي. . .

- يا لك من خبيث، يا لك من لصّ. صرخ السيد غوليادكين وقد فقد صبره تماماً، إنك تتكلم عني، عني أنا. أما أنا فأكلمك عن غوليادكين آخر أيها الخبيث. . .

- طيب، كما تحب، لك ما تشاء...

- والرسالة؟ ماذا عن الرسالة؟...

- أي رسالة؟ ليس هناك أي رسالة، لم أرَ أي رسالة.

- أين الرسالة؟ ماذا فعلت بها يا حيوان؟

- الرسالة أعطيتها، أعطيتها. قال لي سلّم على سيدك، واشكره، إنه رجل طيب، سيدك رجل طيب، هذا ما قاله لي. سلّم على سيدك قال لي...

- من؟ من قال ذلك؟ أهو غوليادكين من قال ذلك؟

التزم بتروشكا الصمت لحظة، ثم أخذ يبتسم وهو يحدّق في عينَي سيده.

- اسمع يا لصّ... قال غوليادكين وهو يكاد يختنق من الغضب، قل لي ماذا صنعت بي؟ ماذا صنعت بي؟ هل تريد أن تقتلني يا خبيث! هل تريد أن تقطع رأسي يا يهوذا!

- الأمر لك... أما أنا... قال بتروشكا بصوت متبرّم وهو يعود إلى مكانه خلف الستار.

- عُد إلى هنا، عُد يا لصّ!...

- لا، لن أعود، أبداً لن أعود، أفضّل أن أذهب عند الناس الطيبين... الناس الطيبون يعيشون عيشة طيبة، ولا يغشون... الناس الطيبون لا يكونون مزدوجين أبداً، لا يكونون اثنين في الوقت نفسه...

أحسَّ السيد غوليادكين أن ذراعيه وساقيه قد تجمّدتا، وأنه يكاد يختنق...

- تماماً... إنهم لا يكونون اثنين في الوقت نفسه أبداً، ولا يسيئون إلى الرب وإلى الناس الطيبين...

- هل أنت سكران يا وغد! عُد إلى النوم الآن، وغداً سيكون لي معك كلام آخر.

قال السيد غوليادكين بصوت واهن. أما بتروشكا فاضطجع على سريره الذي أحدث قرقعة حين تهاوى عليه، وأخذ يغمغم بكلام غير مفهوم، ويتثاءب ويتمطّى، ثم شرع يغط بعد أن نام نوم الأبرياء، كما يُقال. بدا السيد غوليادكين أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. كان سلوك خادمه وتلميحاته الغريبة الخفية -خفية إلى درجة أنها لا تدعو إلى الغضب، خاصة أنها صادرة عن سكران- قد قلبت كيانه. «ماذا دهاني حتى أيقظته في قلب الليل وأخذت أحاوره وهو سكران»، قال السيد غوليادكين لنفسه وهو يرتعد جراء تأثير إحساس مؤلم، «ماذا يمكن أن نتوقع من رجل سكران؟ إنه لا يتوقف عن الكذب. إلى ماذا كان هذا اللص يلمّح؟ يا إلهي، لماذا كتبت تلك الرسالة؟ لست إلا مجرماً قاتلاً، لماذا أقدمت على هذا الانتحار؟ لماذا لم ألتزم الصمت؟ هل كان من الضروري أن تكتب كل ما كتبته؟ إنك الآن على حافة الهاوية، بل في قعر الهاوية... ألم يكفك أنك صرت خرقة بالية فأخذت تتبجح بكبريائك، وتتحدث عن شرفك الذي أسيء إليه؟... أتريد أن تنقذ شرفك يا قاتل نفسه؟...».

هكذا كان السيد غوليادكين يخاطب نفسه وهو متهالك على ديوانه لا يجرؤ على أن يتزحزح عنه من شدة الرعب. وفجأة أثار انتباهه شيء ما. خاف أن لا يكون ذلك إلا وهماً أو سراباً من وحي خياله، فمدَّ يده نحو ذلك الشيء آملاً خائفاً، ومفعماً بفضول غريب... لا، ليس سراباً ما تراه عيناه، ليس وهماً، إنها رسالة، نعم رسالة، رسالة بلا أدنى شك، رسالة موجّهة إليه... تناول السيد غوليادكين الرسالة من على المائدة وقلبه يخفق بشدة. «لا شكّ أن هذا

اللص هو من حملها»، قال في نفسه، «ووضعها هنا، ثم نسيها تماماً، نعم، لا شكّ أن هذا ما حدث، لا شكّ أن الأمور حدثت على هذا النحو...». كانت الرسالة من الموظف فاخرماييف، وهو زميل كان في ما مضى صديقاً للسيد غوليادكين. «هذا ما خمنته»، قال بطلنا في نفسه، «كما أخمن كل ما تتضمنه هذه الرسالة». إليكم نص الرسالة:

عزيزي السيد ياكوف بتروفيتش،

إن خادمك سكران، ولا يمكن أن يتوقع المرء أي شيء معقول من رجل سكران: لهذا آثرت أن أرد عليك كتابة. وأسارع مؤكداً أن المهمة التي كلّفتني بها، أقصد إيصال الرسالة إلى الشخص الذي نعرفه جميعاً، ستنفّذ بأمانة وفي الوقت المطلوب. إن هذا الشخص الذي تعرفه جيداً، والذي هو اليوم واحد من أصدقائي، والذي لن أذكر اسمه (لأنني لا أريد أن أسيء إلى سمعة إنسان بريء) يسكن معنا في عمارة كارولين إيفانوفنا، في الغرفة نفسها التي تعوّد أن يسكنها ذلك الضابط في سلاح المدفعية القادم من تامبوف، أيام كنت واحداً منا. أخبرك عرضاً أنك تستطيع أن تلقى من راسلته حيثما يوجد الناس الشرفاء المخلصون، وهو ما لا يلتزم به بعض الأشخاص. أما صلتي بك فقد عقدت العزم على أن أضع لها حدّاً بمجرد توصّلك بهذه الرسالة، بعد أن تبيّن لي أنه يستحيل أن تستمر على ما كانت عليها من صدق وودّ. لذلك أرجوك، سيدي العزيز، أن تبعث إليّ فور توصلك بهذه الرسالة بما لي عليك من دين، وقدره روبلان هما ثمن موسى للحلاقة مستوردة من الخارج كنت قد بعتها لك ديناً قبل سبعة أشهر، إذا لم تخنك ذاكرتك، وذلك أيام كنا نسكن جميعاً عند كارولين إيفانوفنا التي أكنُّ لها كل الاحترام. وما

كنت لأعاملك بمثل هذا السلوك، لولا أنك فقدت، في رأي بعض الأشخاص، كرامتك وسمعتك، وأصبحت خطراً على سلوك الناس الأبرياء الأطهار. إن الحياة لمليئة بالأشخاص الذين يعيشون بعيداً عن طريق الحق، ولا يتورعون عن الكذب، والتظاهر بغير حقيقتهم. أما دفع الإهانة عن كارولين إيفانوفنا تلك المرأة الشريفة سليلة إحدى الأسر الأجنبية النبيلة، تلك المرأة التي لم يُعرف عنها إلا السلوك القويم والتي حافظت على شرفها رغم تقدمها في السنّ قليلاً، فسيتولّاه رجال قادرون على ذلك، وقد رجاني بعضهم أن أبلغك ذلك من طرفهم في رسالتي هذه. ومهما يكن من أمر فستعرف كل شيء بتفصيل في وقته وحينه، هذا إذا لم تكن قد علمته بعد، وذلك رغم أنك أهنت، بحسب ما يتناقله الناس العقلاء في كل مكان في العاصمة، وأن الوقت قد أسعفك كي تجمع أخباراً شتى متعلقة بما تعرضت له، من مصادر مختلفة. لا يسعني، في ختام رسالتي هذه، يا سيدي، إلا أن أبلغك أن الشخص الذي تعرفه، والذي لن أذكر اسمه هنا لأسباب أخلاقية، يحظى بكثير من الاحترام من العقلاء، لأنه يتميز بطبع طلق وطيب، جعله يكسب تقدير رؤسائه وزملائه. إنه شخص مخلص لكلمته، وفيّ لصداقته وأصدقائه، ولا يغتاب من تربطه بهم علاقات أخوية.

وإنني لأبقى، رغم كل ذلك، خادمك المتواضع

ن. فاخرماييف.

حاشية: اطرد خادمك. إنه سكّير، وسيسبب لك متاعب كثيرة. وشغّل بدلاً منه أوستاش الذي كان يخدمنا فيما مضى والذي هو الآن عاطل عن العمل. إن خادمك ليس سكيراً فحسب، وإنما لص

أيضاً، فقد باع كارولين إيفانوفنا في الأسبوع الماضي كيلوغراماً من قطع السكّر، وهو ما لم يكن ليتاح له لولا أنه سرقه من منزلك خفية، بكمية قليلة وكلما سنحت له الفرصة. وإنني لأخبرك بذلك لأنني حريص على مصلحتك، وذلك رغم أن بعض الأشخاص لا يجيدون إلا إهانة الناس وخداعهم، لا سيما الشرفاء الطيبون، بل يغتابونهم ويشوّهون صورتهم لا لشيء إلا الحسد والعجز عن أن يكونوا مثلهم - ف.

بقي بطلنا جالساً على ديوانه لا يتحرك لحظات طويلة بعد انتهائه من قراءة رسالة فاخرمايف. لكن ضياء جديداً سرعان ما بدأ يبدد ذلك الضباب العجيب المبهم الذي خيّم على سمائه منذ يومين، فأخذت الأمور تتضح له شيئاً فشيئاً. . . حاول أول الأمر أن يترك ديوانه كي يسير في الغرفة بضع خطوات، عسى أن يحس بالانتعاش ويتمكن من لملمة شتات أفكاره المبعثرة، ويركزها على نقطة معيّنة، كي يستطيع أن يتمعّن في وضعه جيداً ويفحصه. لكنه، ما إن حاول النهوض من على ديوانه حتى تهالك عليه ثانية عاجزاً خائر القوى. «نعم، لا شكّ أني خمّنت كل هذا قبل أن أقرأ الرسالة. . . ولكن ماذا يريد أن يقول في رسالته؟ وما هو المعنى المباشر لكلماتها؟ الحق أني أعرف ذلك المعنى الذي يرمي إليه، ولكن إلى أين يؤدّي بنا ذلك؟ لو أنه عبّر عمّا يقصد بوضوح، بوضوح تام، نطلب منك كذا، عليك أن تمتثل لكذا، لأطعته. . . إلا أن ما آلت إليه الأمور الآن هو ما يزعجني، ما يزعجني تماماً. . . آه، ليت الغد يحل الآن كي أتصرف، لأنني أعرف الآن كيف ينبغي أن أتصرف. . . سأقول: إنني متفق مع ما تقولون، وأنني أرفض أن أبيع شرفي. . . نعم، هذا

ما سأقوله... أما ذلك «الشخص الآخر»، ذلك الشخص الذي لا ينصح برفقته، فما دخله في القضية؟ ولماذا يحشر أنفه فيها؟ نعم، فليأتِ الغد، ولكن الوقت سيسعفهم قبل حلول الغد كي يحتالوا ويتواطؤوا، إنهم جادون في مضايقتي... المهم الآن ألا أضيع الوقت... أعتقد أن عليّ أن أكتب رسالة على الفور، أعترف فيها ببعض الأشياء، وأتنازل قليلاً عن أشياء أخرى. ثم أبعث بها غداً، وأقوم في الوقت نفسه بـ... كيف أعبِّر عن ذلك؟... نعم، أقوم بصدّ أولئك السادة، وقطع الطريق أمامهم... إنهم يسعون إلى الإساءة إلى سمعتي، لا شكّ في ذلك...».

تناول السيد غوليادكين ورقة وريشة، وكتب الرسالة التالية جواباً عن رسالة سكرتير القسم فاخرمابيف:

عزيزي السيد نستور إغناتييفيتش،

لقد قرأت رسالتك المهينة بقلب مندهش اندهاشاً مؤلماً، وذلك لأنني أدركت جلياً أنك حين لمحت إلى أشخاص أشرار مغرضين، إنما كنت تقصدني أنا شخصياً. إنني لأشعر بمرارة وألم حين أرى تلك السرعة التي استطاع بها الافتراء أن يمدَّ جذوره عميقاً ليؤذي راحتي وشرفي وسمعتي. وإنه ليؤلمني أكثر ويهينني أن أرى كيف يتخلى الشرفاء والعقلاء الذين يتميزون بالصراحة والتسامح، عن مؤازرة الناس الشرفاء مثلهم، ويساندون بكل ما يملكون من قوة ومن مزايا من يتصف بالخداع والغدر - نعم الغدر الذي مدّ جذوره عميقاً في عصرنا الحالي المتنكّر لكل الأخلاق الحميدة من أجل غايات سيئة. أما عن دَينك، فأنا أرى أن من واجبي المقدّس أن أردّه إليك كاملاً غير منقوص، أي أن أرد إليك الروبلين كاملين.

أما عن تلميحاتك، يا سيدي العزيز، إلى شخص من الجنس اللطيف، وإلى نواياها، وحساباتها، ومشاريعها المختلفة، فلم أفهمها إلا بشكل مبهم غامض. فاسمح لي، يا سيدي، أن أترفّع بسمعتي ونواياي وعواطفي النبيلة عن كل ما يسيء إليها. وإني لمستعد، رغم ذلك، أن نتكاشف في الأمر عبر الحوار المباشر بدل الكتابة، كما أنني مستعد لقبول أية خطوة للتصالح السلمي، شريطة أن يكون مرغوباً فيه من الطرفين معاً. ومن أجل ذلك أدعوك، سيدي، أن تخبر الشخص المعني أني على كامل الاستعداد للحوار قصد الوصول إلى اتفاق مشترك، وأني أترك له حرية اختيار الزمان والمكان المناسب لأجراء ذلك اللقاء. لقد قرأت بكثير من المرارة، يا سيدي، ما ألمحت إليه بخصوص إهانتي لك، وخيانتي لصداقتك، واغتيابك. وإني لأعزي ذلك إلى سوء الفهم، وإلى الافتراء والحسد، والنوايا السيئة التي يتميز بها أولئك الذين أستطيع أن أنعتهم بأنهم ألدّ أعدائي. ولا شكّ عندي أن هؤلاء ليجهلون أن البراءة قوتها في ذاتها، وأن الدناءة والوقاحة والاستهتار الذي يميز بعض الناس لا يستحق إلا الاحتقار التام، وأنهم لن يفلحوا أبداً جراء سلوكهم القبيح وقلوبهم المريضة. لذلك أرجوك في الختام، يا سيدي، أن تبلغ هؤلاء الأشخاص أن نياتهم السيئة ورغباتهم المريضة في أن يطردوا الناس خارج الأماكن التي يحتلونها في هذا العالم، لكي يحلوا مكانهم، لا تستحق غير الدهشة والاحتقار والشفقة، بل لا يستحقون عن سلوكهم إلا أن يحجزوا في مستشفيات المجانين. وأضيف إلى هذا أن مثل هذه التصرفات والمحاولات يمنعها القانون، وذلك في رأيي أمر سليم وله ما يسوغه، لأن على كل إنسان أن يلتزم بالمكان الذي هو مكانه الخاص. إن لكل شيء

حدوداً، وإذا كان ما يحدث الآن عبارة عن مزحة، فإنني أؤكد لك أنها مزحة كريهة، بل هي أكثر من ذلك: إنها مزحة لا أخلاقية. وإنني لأؤكد لك، يا سيدي، أن أفكاري السابقة حول التزام كل شخص بمكانه الخاص ليست إلا أفكاراً متعلقة بما يجب أن نلتزم به من أخلاق.

ورغم ذلك، يشرفني أن أبقى
خادمك المتواضع

ي. غوليادكين.

الفصل العاشر

يمكن القول باختصار: إن أحداث الأمس قد أثّرت في السيد غوليادكين تأثيراً كبيراً. كان نوم بطلنا في تلك الليلة قلقاً. لم يستطع أن ينام أكثر من خمس دقائق متواصلة: وكأن أحد المازحين نثر على سريره شوكاً. قضى ليلته بين السِّنَة واليقظة، يتقلب على سريره من جنب إلى آخر، ويتنهّد، ويئنّ، وينام لحظة ليستيقظ اللحظة التي بعدها، وهو لا يتوقف عن الشعور بقلق غريب، وعن استرجاع ذكريات ضبابية، ورؤى فظيعة - باختصار، لقد كان نهباً لكل ما يبعث على القلق والاضطراب... فتارة يتراءى له وجه أندريه فيليبوفيتش قاسياً، غاضباً، مشحوناً بنظرة صارمة معاتبة عتاباً بالكاد مهذّب، وسط غبش غريب عجيب... وحين يشرع السيد غوليادكين في الاقتراب من أندريه فيليبوفيتش محاولاً أن يبرّر سلوكه بطريقة أو بأخرى، وأن يبرهن له على أنه ليس كما يصوّره أعداؤه، وعلى أن له إلى جانب تلك المزايا التي قد يمتاز بها كل الناس مزايا أخرى فطرية خاصة به... ينبعث من وسط الغبش شخص معروف بميولاته الوقحة، فيقوّض بوسائله المثيرة للغضب كل المحاولات التي قام بها السيد غوليادكين للحفاظ على صورته ومكانته لدى رئيسه، وذلك بتشويه سمعته، وتمريغ طموحه وشرفه وكبريائه في الوحل، وينتهي

بأن يستولي على مكانه في الوظيفة وفي المجتمع. . . وتارة يشعر بدغدغة على خده جراء مداعبة بإصبعين كان قد تعرّض لها إما في حياته العامة وإما في مكتبه نفسه، ووجد صعوبة في الاحتجاج عليها. . . وفيما أخذ بطلنا يبذل مجهوداً جبّاراً في التفكير كي يفهم السبب الذي يجعل احتجاجه على تلك المداعبة السخيفة صعباً، إذا بتلك المداعبة تتخذ شكلاً جديداً، شكل عمل شائن سبق أن رآه، أو سمع عنه، أو قام به هو نفسه مؤخّراً. . . بل قام به عدة مرات غير مرغم على ذلك، وإنما مدفوعاً بالرغبة في القيام به. . . نعم بالرغبة في ذلك. . . وقام به في إحدى المرات لعجزه التام عن الدفاع عن نفسه. . . الحقيقة أنه قام به بدافع من. . . بدافع من. . . باختصار، لقد كان السيد غوليادكين على علم بذلك الدافع. واحمرّ وجه السيد غوليادكين وهو نائم، وحاول أن يتغلّب على خجله، وقال في نفسه إن عليه في مثل هذه الحالات، مثلاً، أن يتسلّح بقوة الإرادة، بإرادة هائلة. «نعم، ولكن ما دخل قوة الإرادة في هذا الأمر؟. . . ما فائدتها؟». . . غير أن ما كان يثير حنق السيد غوليادكين أكثر من أي شيء آخر في تلك اللحظة هو أن ذلك الشخص المعروف بنزوعه إلى الوقاحة والسخرية أخذ يردد وهو يبتسم ابتسامة وقحة هو أيضاً: «نعم، ولكن ما دخل قوة الإرادة في هذا الأمر؟. . . هل نملك شيئاً من قوة الإرادة أنت وأنا يا ياكوف بتروفيتش؟». . . وتارة يرى نفسه في حلمه صحبة أناس من المجتمع الراقي معروفين بذكائهم وتميُّزهم، وهو لا يقل عنهم ذكاء ولطفاً، ممّا جعله يملك قلوب كل الحاضرين، بل قلوب بعض أعدائه ممن كانوا حاضرين، فسرّه ذلك سروراً عظيماً. لقد كان مميزاً تماماً، حتى أنه سمع ربّ البيت يمدحه لعدد من المدعوين. . . وفجأة، ودون مقدّمات، يظهر وجه

ذلك الشخص المعروف بنزعاته الحيوانية المغرضة في صورة السيد غوليادكين الأصغر فيقلب ظهوره الوضع رأساً على عقب على الفور، في طرفة عين، ويحطّم كل ذلك النجاح والمجد الذي لقيه السيد غوليادكين الأكبر وسط المجتمع الراقي، ويدوسه بقدمه، ويمرغه في الوحل، وينتهي بأن يبرهن للحاضرين أن السيد غوليادكين الأكبر، أي السيد غوليادكين الأصلي، ليس هو السيد غوليادكين الأصلي كما يعتقدون، وإنما هو مزوَّر، وأنه السيد غوليادكين الحقيقي، وأن السيد غوليادكين الأكبر الذي أمامهم ويمطرونه بالمديح. ليست تلك حقيقته، وإنما هو إنسان لا يستحق أن يعامل مثل تلك المعاملة من طرف أناس من المجتمع الراقي عُرفوا بنزاهتهم وطيبتهم، نظراً إلى أخلاقه غير الحميدة. حدث كل ذلك بسرعة كبيرة لم تُمهل السيد غوليادكين الأكبر فرصة أن يفتح فمه ليدافع عن نفسه، إذ سرعان ما صدّ عنه كل الحاضرين وغيّروا ولاءهم ليصبحوا أوفياء للسيد غوليادكين المزوَّر المخادع. لم يترك السيد غوليادكين المزوَّر المخادع أي شخص، حتى إن كان أتفه الحاضرين، إلا وتقرّب منه، وحاباه، مستعملاً كل ما يملك من تملُّق وحذق وتزلُّف، ليبلغ هدفه. وكان كلما تقرّب من شخص إلا وسحره بكلامه المعسول وطرقه الناعمة، فيحوله إلى عجينة طائعة قابلة لأن تُشكّل بحسب ما يريد ويشتهي... كان يقوم بذلك بسرعة شبيهة بسرعة وميض البرق، سرعة تثير الدهشة فعلاً. كان ما أن ينتهي من كسب ودّ شخص حتى ينتقل إلى شخص آخر بسرعة، ويشرع في مداهنته والتزلف إليه، والقيام بحركاته الناعمة، لينتقل إلى شخص ثالث، فيشرع على الفور في محادثته حديثاً ناعماً مدهوناً بابتسامات لا تقل نعومة حتى يكسب ودّه، فينتقل إلى شخص رابع فيشرع في تنفيذ ما نفّذه مع من

سبقه... كأنه ساحر... كان جميع الحاضرين يستقبلونه بحفاوة، وحب، ويرفعون مقامه إلى عنان السماء، ويعلنون، جميعاً، وعلى رؤوس الأشهاد، أن أدبه الراقي وروحه المرحة وفكره المتقد يفوق أدب وروح المرح والفكر المتقد لدى السيد غوليادكين الأصلي. ويشرعون في تأنيب ونبذ ودفع وإهانة السيد غوليادكين الأصلي البريء المعروف بحبه لأقاربه... ويهرب السيد غولیادكين إلى الشارع مرعباً، حانقاً، فيشرع في البحث عن عربة تقوده إلى منزل صاحب المعالي، فإن لم يكن ذلك ممكناً فإلى منزل أندريه فيليبوفيتش على الأقل، لكن... للأسف، لقد رفض كل حوذي صادفه أن يأخذه إلى حيث يريد: «مستحيل يا سيدي، مستحيل أن أنقل رجلين متشابهَين تماماً»، كانوا يقولون له، «إن الرجل الشريف، النبيل، يعيش حياة شريفة نبيلة، ولا يرضى أن يعيش كيفما اتفق، ولا يسعى إلى خلق المشاكل، ولا يكون اثنين متشابهَين أبداً». وينظر السيد غولیادكين الشريف حوله، فيتأكد بنفسه، بأم عينيه، من أن الحوذيين وبتروشكا، الذي أبدى اتفاقه معهم، كانوا على صواب؛ لأن السيد غولیادكين المخادع كان إلى جانبه، غير بعيد عنه، يتهيّأ لاقتراف وقاحة جديدة على عادته المقيتة التي تتنافى مع حسن الخلق... حسن الخلق الذي يتبجح به في كل مناسبة. فما كان من بطلنا التعيس إلا أن فرَّ بأقصى ما يملك من سرعة مضطرباً من شدة الخجل واليأس، لا يلوي على شيء، ولا يدري إلى أين يتجه، تاركاً للقدر أن يمضي به إلى حيث يشاء. لكنه ما كان يخطو خطوة، أو تقرع قدمه أسفلت طريق، إلا وينبجس أمامه وجه ذلك المخادع الكريه غولیادكين. ليشرع كل أولئك الغولیادكينات المتشابهون تماماً في الجري واحداً خلف الآخر، وكأنهم سرب من

الإوز. كانوا يجرون خلف بعضهم البعض، ملاحقين السيد غوليادكين الأصلي المرعب المنقطع الأنفاس، إلى درجة تتعذر معها أي محاولة للهرب من كل هؤلاء الأشباه... إلى درجة أن تكاثر أولئك الأشباه تضخّم حتى صار مرعباً، إلى درجة أن العاصمة كلها امتلأت بالأشباه، وأن رجلاً من رجال الشرطة وجد نفسه مضطراً، أمام هذا التراكم الهائل، أن يرى في ذلك التراكم خرقاً سافراً للمتعارف عليه، فيشرع في ملاحقتهم والقبض عليهم، والرمي بهم في مَحرَسِه الذي انبثق إلى جانبه فجأة وكأنه خرج من العدم... واستيقظ بطلنا من النوم وقد تجمّد من الرعب، وازداد تجمّده من الرعب لمّا أدرك أن ما ينتظره في اليقظة قد لا يكون أقل تعاسة ممّا تراءى له في الحلم... كان محطّماً تماماً، ويعاني معاناة بلغت من القسوة أنه أحس وكأن أحداً يأكل قلبه بلا رحمة.

صار السيد غوليادكين عاجزاً عن أن يتحمل كل هذا العذاب فصرخ وهو ينهض من على سريره منتفضاً: «لا، لن يحدث هذا». وكانت هذه الصرخة كافية لأن تعيده إلى الواقع الملموس.

يبدو أن الوقت كان متقدّماً. كانت أشعة الشمس قد تسللت إلى غرفته من خلال زجاج النوافذ المبللة بما خلّفه الضباب على عكس المعتاد، وانتشرت في سائر أركان الغرفة. اندهش السيد غوليادكين لأن أشعة الشمس لم تتعود أن تلقي نظرة على غرفته إلا عند منتصف النهار، وأنها لم تخالف هذه القاعدة في يوم من الأيام، بحسب ما يذكر. ما إن انتهى من دهشته حتى سمع نابض الساعة الحائطية التي خلف الستار يدندن مؤذناً بأنها ستدق. «ها... الآن سنعرف ما الساعة» قال السيد غوليادكين في نفسه وقد أرهف سمعه في شيء من الانتظار القلق... فاندهش اندهاشاً شديداً حين لم تدق الساعة إلا

دقة واحدة. «ما هذا؟» صرخ بطلنا وهو يقفز مغادراً سريره، ويهرع نحو الستار غير مصدق ما سمعته أذناه. كانت الساعة تشير إلى الواحدة فعلاً. ألقى السيد غوليادكين نظرة على سرير بتروشكا، فألفاه فارغاً. لا أثر لبتروشكا. كان السرير مرتباً، ولا أثر لحذاء خادمه، ممّا لا يترك مجالاً للشكّ في أنه غادر سريره وخرج. هرع السيد غوليادكين نحو باب المدخل فوجده مقفلاً بالمفتاح. «أين ذهب بتروشكا يا ترى؟» همس قائلاً بانفعال شديد واضطراب شامل... وفجأة خطرت له فكرة، فهرع نحو المائدة وأخذ يبحث عن شيء ما وسط الأوراق المتراكمة فوقها... هو ذاك، لقد صدق ظنه: كانت الرسالة التي كتبها بالأمس إلى فاخرمايييف قد اختفت... كما اختفى بتروشكا من خلف الستار مع أن الساعة تشير إلى الواحدة، والرسالة التي توصّل بها أمس من فاخرمايييف اشتملت على نقاط غامضة ها هي الآن تتضح... لم يبقَ إذاً أي شك فيما يتعلق ببتروشكا... لقد رشوه، نعم، لا شكّ أنهم رشوه.

«ها... هذه هي عقدة القضية إذاً» صاح السيد غوليادكين وهو يلطم جبينه. لقد اتضحت الأمور تماماً بالنسبة إليه. «إذاً جُلّ المؤامرات تحاك في مغارة تلك الألمانية الشرهة... لقد فهمت كل شيء الآن... نعم كل شيء صار واضحاً... إنها لم تقم إلا بمناورة تضليلية حين وجّهتني صوب جسر إسماعيلوفسكي، تريد أن تحرف انتباهي، أن توجّهني نحو وجهة خاطئة، لكي يتسنى لها أن تنفذ عملها التخريبي (يا لها من ساحرة ماكرة!)... نعم، هو ذاك، يكفي أن ننظر إلى القضية من هذه الزاوية كي تتضح تماماً، ويتضح معها ظهور ذلك الوغد التعيس... نعم، لقد صار كل شيء واضحاً تماماً... واضح أنهم ادّخروه منذ مدة طويلة، وأنهم كانوا يُعدّونه

لاستعماله في اللحظة المناسبة... نعم، لقد اتضحت الأمور الآن... اتضحت تماماً... طيب، وليكن، لا يهم... لم يضع كل شيء بعد... ما زال أمامنا متّسع من الوقت...». وبذكر الوقت تذكّر السيد غوليادكين مرعوباً أن الساعة ستشارف على الثانية ظهراً. «ولكن ماذا إذا كان الوقت قد أسعفهم الآن لكي...» قال متنهداً، ثم واصل يحدّث نفسه، «لا، مستحيل، مستحيل أن يكون الوقت قد أسعفهم تماماً... سوف نرى على كل حال...». وأسرع يرتدي ثيابه، وتناول ورقة وريشة، ثم كتب ما يلي:

السيد المحترم ياكوف بتروفيتش،

إما أنا وإما أنت، لكن ليس كلانا في وقت واحد. لذلك أعلن لك أن رغبتك الغريبة المضحكة، والمستحيلة في آن معاً، في أن تظهر بمظهر الأخ التوأم، وأن تتصرف على أنك فعلاً أخ توأم، لن تعمل إلا على تلطيخ شرفك، وعلى ضياعك في نهاية المطاف. لذلك أناشدك، من أجل مصلحتك، أن تتنحّى وأن تُخلي المكان للناس الشرفاء ذوي النيات الحسنة. وإلا سأكون مضطراً إلى اتخاذ الإجراءات القصوى. لن أضيف أية كلمة أخرى، وسأنتظر جوابك... وسأظل مستعداً لأضع نفسي تحت تصرفك في كل ما تقرره - حتى إن قررت أن تدعوني إلى مبارزة بواسطة المسدسات.

ي. غوليادكين.

عندما فرغ بطلنا من كتابة هذه الرسالة أخذ يفرك يديه، ثم ارتدى معطفه ولبس قبّعته، وفتح باب بيته بالمفتاح، ومضى نحو مكتبه. عندما بلغ مبنى الوزارة تردّد في الدخول لأن الوقت كان قد

تأخّر، فساعته تشير إلى الثانية ونصف بعد الظهر. وفجأة وضع حادث تافه حدّاً لتردد السيد غوليادكين: في أحد أركان مبنى الوزارة ظهر فجأة شخص لاهث محمرّ الوجه يتسلل إلى درجات المدخل خفية وهو يمشي مشية فأر، ويختفي بعد ذلك وراء باب مدخل المبنى. عرفه السيد غوليادكين على الفور: إنه أوستافييف الذي يقضي وقته متنقلاً من مكتب إلى آخر، مستعدّاً في كل لحظة أن يقدم أي خدمة تطلب منه مقابل «بقشيش» زهيد. كان السيد غوليادكين يعرف نقطة ضعف أوستافييف التي لا شكّ أن غيابه عن الوزارة في الآونة الأخيرة لم يزدها إلا ضعفاً، لذلك قرّر بطلنا أن يستغل نقطة ضعف أوستافييف، فهرع خلفه. صعد الأدراج ومضى في البهو يلاحقه، ثم ناداه، وانتحى به ركناً بعيداً عن الأنظار وراء مدفأة ضخمة. وهناك أخذ يسأله:

- كيف هي الأحوال هنا أيها الرجل الطيب؟ هل فهمت ما أقصده؟

- تحت أمرك يا صاحب النبالة، إنني أتمنى لك يا صاحب النبالة صحّة جيدة.

- حسناً أيها الرجل الطيب، سأكافئك على هذا أيها الرجل الطيب. والآن أخبرني كيف هي الأحوال هنا؟

- ماذا تريد أن تعرف يا سيدي؟ قال أوستافييف وهو يضع يده تحت ذقنه لكي يمنع فمه من الانفراج.

- طيب، أنا أريد أيها الرجل الطيب، أريد أن أعرف... ولكن إياك أن يذهب بك الظن بعيداً، أريد أن أعرف هل أندريه فيليبوفيتش هنا؟

- إنه هنا يا سيدي.

- وباقي الموظفين؟

- إنهم هنا أيضاً يا سيدي، كالعادة يا سيدي.

- وصاحب المعالي، هل هو هنا أيضاً؟

- نعم، صاحب المعالي هنا أيضاً يا سيدي. ووضع أوستافييف يده تحت ذقنه مرة أخرى كي يمنع فمه من الانفراج، وأخذ ينظر إلى السيد غوليادكين نظرة غريبة محمّلة بالفضول.

- إذاً الأمور عادية تماماً هنا.

- عادية تماماً يا سيدي.

- ألم يأتِ أحد على ذكري بشيء ما أيها الرجل الطيب؟ بشيء يخصني، هل فهمت؟ هه، هل فهمت؟ أحب أن أعرف من أجل المعرفة فقط أيها الرجل الطيب. هيا أخبرني.

- لا، لم أسمع شيئاً عنك حتى الآن.

وأمسك أوستافييف ذقنه مجدداً وأخذ ينظر إلى السيد غوليادكين نظرة غريبة. وأخذ السيد غوليادكين يتفرسه هو أيضاً وكأنه يرغب في أن يلتقط من خلال حركاته ما يساعده على أن يقرأ أفكاره الخفية. وبدا له أن أوستافييف يخفي عنه شيئاً بالفعل، إذ إن لهجته التي كانت في البداية طيبة لينة سرعان ما تحولت إلى نوع من الصرامة والخشونة. «هذا من حقه»، قال السيد غوليادكين في نفسه. «ما فائدتي بالنسبة إليه؟ قد يكون تلقّى بقشيشاً من الطرف الآخر لذلك تراه لا يخبرني إلا بما يراه ضرورياً ويخفي عني ما يريد... أنا من ينبغي أن...» كان السيد غوليادكين قد أدرك أن أوان البقشيش قد حان.

- خذ أيها الرجل الطيب...

- أشكرك يا صاحب النبالة.

- سأعطيك المزيد.

- تحت أمرك يا صاحب النبالة.

- سأعطيك المزيد الآن، وحين ستسوّى القضية سأعطيك قدر ما أعطيتك الآن. أفهمت؟

بقي أوستافييف واقفاً في مكانه لا يتحرك، وينظر إلى السيد غوليادكين صامتاً.

- والآن قل لي، هل يحكون شيئاً عني؟

- أعتقد أنهم إلى الآن... أعتقد أنهم لم يقولوا عنك أي شيء إلى الآن يا سيدي... كان أوستافييف يجيب عن الأسئلة بتقتير وهو يرفع عينَيه تارة ويخفضهما تارة أخرى، كما كان يفعل السيد غوليادكين، ويحاول أن يبحث عن النبرة المناسبة والوجيزة، أي أنه كان يبذل كل ما في وسعه كي يحصل على ما وُعد به، ما دام ما حصل عليه حتى تلك اللحظة قد صار ملكاً له.

- لم تسمع شيئاً إذاً؟

- لا شيء حتى الآن يا سيدي.

- طيب، اسمع... قد تسمع شيئاً فيما بعد؟ في هذه الحالة... لا شكّ أنك فهمت ما أقصد...

- فيما بعد، نعم قد أسمع شيئاً فيما بعد.

«يبدو أنه لم يقنع بعد» قال السيد غوليادكين في نفسه.

- خذ... هذا لك أيضاً أيها الرجل الطيب.

- شكراً جزيلاً يا صاحب النبالة.

- هل حضر فاخرماييف أمس؟

- نعم يا سيدي.

- ألم يكن معه أحد؟... حاول أن تتذكر جيداً أيها الرجل الطيب.

غرق أوستافييف في ذاكرته لحظة، لكنه لم يظفر بما قد يشفي الغليل.

- لا يا سيدي، لم يكن معه أحد آخر.

- هممم...

همهمَ السيد غوليادكين ثم التزم الصمت برهة قبل أن يعود إلى القول:

- خذ أيها الرجل الطيب، خذ هذا أيضاً وأخبرني عمّا يخفونه عني فوق.

- تحت أمرك يا سيدي. لَانَ أوستافييف في تلك اللحظة، وهذا ما كان يرغب فيه السيد غوليادكين.

- قل لي الآن أيها الرجل الطيب، كيف هو الآن؟

- جيد يا سيدي، جيد. قال أوستافييف وهو ينظر إلى السيد غوليادكين مندهشاً.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنه جيد يا سيدي. قال أوستافييف وهو ينظر إلى السيد غوليادكين نظرة الواثق ممّا يقول، بينما الحقيقة عكس ذلك، فقد كان في تلك اللحظة محاصراً لا يدري ما يمكنه أن يضيف إلى ما قاله.

«يبدو أنه لم يلن بعد» قال السيد غوليادكين في نفسه.

- أليس هناك أي جديد بخصوص فاخرماييف؟

- لا، لا جديد يا سيدي.

- حاول أن تتذكر جيداً.

- يقال إن هناك شيئاً.

- أها... وما هو ذلك الشيء؟

أمسك أوستافييف ذقنه بيده.

- ألم تصلني اليوم أية رسالة من هناك؟

- آخ، تذكرت الآن أن الحارس ذهب إلى فاخرمايبف هذا الصباح... نعم ذهب إلى حيث يسكن، في منزل تلك الألمانية، سأذهب لأسأله إذا شئت.

- نعم، قدّم لي هذه الخدمة أيها الرجل الطيب، أرجوك... إنني أريد أن أعرف من أجل المعرفة فقط، ولا يذهبن بك الظن إلى أبعد من ذلك... اسأله... حاول أن تعرف إذا كانوا يدبّرون لي شيئاً هناك... خاصة هو، حاول أن تعرف ماذا يهيّئ... هذا ما أريد أن أعرفه تماماً، ابذل ما في وسعك كي تعرف، وسأكافئك على ذلك أيها الرجل الطيب...

- تحت أمرك يا صاحب النبالة. لقد حلَّ إيفان سيميوفيتش محلّك في المكتب هذا الصباح يا سيدي.

- إيفان سيميوفيتش؟ ها... لا، مستحيل.

- أندريه فيليبوفيتش هو من طلب منه ذلك...

- مستحيل. لماذا طلب منه ذلك؟ ابذل كل ما في جهدك لتعرف السبب أيها الرجل الطيب، أرجوك أن تحاول أن تعرف كل شيء، وسأكافئك أيها الرجل الطيب، لكن لا يجب أن يذهب بك الظن بعيداً أيها الرجل الطيب...

- تحت أمرك يا سيدي، تحت أمرك، سأذهب إليه حالاً. وأنت يا صاحب النبالة، ألا تريد أن تصعد إلى مكتبك اليوم؟

- لا أيها الرجل الطيب، لم آتِ إلى هنا إلا عابراً أيها الرجل الطيب... سأكافئك فيما بعد أيها الرجل الطيب.

- تحت أمرك يا سيدي. قال أوستافييف ثم هرع نحو السلَّم، وبقي السيد غوليادكين وحيداً.

«الأمور سيئة، سيئة، سيئة تماماً، والقضية تسير في الاتجاه غير الصحيح، ماذا يعني هذا كله؟ ترى إلى أي شيء كانت تلمّح كلمات ذلك السكير؟ ومن يمسك بخيوط القضية؟ آه، لقد عرفت الآن من يمسك بخيوط القضية. وفهمت القضية تماماً... لا شكّ أنهم علموا... وأحلّوه محلي... لا، ليسوا هم من أحلّهُ محلي... إنه أندريه فيليبوفيتش من أحلّ المدعو إيفان سيميوفيتش محلي. لماذا أحلّ محلي هذا الشخص بالذات؟ وإلامَ يهدف من وراء ذلك؟ لا شك أنهم علموا... إن هذا من صنيع فاخرماييف... لا، لا، ليس ذلك من صنيعه، لا يمكن أن يكون من صنيعه، إنه غبي غباء لا يصدق... إنه من عملهم جميعاً، هم جميعاً من جعلوا ذلك الوغد في طريقي... هم من دفع تلك الألمانية العوراء إلى التشكّي... لقد أدركت دائماً أن تلك المكيدة مدبّرة، محبوكة، وأن من وراء ثرثرات تلك الساحرة الشمطاء أشياء خفية، هذا ما قلته لكريستيان إيفانوفيتش، قلت له إنهم أقسموا على أن يذبحوا رجلاً، أقصد يذبحونه بالمعنى المجازي، فاستخدموا كارولين إيفانوفنا لهذا الغرض... لا شكّ في ذلك، لقد حيكت القضية بشكل متقون، حيكت على يد خبيرة أيها السادة، وليس على يد فاخرماييف، وأنهم... ها، لقد عرفت الآن من يساعدهم على ذلك، إنه ذلك الوغد، ذلك المخادع، ولعلّ ذلك ما يفسر النجاح الذي يلاقيه وسط المجتمع الراقي... آه كم أود أن أعرف وضعه بينهم الآن هناك... وما هي مكانته؟... لكن، لماذا يا ترى اختاروا ذلك الإيفان سيميوفيتش؟ اللعنة، ما حاجتهم إلى شخص مثل إيفان سيميوفيتش؟

ألم يجدوا إلا إيفان سيميوفيتش كي يقوم بهذه المهمة؟ وما أهمية أن يختاروه هو أو غيره؟ ستبقى النتيجة واحدة سواء اختاروه هو أو غيره. ولكنني أشك، ومنذ وقت طويل، في هذا الإيفان سيميوفيتش. إنه عجوز يبعث على النفور والتقزز، ويبدو أنه يقرض بالربا بنسبة كالنسبة التي قد يفرضها يهودي على من يقترض منه... لا، لا شكّ أن الدب من وراء كل تلك المكائد. هو من يدبّرها كلها. بدأ كل شيء هكذا: بدأ في جسر إسماعيلوفسكي بالطريقة الآتية...». جعّد السيد غوليادكين خديه كمن يجعّدهما من عضّ ليمونة، وذلك لأنه كان قد تذكّر شيئاً مزعجاً. «طيب، لا يهم كل هذا على كل حال»، قال في نفسه، «إنني لا أزيد على أن أكرر الشيء نفسه، لأتوقف عن ذلك إذاً، ماذا يفعل أوستافييف فوق؟ لماذا تأخر في العودة يا ترى؟ لا شكّ أن شيئاً ما أو شخصاً قد اعترض طريقه... لماذا لا ألجأ أنا أيضاً إلى الخداع والمكر... يكفي أن أضع في يد أوستافييف بعض الكوبيكات ليصبح طوع يدي، ليصير في صفّي... ولكن ينبغي أن أعرف أولاً هل هو الآن في صفّي أم في صفّهم... قد يفعلون معه ما فعلته معه كي يكسبوه في صفّهم، ويوظفوه في تدبير المكائد. إنه لصّ، مخادع، لصّ بالفطرة، ولكنه لا يُبدي ذلك، بل يخفيه وراء كلام معسول: «لا، لا شيء يا صاحب النبالة، إنني ممتن لك كل الامتنان يا صاحب النبالة...» يا له من وغد!...».

وفجأة سمع السيد غوليادكين وقع خطوات على السلّم... فأسرع نحو المدفأة ووقف خلفها. نزل أحدهم من السلّم، وخرج إلى الشارع. «من يكون ذاك الذي خرج الآن؟» تساءل بطلنا. وما هي إلا لحظات قليلة حتى سمع وقع خطوات مرة أخرى... لم

يتمالك السيد غوليادكين نفسه هذه المرة، فأخرج رأسه من خلف المدفأة قليلاً... لكن سرعان ما أعاده إلى حيث كان وكأن إبرة وخزته فجأة. إنه يعرف الشخص الذي نزل الأدراج جيداً، إنه ذلك الوغد الحقير، المخادع... كان يسير على عادته بخطاه القصيرة المكردحة مسرعاً، رافعاً ساقيه الصغيرتَين وكأنه يريد أن يضرب بهما أحداً. «يا له من وغد!» قال السيد غوليادكين في نفسه. لكن ذلك لم يمنع بطلنا أن يلاحظ أن ذلك الوغد كان يتأبّط ملفاً أخضر من ملفات صاحب المعالي. «ها هو ذا ذاهب إلى مهمة خاصة أخرى»، قال السيد غوليادكين في نفسه وقد احمرّ وجهه من الغضب. ما أن غادر السيد غوليادكين الأصغر الإدارة، دون أن يتنبّه لوجود السيد غوليادكين الأكبر، حتى سمع هذا الأخير، مرة أخرى، وقع خطوات على السلَّم، فأدرك على الفور أنها خطوات أوستافييف. وما هي إلا لحظة حتى ظهر أمامه وجه يتطلع إلى ما وراء المدفأة، إنه ليس وجه أوستافييف، ولكن وجه عون آخر من أعوان الإدارة غير أوستافييف، وجه عون يُدعى بيسارينكو. فوجئ السيد غوليادكين. «لماذا أقحمه في ما كان من المفروض أن يبقى سرّاً بيننا؟» قال السيد غولياذكين في نفسه، «يا لهؤلاء البرابرة، لا شيء مقدّس بالنسبة إليهم».

- ماذا هناك أيها الرجل الطيب، من أرسلك أيها الرجل الطيب؟

- أنا هنا من أجل قضيتك يا سيدي، لا شيء جديد يا سيدي حتى الآن، وإذا ما جدّ جديد فسنخبرك به.

- وأين أوستافييف؟

- لا يستطيع أن يأتي يا صاحب النبالة. لقد تفقّد صاحب المعالي المكاتب مرتَين حتى الآن. أنا أيضاً لا وقت لديّ الآن.

- شكراً أيها الرجل الطيب، شكراً جزيلاً... ولكن قل لي...

- لا وقت لديّ يا سيدي، لا وقت لديّ... إنهم لا يتوقّفون عن مناداتنا في كل لحظة... لكن ما عليك إلّا أن تبقى هنا قليلاً يا سيدي، كي نتمكن عند الحاجة أن نخبرك ما يجدّ في قضيتك...

- لا، أيها الرجل الطيب، أخبرني الآن...

- المعذرة يا سيدي، لا وقت لديّ. قال بيسارينكو وهو يحاول أن يتملّص من السيد غوليادكين الذي كان قد أمسكه من كمّه. صدّقني يا سيدي، ما عليك إلّا أن تبقى هنا وسنطلعك على ما يجدّ.

- لحظة، لحظة أيها الرجل الطيب، اسمع... خذ هذه الرسالة أيها الرجل الطيب، وسأكافئك.

- تحت أمرك يا سيدي.

- احرص على أن توصلها إلى السيد غوليادكين.

- غوليادكين؟

- نعم، غوليادكين أيها الرجل الطيب.

- حسناً، سأوصلها فور عودتي. في انتظار ذلك انتظر هنا، لا تغادر هذا المكان. هنا لن يراك أحد...

- لا أيها الرجل الطيب، لا ينبغي أن يذهب بك الظن بعيداً... لست واقفاً هنا كي لا يراني أحد. لا لن أبقى الآن هنا أيها الرجل الطيب... سأذهب إلى الشارع الصغير القريب من هنا. هناك مقهى في ذلك الشارع. سأنتظر هناك. إذا بلغك شيء فانقله إليّ، هل فهمت؟

- طيب يا سيدي. والآن دعني أنصرف.

- سأكافئك أيها الرجل الطيب. صرخ السيد غوليادكين في وجه بيسارينكو الذي فرَّ بعد أن نجح في التخلُّص من قبضة السيد غولیادكين. . .

«يا له من وغد وقح»، قال السيد غولیادكين في نفسه وهو يغادر مكان اختبائه بحذر. «إن وراء تهربه شيء ما يدعو إلى الريبة. . . هذا واضح. في أول الأمر لم يخبرني بأي شيء، ثم ما لبث أن ادّعى أن لا وقت لديه. . . من يدري، فقد يكون على حقّ، قد يكون مشغولاً فعلاً. هكذا إذاً، لقد تفقّد صاحب المعالي المكاتب مرتَين. . . لماذا فعل ذلك يا ترى؟ ها، لا يهم، قد لا يكون لذلك أية أهمية. ما علينا إلا أن ننتظر وسنرى. . .».

ما أن همَّ السيد غولیادكين بفتح الباب كي يخرج إلى الشارع، حتى سمع قرقعة عربة صاحب المعالي أمام المدخل. لم يكد السيد غولیادكين يستعيد وعيه حتى انفتح الباب من الداخل وقفز منه الشخص الذي أتى فيها. لم يكن ذلك الشخص إلا السيد غولیادكين الأصغر الذي كان قد غادر الإدارة قبل عشر دقائق. تذكّر السيد غولیادكين الأكبر أن منزل صاحب المعالي غير بعيد عن مقرِّ الوزارة. «هي مهمة خاصة كما قلت» قال السيد غولیادكين في نفسه. في تلك اللحظة حمل السيد غولیادكين الملفات التي كانت في العربة، ووجّه أمراً للحوذي بالانصراف، ثم دفع الباب فكاد أن يرتطم بوجه السيد غولیادكين الأكبر، وتظاهر بأنه لم يره كي يعبِّر له عن ازدرائه، وصعد أدراج السلَّم بسرعة. «الأمور سيئة لا شكّ، إن القضية لا تزداد إلا تعقيداً فيما يبدو، ما هذا يا إلهي!». بقي واقفاً في مكانه لا يتحرك لحظة، ثم لم يلبث أن اتخذ قراراً، فجرى خلف صديقه السابق على السلَّم فوراً وقلبه يخفق خفقاناً شديداً. «آه، لست أبالي بما قد

يحدث، لست أبالي. . . لا يهمني في شيء ما قد يحدث، لا دخل لي في هذه القضية» قال في نفسه وهو يخلع قبّعته ومعطفه وجرموقه في قاعة حفظ الملابس.

كان الغسق قد خيّم على المكتب حين دخل السيد غوليادكين. كان المكتب خالياً من أندريه فيليبوفيتش وأنطون أنطونوفيتش اللذين كانا قد ذهبا إلى مكتب المدير لتقديم تقريرَيهما، أما المدير فغادر مكتبه، بحسب ما يروج، وتوجّه مسرعاً إلى مكتب الوزير. وكان عدد من الموظفين، خاصة الشباب، قد استغلوا حلول الظلام وغياب رؤسائهم، فتقاعصوا عن أعمالهم، وانصرفوا إلى الثرثرة، والجدال، والضحك، في جماعات صغيرة متفرقة، بل إن من بين الموظفين الشباب، خاصة أولئك الذين هم في أدنى رتب السلَّم الإداري، من استغلوا الفوضى السائدة، فشرعوا يلعبون في أحد أركان الغرفة قرب النافذة لعبة «الوجه أم القفا». فما كان من السيد غوليادكين، الذي يعرف جيداً قواعد التعامل في الإدارة، إلا أن أخذ يقترب من هذه الجماعة وتلك ممن يرتاح في التعامل معهم، ويحييهم بحرارة مدفوعاً بغمرة عارمة في التقرب إليهم. إلا أن زملاءه كانوا يردون عليه بتحايا لا تخلو من غرابة. فاستغرب السيد غوليادكين من البرودة التي عاملوه بها، ومن غلظتهم، والقساوة التي استقبلوه بها. لم يمد له أحد يده. واكتفى البعض بأن قال: «طاب يومك»، ولم يزد البعض الآخر عن أن حيّاه بحركة من رأسه، ومنهم من أعرض عنه تماماً متظاهراً بعدم رؤيته، بل إن بعضاً من الشباب الذين هم في أدنى رتب السلَّم الإداري (وهو ما أغاظ السيد غوليادكين أكثر)، بل إن بعضاً من الصبيان الذين لا يجيدون غير لعبة «الوجه أم القفا» والتسكُّع في الأماكن المشبوهة على حدِّ تعبير السيد

غوليادكين، تجمّعوا حوله شيئاً فشيئاً إلى أن طوّقوه تماماً وأخذوا ينظرون إليه نظرات مليئة بالفضول والاحتقار.

أحسَّ السيد غوليادكين أن الموقف ينذر بسوء، لكنه قرّر أن يتعامل معه تعامل رجل عاقل، وذلك بأن يتظاهر بأنه لم يلحظ أي شيء. إلا أن حادثاً لم يكن في الحسبان قط أفسد عليه خطته، وزاد من محنته.

وسط جماعة من الشباب الذين كانوا قد تحلّقوا حوله، وفي أشد اللحظات قسوة بالنسبة إلى السيد غوليادكين، ظهر السيد غوليادكين الأصغر فجأة، مرحاً كان على عادته دائماً، ومبتسماً على عادته دائماً، ساخراً على عادته دائماً، باختصار: لقد كان ساخراً، مرحاً، حاضر البديهة، سريع الجواب خفيف الخطى على عادته دائماً، على ما كان عليه دائماً، مثل ما كان في جلسة الأمس مثلاً، تلك الجلسة التي خلّفت في نفس السيد غوليادكين الأكبر مرارة قاسية. كان ينتقل من جماعة إلى أخرى مبتسماً، ساخراً، خفيفاً، لا تبرح الابتسامة وجهه، ابتسامة كأنها تحية موجّهة لكل من يلقاه، ويشد على يد هذا، ويربت على كتف ذاك، ويعانق عناقاً خفيفاً موظفاً ثالثاً، ويشرح لرابع المهمة التي كلّفه بها صاحب المعالي، وانتهى بأن قبّل موظفاً، يبدو أنه أعز أصدقائه، على فمه... باختصار: لقد جرى كل شيء على نحو ما رآه السيد غوليادكين في حلمه. وفجأة، وبعد أن انتهى السيد غوليادكين الأصغر من الرياء والمداهنة، بعد أن خصَّ كل الموظفين باهتماماته الزائفة المغرضة، بدا وكأنه قد انتبه إلى وجود السيد غوليادكين الأكبر الذي كان قد ألهاه عن وجوده انشغاله بمن حوله من الموظفين، فمدَّ يده للسيد غوليادكين الأكبر مصافحاً. وسرعان ما شدّ بطلنا على اليد التي مدّت

إليه فجأة بحرارة وقوة وودّ وانفعال، رغم ما شاهده من ألاعيب السيد غوليادكين الأصغر وتملقاته ومداهناته. فهل أقدم على ما أقدم عليه لأنه فوجئ بالسرعة التي مُدّت بها يد صديقه الوقح، أم لأنه وُضع أمام الأمر الواقع، أم أنه كان يعي في قرارة نفسه أنه أقل مكانة، ويحس بالنقص إزاء السيد غوليادكين الأصغر؟ من الصعب أن نجيب جواباً محدداً. ومهما يكن من أمر، فإن السيد غوليادكين الأكبر شد على يد ذاك الذي يصفه بأنه عدوه بكامل وعيه، وبملء إرادته. لكن، ما أشد ما شعر به السيد غوليادكين الأكبر من ذهول وغضب، وحنق، وخجل، حين عمد عدوه اللدود الوقح السيد غوليادكين الأصغر ببرود ودون تردد، بعد أن أدرك الخطأ الذي وقعت فيه ضحيته البريئة، إلى سلّ يده من يد السيد غوليادكين، بل إلى ما هو أبعد من ذلك إذ أخذ ينفض يده وكأنه يريد أن يطهّرها من نجس علق بها دون أدنى إحساس بالحياء، وبوقاحة وفظاظة فظيعين، ثم بصق على الأرض جانباً. ولم يكتفِ بذلك كله فأخرج من جيبه منديلاً وشرع يمسح أصابعه الواحدة تلو الأخرى، تلك الأصابع التي صافحها قبل هنيهة السيد غوليادكين الأكبر. وبينما هو كذلك إذ أخذ، على عادته السيئة، ينقل ناظريه عامداً بين الموظفين كي لا يفوتهم سلوكه وتصرفاته، وكي يدعوهم إلى مباركة سلوك لا يطيقه السيد غوليادكين الأكبر. ويبدو أن سلوك السيد غوليادكين الأصغر المنفر واجهه جميع الموظفين بمن فيهم الشبّان باستنكار، فأخذوا يهمهمون ويدمدمون معبّرين عن نفورهم واستيائهم. لم يفت السيد غوليادكين أن يلاحظ ردّ فعلهم. لكن مزحة صغيرة، وغير متعمدة فيما يبدو، انفلتت من فم السيد غوليادكين الأصغر فبدّدت آخر آمال بطلنا، وأمالت كفة الميزان مرة أخرى إلى صالح عدوه اللدود.

«إنه فوبلاس الروسي، اسمحوا لي، أيها السادة، أن أقدم إليكم الفتى فوبلاس[1]»، قال السيد غوليادكين الأصغر وهو يقفز ويكردح بين الموظفين، على عادته الوقحة، ويشير إلى السيد غوليادكين الأكبر الذي تجمّد في مكانه من شدة الغضب. «هيا، بالأحضان يا حبيبي». أردف بألفة بغيضة وهو يتقدم نحو الرجل الذي أهانه. ويبدو أن مزحة السيد غوليادكين الأصغر الوقحة استقبلت بما سعت إليه من ترحاب، لا سيما أنها كانت تلمّح تلميحاً وقحاً إلى حادث يبدو أن جميع الناس يعرفونه. أحس بطلنا أن الموقف يثقل كاهله. فما كان منه إلا أن اتخذ على الفور قراراً مفاجئاً، فأخذ يدفع الموظفين من حوله وقد اصفرّ وجهه، متوجّهاً نحو مكتب صاحب المعالي بخطى مترنّحة. فلما وصل إلى الحجرة المجاورة لحجرة صاحب المعالي، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام أندريه فيليبوفيتش الذي كان خارجاً لتوه من مكتب صاحب المعالي. وعلى الرغم أن الحُجرة كانت مليئة بعدد من الموظفين لا يكاد السيد غوليادكين يعرف عنهم شيئاً، فإنه لم يهتم بوجودهم، وتوجّه نحو مكتب أندريه فيليبوفيتش مباشرة، وبشجاعة أثارت دهشته وهنّأ نفسه عليها.

- ها... ماذا... ماذا تريد؟ سأله رئيس القسم أندريه فيليبوفيتش الذي لم يسمع شيئاً من الكلام المضطرب الذي صدر عن السيد غوليادكين.

- أنا يا أندريه فيليبوفيتش... أنا أريد... هل أستطيع أن

---

(1) بطل رواية مغامرات الفارس العاشق دو فوبلاس لكاتبها جون-بابتست لوفي دو كوفراي، وقد نشرت بين سنوات 1787-1790.

ألتمس حديثاً من صاحب المعالي على الفور؟ قال بطلنا بصوت رصين واثق وهو يحدّق في أندريه فيليبوفيتش بنظرة مصمِّمة.

- ماذا تقول يا سيدي العزيز؟ طبعاً لا. قال السيد أندريه فيليبوفيتش وهو ينظر إلى السيد غوليادكين من رأسه إلى قدميه.

- أنا أطلب تلك المقابلة، يا أندريه فيليبوفيتش، كي أزيل النقاب عن وجه مغتصب حقير.

- ماذا تقول؟

- أقول: حقير، يا أندريه فيليبوفيتش.

- من تعني؟

- أعني شخصاً بعينه يا أندريه فيليبوفيتش... أعني شخصاً معيّناً يا أندريه فيليبوفيتش... وإني لعلى حقّ... وأعتقد يا أندريه فيليبوفيتش أن رؤساءنا ينبغي أن يشجّعوا مثل هذه المبادرات... أضاف السيد غوليادكين الذي يبدو أنه لم يعد يتحكم في نفسه. لي اليقين يا أندريه فيليبوفيتش أنك تفهم معنى مبادرتي هذه، إنها مبادرة كريمة وتكشف عن نواياي الطيبة... التي تحثّني على أن أتوجّه إلى رئيسي كما لو أنني أتوجّه إلى أب... أقصد أني أعتبر رئيسي الساهر على رعايتنا كأبٍ أضعُ بين يديه الكريمتَين مصيري... سوف أقول له... سأقول له... وانكسر صوت السيد غوليادكين عند هذا الحد، واحمرّ وجهه، وسقطت دمعتان من عينَيه.

بهت أندريه فيليبوفيتش لما سمعه من السيد غوليادكين ورآه إلى درجة أنه تراجع خطوة أو خطوتين إلى الوراء من دون شعور، وأخذ يتطلع حواليه... إنه لمن الصعب أن نتصور كيف كان المشهد سينتهي... لكن باب مكتب صاحب المعالي انفتح فجأة، وإذا بصاحب المعالي نفسه يخرج من مكتبه محاطاً بعدة موظفين. فتبعه كل

من كان في الحُجرة. أشار صاحب المعالي إلى أندريه فيليبوفيتش فمضى نحوه، وسارا جنباً إلى جنب يحدثه عما له علاقة بالعمل. عندما فرغت الحُجرة من الموظفين، استعاد السيد غوليادكين وعيه. ثم استعاد هدوءه بعد ذلك، فمضى خلف أنطون أنطونوفيتش الذي كان يسير في آخر الموكب مهموماً متجهّماً. «آخ. . . يبدو أني أخطأت مرة أخرى. . . لم أحسن التصرف فيما يبدو. . . لكن، لا بأس. . . لا يهم»، قال السيد غوليادكين في نفسه.

– آمل أن تستمع إلي أنت على الأقل يا أنطون أنطونوفيتش، وأن تأخذ حالتي بعين الاعتبار. قال السيد غوليادكين بصوت خافت مرتعش من الانفعال. لا أحد يريد أن يشرح لي، لذلك أتوجّه إليك. إنني حتى الآن لم أستطع أن أفهم ما قاله أندريه فيليبوفيتش يا أنطون أنطونوفيتش. هلّا شرحت لي ما قاله إذا كان ذلك ممكناً. . .

– سيعرف كل شيء في حينه. قال أنطون أنطونوفيتش بلهجة قاسية، وبشكل متقطّع، كي يفهم السيد غوليادكين أنه غير راغب في مواصلة الحديث معه. على كل حال، ستعرف كل شيء قريباً. ستبلغ بكل شيء اليوم بشكل رسمي.

– ماذا تقصد بقولك «بشكل رسمي» يا أنطون أنطونوفيتش؟ لماذا تقول هذه العبارة بالذات وليس غيرها؟ سأله بطلنا خجولاً.

– ليس لنا، أنت وأنا، أن نناقش ما تقرره السلطة العليا يا ياكوف بتروفيتش.

– ما علاقة السلطة العليا بهذا الأمر يا أنطون أنطونوفيتش؟ سأله السيد غوليادكين وقد ازداد خوفه. ما علاقة السلطة العليا بهذا الأمر. لا أرى أي داعٍ لإزعاج السلطة العليا يا أنطون أنطونوفيتش. . . أم تراك تقصد ما حدث أمس يا أنطون أنطونوفيتش؟

- لا يا سيدي العزيز، لا أقصد ما حدث أمس فقط، ولكنني أقصد عدة أشياء أخرى غير محمودة في تصرفاتك.

- وما هي تلك الأشياء غير المحمودة في تصرفاتي يا أنطون أنطونوفيتش؟ لا أعتقد أن في تصرفاتي ما يمكن أن ينعت بغير المحمود يا أنطون أنطونوفيتش...

- مع من كنت تنوي أن تتآمر؟ قاطعه أنطون أنطونوفيتش بصرامة أدهشت السيد غوليادكين وجعلته يرتعش ويصفرّ اصفراراً شديداً.

- طبعاً يا أنطون أنطونوفيتش، قال السيد غوليادكين بصوت يكاد لا يسمع، إذا لم يُستمع إلا إلى وشايات الأعداء، دون الإصغاء إلى ردود الطرف الآخر، فمن الطبيعي عندئذٍ... نعم من الطبيعي في هذه الحالة يا أنطون أنطونوفيتش أن يُدان البريء وأن يعاني دون أن يرتكب ما يستحق عليه الإدانة.

- ها... هكذا إذاً... وما قولك، سيدي العزيز، في تصرفك غير اللائق مع فتاة شريفة محترمة غمرتك أسرتها بكل أنواع الخيرات؟

- عن أي تصرف تتحدث يا أنطون أنطونوفيتش؟

- ها... أرى أنك ما زلت تصرُّ على براءتك... فما قولك أيضاً في تصرفك مع فتاة أخرى ليست من أسرة ميسورة لكنها محترمة؟

- اسمح لي يا أنطون أنطونوفيتش... امنحني فرصة للكلام من فضلك يا أنطون أنطونوفيتش...

- وما قولك في تصرفك الدنيء ووشاياتك بشخص آخر، واتهامك إياه بأفعال أنت مقترفها في الواقع؟ هه، قل لي؟...

- أنا لم أطرده من منزلي يا أنطون أنطونوفيتش، قال السيد

غوليادكين مرتعشاً، ولم آمر بتروشكا، أقصد خادمي بتروشكا، بأن يفعل ذلك... لقد شاركني طعامي يا أنطون أنطونوفيتش واستفاد من حسن ضيافتي... أضاف السيد غوليادكين بصوت راغب في الإقناع، منفعل إلى درجة أن ذقنه أخذت ترتعش، فصار على حافة البكاء.

- لم أسمع أحداً غيرك يقول إنه شاركك الطعام يا ياكوف بتروفيتش، قال أنطون أنطونوفيتش بنبرة من السخرية بحيث أن السيد غوليادكين أحس بقلبه ينقبض.

- اسمح لي يا أنطون أنطونوفيتش أن أسألك بكل تواضع: هل صاحب المعالي على علم بهذه القضية كلها؟

- طبعاً... والآن دعني... ليس لديّ من الوقت ما أضيعه... ثم إنك ستبلّغ اليوم بكل ما يجب أن تبلّغ به.

- دقيقة أخرى من فضلك يا أنطون أنطونوفيتش... أتوسل إليك أن تمنحني دقيقة أخرى فقط...

- سنتحدث عن كل ذلك فيما بعد...

- لا، أرجوك يا أنطون أنطونوفيتش... استمع إليّ يا أنطون أنطونوفيتش... اسمح لي أن أقول لك أني لست من أنصار الأفكار الحرة يا أنطون أنطونوفيتش... أنا أتحاشى كل ما يدعو إلى الانحراف، وإني لمستعد أن... بل إني لأؤمن بأن...

- طيب، طيب يا عزيزي، لقد سبق وأن قلت لي هذا الكلام...

- لا، أرجوك يا أنطون أنطونوفيتش، ليس هذا هو الكلام الذي سبق وأن قلته. لقد قلت كلاماً آخر غيره يا أنطون أنطونوفيتش، كلاماً طيباً، طيباً تماماً، كلاماً يسرُّ من يسمعه... سبق وأن قلت يا

أنطون أنطونوفيتش أن الرب شاء أن يخلق شخصَين متشابهَين تشابهاً تاماً، متشابهَين تماماً، وأن رؤساءنا الكرام لمّا أدركوا صنيع الرب ومشيئته، شملوا برعايتهم التوأمين معاً... إنه عمل طيب يا أنطون أنطونوفيتش، لا شكّ أنه عمل طيب يا أنطون أنطونوفيتش. إنني بعيد عن الأفكار الحرّة، كما ترى. وأعتبر أن رؤساءنا في مقام آبائنا. هذا هو رأيي... أقصد أن كل شاب يحتاج إلى عمل، ويحتاج إلى كرم رؤسائنا الذين هم في مقام آبائنا... أعتقد أن كلامي واضح، واضح تماماً يا أنطون أنطونوفيتش... كُن سنداً لي يا أنطون أنطونوفيتش... أعني يا أنطون أنطونوفيتش أني... أقصد أني لم أفعل سوءاً يا أنطون أنطونوفيتش... لا، لا تنصرف أرجوك، واسمح لي أن أضيف... كلمة واحدة من فضلك يا أنطون أنطونوفيتش...

لكن أنطون أنطونوفيتش كان قد ابتعد... أما السيد غوليادكين فلم يعد يعرف أين هو، ولا ما سمعه، ولا ماذا يفعل، ولا ماذا صُنع به، ولا ماذا سيُصنع به بعد. لقد كان مضطرباً تماماً جراء ما سمعه وما أصابه قبل قليل.

وأخذ يبحث من بين الموظفين عن أنطون أنطونوفيتش بنظرة راجية، كي يبرئ نفسه أكثر من ذي قبل، كي يقول له بضع كلمات طيبات أخرى، كلمات تعبِّر له عن نبله وطيبته... وفيما هو كذلك إذا بشعاع جديد قد أخذ يضيء ما بداخله من اضطراب وفوضى، شعاع جديد مرعب يكشف له فجأة عن آفاق فسيحة لأحداث لم تكن في الحسبان، بل لم تكن متوقعة على الإطلاق قبل ذلك... في تلك اللحظة أحس بطلنا الذي كان مضطرباً تماماً بشخص ما يصدمه في خاصرته. التفت فرأى بيسارنكو.

- خذ، هذه الرسالة لك يا صاحب النبالة.

- ها... لقد أوصلت رسالتي إذاً أيها الرجل الطيب.

- لا، إنها رسالة حملت إلى هنا في الساعة العاشرة صباحاً يا سيدي. العون سيرج ميخاييف هو من حملها من سكرتير القسم فاخرماييف.

- طيب أيها الرجل الطيب، سأكافئك على هذا أيها الرجل الطيب.

دسّ السيد غولياذكين الرسالة في جيب بدلته، وعقد كل أزرارها؛ ثم أخذ ينظر حوله، واندهش اندهاشاً كبيراً لمّا رأى أنه كان في بهو الوزارة وسط الموظفين الذين كانوا يهرعون نحو الباب لأن ساعة الخروج ومغادرة العمل كانت قد حلّت. لم يلحظ السيد غولياذكين ذلك، بل لم يتذكر أنه كان قد ارتدى معطفه، وانتعل جرموقَيه، وحمل قبعته في يده. كان كل الموظفين واقفين في أماكنهم لا يبرحونها، منتظرين بانتظام لحظة خروجهم. وذلك لأن صاحب المعالي كان قد وقف في نهاية السلَّم ينتظر عربته التي تأخّرت لسبب من الأسباب، ويتحدث حديثاً مهماً مع أندريه فيليبوفيتش واثنين من مستشاريه. وكان أنطون أنطونوفيتش يقف خلف المستشارين وأندريه فيليبوفيتش وبعض الموظفين الذين كانوا يبتسمون بطلاقة لأن صاحب المعالي كان يضحك ويمزح. وكان الموظفون في أعلى السلَّم يبتسمون أيضاً، ويترصّدون لحظة ضحك صاحب المعالي كي يعودوا إلى الابتسام مرة أخرى. وحده البواب البدين فيدوسيتش لم يشارك في الابتسام، وبقي واقفاً في مكانه كالعسكري، منتظراً بفارغ صبر أن يحصل على حصته اليومية المعتادة من المتعة. وتتلخص تلك المتعة في أن يفتح أحد مصراعي الباب

بدفعة واحدة، وأن يدع صاحب المعالي يمرّ بينما هو ينحني له كالقوس. ويبدو أن الشخص الذي كان يشعر بأكبر قدر من السرور والرضا هو عدو السيد غوليادكين اللدود الخبيث. كان في تلك اللحظة قد تجاهل كل الموظفين، وتخلّى عن التنقل بينهم مازحاً على عادته الكريهة، بل تخلّى حتى عمّا عرف عنه من استغلال للمواقف والأوقات المناسبة كي يتقرّب منهم ويتزلّف لهم، ويمدحهم. كان قد انصرف تماماً إلى الاهتمام بصاحب المعالي دون غيره، وذلك بأن اقترب ما أمكنه الاقتراب من المكان الذي يقف فيه صاحب المعالي مركّزاً ناظريه عليه، مرهفاً السمع لكل ما يقوله، جامداً في مكانه لا تصدر عنه إلا بضع حركات تشنجية تفضح كل ما يفتعل بداخله من أسرار.

«أنظروا إليه، يا له من وغد!...»، قال السيد غوليادكين في نفسه، «آه كم أود لو أعرف أسباب نجاحه بين علية الناس. إنه لا يملك لا فكراً، ولا سلوكاً مميزاً، ولا ثقافة، ولا عاطفة صادقة... إنه محظوظ. يا له من غدّار. آه، يا إلهي... ما أغرب أن يصل إنسان كهذا إلى ما يصبو إليه، وأن ينال ثقة الجميع! أُقْسِم أنه سيستمر في الترقّي، وأنه سيحقق ما يصبو إليه، يا له من وغد.... سيحقق أهدافه لا ريب... الأنذال محظوظون دائماً... آه، لكم أود أن أعرف ماذا يهمس في آذانهم، كم أود أن أعرف السرّ المشترك بينهم جميعاً الآن يا إلهي... كم أود أن أمضي إليه وأقول له... وأقول له إنني أخطأت... وأن من حقّ كل شاب في زماننا هذا أن يعمل يا صاحب المعالي... أما عن وضعي أنا في العمل فهو لا يسرّ، ولكنني لا أحتج... ولن أحتج أبداً وبأية طريقة من الطرق، وسأتحمل كل شيء منذ اليوم بصبر وخضوع... ترى، أهذه

هي الطريقة الصحيحة في التعامل معه؟ أهذا ما ينبغي أن أفعله؟ نعم، إنها الطريقة الصحيحة في التعامل في مثل هذه المواقف، ولكنها لا تصلح للتعامل مع هذا الوغد الغدّار... الكلمات لا تؤثر في مثل هذا الصنف من البشر. مستحيل أن تقنع بالعقل شخصاً عنيداً مثله... ولكن لنحاول رغم ذلك. من يدري، فقد تكون هذه الفرصة مناسبة... فلأحاول إذاً...».

أحس السيد غوليادكين، وهو في ما هو عليه من حيرة وتردد وقلق، أنه لا يمكن أن يبقى على تلك الحال، وأن اللحظة الحاسمة قد حلّت، وأن عليه أن يفاتح أحداً في الأمر. وما إن أقدم على أن يتزحزح من مكانه متوجِّهاً نحو ذلك الوغد الغدّار، حتى سمع قرقعة عربة صاحب المعالي وهي تقترب... لقد وصلت بعد طول انتظار... فتح فييدوسيتش الباب وهو ينحني كالقوس، وأفسح الطريق لصاحب المعالي كي يمر. اندفع كل المنتظرين نحو الباب دفعة واحدة، فأدّى اندفاعهم الجماعي إلى إبعاد السيد غوليادكين القديم عن السيد غوليادكين الجديد. «لن تفلت مني» قال السيد غوليادكين في نفسه وهو يشق صفوف الموظفين بذراعيه ويتابع بناظريه ذاك الذي لا ينبغي أن يغيب عن ناظريه. تفرّق الجمع أخيراً، وشعر بطلنا أن اللحظة المناسبة قد حلّت، فأسرع يلاحق عدوه.

الفصل الحادي عشر

كان السيد غوليادكين يلهث ملاحقاً عدوه الذي أخذ يبتعد مسرعاً. كان يحس بنشاط وحيوية عظيمَين. ومع ذلك، ورغم ذلك النشاط وتلك الحيوية، فإن كل شيء يحمل على الاعتقاد أنه كان في وسع ذبابة في تلك اللحظة أن توقعه على الأرض برفّة واحدة من جناحيها، هذا إذا كان للذباب وجود في بطرسبورغ في مثل هذا الطقس طبعاً. كان السيد غوليادكين يحس أنه قد أنهكَ تماماً وتعب تعباً شديداً، وأنه، على الرغم من ذلك، مدفوع إلى مواصلة ملاحقة عدوه بقوة غريبة تماماً ومستقلّة عن جسمه كل الاستقلال. ولولا تلك القوة الغريبة عن جسده لما تمكّن من مواصلة مطاردة عدوه، لأن ساقيه كانتا لا تقويان على حمله وتأبيان أن تطيعاه. وعلى كل حال، ما زال بالإمكان أن تسوّى الأمور على أحسن وجه. «على أحسن وجه، أو على أسوأ وجه»، قال السيد غوليادكين وهو مستمر في ملاحقة عدوه منقطع الأنفاس... «لقد ضاعت قضيتي، هذه هي الحقيقة دون أدنى شكّ، الحقيقة التي لا مفرّ منها». ومع ذلك، أحس، في اللحظة التي لحق بعدوه وأمسك بطرف معطفه حين نادى على عربة وهمّ أن يركبها بعد أن طلب من الحوذي أن يأخذه إلى

حيث يريد الذهاب، أحس كما لو أنه بُعث من جديد، كما لو حقق نصراً كبيراً، كما لو أنه قريب من حسم المعركة.

- سيدي العزيز، سيدي العزيز، صاح السيد غوليادكين قائلاً للسيد غوليادكين الأصغر بعد أن أمسك به، سيدي العزيز، آمل أن...

- لا، لا تأمل شيئاً، أرجوك... أجابه عدوه اللدود متهرِّباً بعد أن وضع إحدى قدميه في العربة محاولاً، بكل ما أوتي من قوة، أن ينقل قدمه الثانية إلى داخل العربة، وساعياً إلى الحفاظ على توازنه وعلى أن يفلت معطفه من يد السيد غوليادكين القديم في الوقت نفسه. غير أن هذا الأخير تشبّث به بكل ما يملك من قوة.

- عشر دقائق فقط يا ياكوف بتروفيتش...

- آسف، لا وقت لديّ...

- أرجوك يا ياكوف بتروفيتش... أرجوك... أتوسل إليك يا ياكوف بتروفيتش... استمع إليّ لحظة من فضلك يا ياكوف بتروفيتش... يجب أن نتفاهم... أن نطرح الموضوع بشجاعة... بشجاعة يا ياكوف بتروفيتش... لحظة فقط يا ياكوف بتروفيتش...

- لا وقت لديّ يا عزيزي. أجاب عدو السيد غوليادكين بألفة ووقاحة، متظاهراً بطيبة عميقة... دع هذا ليوم آخر... صدقني... سيسرّني أن أستمع إليك بصدر رحب، لكن ليس الآن... بصراحة، مستحيل أن أستمع إليك الآن.

«يا له من لئيم!» قال بطلنا في نفسه.

- لم أكن عدوك في يوم من الأيام يا ياكوف بتروفيتش. إن أولئك الأشرار هم من يتهمني بما لم أقترف... وأنا الآن مستعد يا ياكوف بتروفيتش... نعم مستعد تماماً... ما رأيك أن نذهب إلى

مكان ما حيث نستطيع أن نتفاهم. . . هناك نستطيع أن نتصارح على حدّ تعبيرك الصائب، أن نتصارح بكل نبل. . . ما رأيك في هذا المقهى؟ سترى كيف أن كل شيء سيصبح واضحاً تماماً، نعم سيتضح كل شيء تماماً يا ياكوف بتروفيتش. . . فأنا متأكد من ذلك.

- في هذا المقهى؟ لا مانع عندي. . . لندخل إلى هذا المقهى، لكن بشرط يا عزيزي الغالي، بشرط واحد: أن يتضح كل شيء تماماً. . . أجاب السيد غوليادكين الأصغر وهو يربت على كتف بطلنا بوقاحة. آه أيها الرفيق، آه منك أيها الرفيق. . . إنني مستعد لأن أسير في هذا الطريق الضيق من أجلك. . . هل تتذكر ذلك الطريق يا ياكوف بتروفيتش؟ آه، ما أخبث هذا الياكوف بتروفيتش، إنه يستطيع أن يفعل بي ما يشاء. أردف الصديق المزوّر وهو يبتسم ابتسامة مبتسرة ويدور حوالي السيد غوليادكين.

كان المقهى الذي يقع بعيداً عن كل الشوارع الكبرى في العاصمة فارغاً تماماً حين دخل السيدان غوليادكين. ما أن سمع رنين جرس فتح الباب حتى ظهرت خلف المصطبة امرأة ألمانية بدينة. مضى السيد غوليادكين وعدوه اللدود نحو الغرفة المجاورة حيث كان صبي بدين حليق الرأس يتحرك حول المدفأة محاولاً أن يؤجّج بشيء من النشارة ناراً تكاد أن تكون خامدة. وجيء للزبونَين بقدحين من الشوكولاتة تنفيذاً لطلب السيد غوليادكين.

- امرأة جذابة، أليس كذلك؟ قال السيد غوليادكين الأصغر وهو يغمز السيد غوليادكين غمزة فاجرة.

احمرّ بطلنا ولم يجب بشيء.

- ها. . . معذرة، لقد نسيت تماماً. . . أنا أعرف ذوقك جيداً. نحن من عشاق الألمانيات رشيقات القوام يا ياكوف بتروفيتش. نعم

يا عزيزي، فنحن، أنت وأنا، ميالان إلى ذوات القدود النحيلة المغرية... نستأجر لديهنّ غرفة، ثم نغويهنّ، ونمنحهنّ قلوبنا مقابل حساء البيرة، وحساء اللبن[1]، ونوقّع لهنّ بعض السندات بالمقابل... هكذا أنت أيها الفوبلاس، أيها الغاوي معذّب القلوب.

قال السيد غوليادكين الأصغر كل هذا الكلام -ملمحاً تلميحاً غير مناسب ووقح إلى امرأة بعينها- وهو يلاطف السيد غوليادكين الأكبر ويبتسم له ابتسامات مبتسرة، متظاهراً بأنه سعيد بالتواجد معه في ذلك المكان. لكنه حين أدرك أن السيد غوليادكين الأكبر ليس من الغباء والسذاجة وقلة الخبرة بحيث تنطلي عليه مثل تلك الحيل والألاعيب، قرر أن يغير خطته، وأن يلعب بأوراق مكشوفة. فما أن انتهى من كلامه الخبيث وأسلوبه الوقح حتى أخذ يربت على كتف السيد غوليادكين الأكبر بطريقة مثيرة للغضب، ولم يكتفِ بذلك وتمادى في رفع الكلفة بينهما بأن عاد إلى ممازحة بطلنا بتلك الطريقة الفجّة المثيرة للحنق. ولكنه لم يرعَ وأراد أن يكرّر فعلته الكريهة التي فعلها أمس حين قرص وجه السيد غوليادكين الأكبر، وذلك رغم ما أبداه هذا الأخير من نفور وتبرم واحتجاج. أمام هذا الإصرار على مثل هذه التصرفات القبيحة الوقحة، أحس بطلنا بالدم يغلي بداخله، لكنه لزم الصمت... لبعض الوقت طبعاً.

- هذا ما يزعمه أعدائي. أجاب السيد غوليادكين الأكبر أخيراً بصوت لم يكن قد تخلّص من أثر الاضطراب بعد، رغم الجهد الذي

---

(1) Biersuppe وMilchsuppe. وردت الكلمتان بالألمانية في النص. ومعلوم أن دوستويفسكي كان يجيد اللغتَين الألمانية والفرنسية.

بذله كي يسيطر على غضبه كل السيطرة. قال ذلك وهو يلقي نظرة قلقة نحو الباب. كان يخشى أن يدفع مرح السيد غوليادكين الأصغر وطلاقته في تلك اللحظة، إلى أن يندفع مواصلاً مزاحه، فتصدر عنه مزحة ما لا تُحمل في مثل ذلك المكان العام الذي يقصده الناس المحترمون.

- طيب، ما دام هذا هو رأيك فليس لديّ ما أضيفه... والآن قل لي كيف حالك يا ياكوف بتروفيتش؟ أجاب السيد غوليادكين الأصغر على ما قاله السيد غوليادكين الأكبر بعد أن وضع الكأس التي كان قد شربها بشراهة لا تُحتمل.

- لن أقول لك إلا شيئاً واحداً يا ياكوف بتروفيتش، وهو أنني لم أكن عدوك في يوم من الأيام. أجاب السيد غوليادكين الأكبر بهدوء ووقار.

- همم... طيب، وماذا عن بتروشكا؟ أهذا هو اسمه؟... نعم، هو ذاك... كيف حاله إذاً؟ هل هو بخير؟ أما زال على ما كان عليه من قبل؟

- نعم، بخير، كما كان من قبل يا ياكوف بتروفيتش، أجاب السيد غوليادكين الأكبر وقد اندهش قليلاً. لا أعرف ماذا يجب أن أقول يا ياكوف بتروفيتش... ولكنني من جهتي... وبكل صدق ونبل... أنت تعرف كل شيء يا ياكوف بتروفيتش... ولا داعي لأن أضيف شيئاً...

- نعم، أكيد، أنت تعرف يا ياكوف بتروفيتش أننا نعيش في زمن صعب... قال السيد غوليادكين الأصغر بصوت عذب معبِّر، متقمّصاً هيئة شخص حزين متأسف، جدير بأن نتعاطف مع رأيه... ما رأيك يا ياكوف بتروفيتش، ما رأيك أنت أيها الرجل الذكي الذي

يفكر في الأمور بعقل نزيه رزين، أليست الحياة لعبة؟ أضاف السيد غوليادكين الأصغر مداهناً السيد غوليادكين الأكبر بحقارة. ما الحياة إلا لعبة يا ياكوف بتروفيتش، وأنت تعرف ذلك جيداً. . . ختم السيد غوليادكين الأصغر كلامه مقلّداً بطريقة كلامه عمق التفكير لدى رجل ذكي مثقّف، قادر على أن يعبِّر عن رأيه في كل المواضيع الراقية، والقضايا الشائكة.

- سأكلمك من جهتي يا ياكوف بتروفيتش بلغة صريحة، ولن أحاول أن ألف وأدور. سأقول لك بكل صدق وشجاعة واستقامة ونبل، سأقول لك وأؤكد ما أقول: إني بريء تماماً. . . نعم يا ياكوف بتروفيتش، أؤكد لك أني بريء. ثم إنك تعرف أني رجل طيب يا ياكوف بتروفيتش. القضية كلها يا ياكوف بتروفيتش مجرد خطأ من الطرفَين، خطأ فاقمَتهُ أحكام المجتمع، وأحكام بعض الناس العبيد. . . أقول لك ذلك بصراحة يا ياكوف بتروفيتش. . . كل شيء ممكن في هذه الحياة يا ياكوف بتروفيتش. . . وأقول لك أيضاً يا ياكوف بتروفيتش أننا إذا نظرنا إلى القضية من وجهة نظر صادقة رفيعة وسامية، فبوسعي أن أؤكد لك عندئذٍ، بشجاعة ودون أدنى خجل، بل سيسرّني أن أعترف لك يا ياكوف بتروفيتش بأنني قد أخطأت. . . نعم، سيسرّني أن أعترف بذلك، وإنك لتعرف ذلك أيها الرجل الذكي النبيل. نعم، إنه ليسرني أن أعترف بذلك دون تردد أو خجل. . . ختم بطلنا قائلاً برفعة ونبل.

- لنترك الكلام عن المصير، وعن القدر يا ياكوف بتروفيتش، لنترك مثل هذه الأشياء جانباً. . . قال السيد غوليادكين الأصغر وهو يتنهّد. ولنستغل هذه اللحظات القصيرة في حديث أكثر نفعاً وإمتاعاً، كما يليق بزميلَين. . . إنك لم تمنحني فرصة أن أتبادل معك الحديث

طوال هذا الوقت. . . وليس الخطأ خطئي في هذه الحالة يا ياكوف بتروفيتش. . .

- وليس خطئي أنا أيضاً يا ياكوف بتروفيتش، قاطعه بطلنا بحماسة، ليس الخطأ خطئي. . . قلبي يحدّثني بأن لا ذنب لي في كل ما حصل يا ياكوف بتروفيتش. فلنحمّل القدرَ مسؤولية كل ما وقع يا ياكوف بتروفيتش. . . أضاف السيد غوليادكين الأكبر بنبرة داعية إلى المصالحة، وبصوت ازداد وهناً واضطراباً.

- قل لي إذاً: كيف حالك هذه الأيام؟ سأله الفاسد بصوت عذب.

- أعاني من قليل من السعال. . . أجابه بطلنا بصوت أكثر عذوبة.

- حذار، فالأمراض المعدية منتشرة في كل مكان هذه الأيام، وما أسرع ما قد يصاب المرء بالحمّى. . . لا أخفيك أني بدأت ألبس الألبسة الصوفية.

- أكيد يا ياكوف بتروفيتش، ما أسهل أن يُصاب المرء بالحمّى. . . أرى يا ياكوف بتروفيتش. . . أرى أنني أخطأت. . . قال بطلنا بعد صمت خجول. . . وأنني لأتذكر تلك اللحظات من السعادة التي عشناها معاً في منزلي الذي وإن كان متواضعاً فهو لا يخلو من حرارة الضيافة. . .

- ليس هذا ما عبّرت عنه في رسالتك رغم ذلك، قال السيد غوليادكين الأصغر بنوع من اللوم والصدق (نعم، لقد كان صادقاً تماماً في تلك اللحظة).

- لقد أخطأت يا ياكوف بتروفيتش. . . وإنني أرى الآن أني أخطأت في ما كتبته لك في رسالتي. إنني أخجل من النظر إليك يا

ياكوف بتروفيتش. . . صدّقني يا ياكوف بتروفيتش. . . أعد إليّ تلك الرسالة لكي أمزّقها في حضرتك يا ياكوف بتروفيتش، فإن لم يكن ذلك ممكناً فإني لأرجوك أن تعيد قراءتها بشكل مغاير، مغاير تماماً، أقصد حمّلها معاني ضدّ تلك التي وردت فيها. لقد أخطأت. . . فسامحني يا ياكوف بتروفيتش، لقد أخطأت تماماً. . .

- ماذا تقول؟ سأله غوليادكين اللئيم بنوع من اللامبالاة وعدم الاكتراث.

- أقول أني أخطأت تماماً يا ياكوف بتروفيتش، وأنني لمستعد من دون خجل زائف أن. . .

- آه، طيب، حسناً، أنك أخطأت. أجاب السيد غوليادكين الأصغر بفظاظة.

- بل فكرت يا ياكوف بتروفيتش، فكرت ملياً في هذه الفكرة: لقد خلق الرب رجلَين متشابهَين تماما. . . أردف بطلنا بصراحة ودون أن ينتبه إلى مكر صاحبه اللئيم.

- آه. . . هذه هي فكرتك إذاً. . .

قال ذلك ثم نهض وحمل قبّعته. ونهض السيد غوليادكين الأكبر بعده وهو يبتسم له ابتسامة بريئة نبيلة، ويحاول أن يلاطفه ويجامله، وأن يعقد معه أواصر صداقة جديدة، دون أن ينتبه إلى ما في سلوك عدوه من مكر.

- وداعاً يا صاحب النبالة. صاح السيد غوليادكين الأصغر فجأة. انتفض بطلنا حين رأى على وجه عدوه شيئاً باخوسياً[1]، ولكي يتخلص من ذلك الشعور أسرع يضع إصبعَين في يد ذلك

(1) نسبة إلى باخوس إله الخمر عند اليونان. والمقصود أن عدوه كان سكران.

الشخص عديم الأخلاق، تلك اليد التي امتدّت إليه. وفي تلك اللحظة. . . تجاوزت وقاحة السيد غوليادكين الأصغر كل ما يمكن أن نتصوره، إذ شدّ على إصبعَي السيد غوليادكين الأكبر، وكّرر مزحة الصباح. عندئذ نفدت كل مدخرات الصبر الإنساني. . .

في اللحظة التي أعاد السيد غوليادكين الأصغر المنديل بعد أن فرغ من مسح أصابعه، استعاد السيد غوليادكين الأكبر صوابه، فأسرع يلحق بعدوه الذي كان قد مضى إلى الغرفة المجاورة على عادته الكريهة. كان هذا الأخير يقف أمام المصطبة وكأن شيئاً لم يقع، ويلتهم بعض الفطائر المحشوة في هدوء، ويتحدث مع الحلوانية الألمانية ويمازحها كما يفعل الناس المحترمون عادة. «لا أريد فضائح أمام سيدة» قال بطلنا في نفسه وهو يقترب من المصطبة مضطرباً تماماً من شدة الغضب.

- إنها امرأة جذابة حقاً. . . أليس كذلك؟ قال السيد غوليادكين الأصغر عائداً مرة أخرى إلى مزاحه الوقح، معتمداً على صبر السيد غولياديكن الأكبر. أما الألمانية البدينة فكانت تنظر إلى زبونيها بعينَين رماديتَين-زرقاوين لا تعبّران عن شيء، وتبتسم بلطف. كان واضحاً أنها لا تفهم الروسية. احمرّ وجه بطلنا، وأصبح من فرط استيائه من كلمات السيد غولياديكن الأصغر الوقحة عاجزاً عن التحكم في نفسه، فهمّ أن يرتمي عليه كي يمزقه إرباً ويخلص منه إلى الأبد، لكن السيد غولياديكن الأصغر، وعلى عادته الكريهة، كان قد ابتعد متوجّهاً نحو باب المقهى. ذُهل السيد غولياديكن الأكبر من تصرف عدوه مرة أخرى فبقي جامداً في مكانه لا يتحرك، لكن ما لبث أن تخلص من ذهوله فهرع يجري بكل ما يملك من سرعة خلف عدوه. كان هذا الأخير قد صعد إلى العربة التي يبدو أنها كانت في انتظاره.

لا شكّ أن الحوذي كان متواطئاً معه. لكن الألمانية البدينة، حين رأت زبونَيها يلوذان بالفرار، أخذت تصرخ وتدقّ الناقوس بكل ما تملك من قوة. التفت السيد غوليادكين نحوها وهو لا يتوقف عن الركض، ورمى إليها نقوداً دون أن ينتظر أن ترد إليه البقية، واستطاع، رغم تأخره في اللحاق بعدوه، أن يصل إلى العربة. تعلّق السيد غوليادكين بالعربة بكل ما يملك من قوة، وظلّ يتأرجح خارجها ويحاول جاهداً أن يصعد وهي تعدو بكل سرعة، وعدوه يحاول أن يمنعه من ذلك. أثناء ذلك كان الحوذي يحثُّ فرسه على أن تعدو أكثر بالسوط والزمام والركل والصراخ، فإذا بالفرس تشرع في العدو فجأة، عاضة على زمامها رافسة بقائمتَيها الخلفيتَين من حين إلى آخر، على عادتها الكريهة. وتمكّن بطلنا من الصعود إلى العربة أخيراً، وأن يجلس بمواجهة عدوه، مديراً ظهره للحوذي. أمسك السيد غوليادكين الأكبر بيده اليمنى ياقة فراء معطف عدوه التي كانت مهترئة، وجذبه حتى تصادمت ركبتاهما...

استمرت العربة في الجري، وبقي الخصمان متماسكَين صامتَين لحظات. وجدَ السيد غوليادكين الأكبر صعوبة في استرجاع أنفاسه. كان الشارع مليئاً بالحفر، وكانت كل رجّة من رجّات العربة تهدِّد بطلنا بأن يسقط خارج العربة فيصاب بمكروه. وكان عدوه العنيد، من جهته، لا يريد أن يعترف بأنه هزم، ويحاول جاهداً أن يلقيه خارج العربة. وما زاد الطين بلة أن الجو كان سيئاً جداً. كان الثلج يتساقط ندفاً كبيرة ويبذل كل ما في وسعه، هو أيضاً، كي يجد وسيلة للتسرُّب إلى ما تحت معطف السيد غوليادكين الأكبر. والجو مكفهرّ إلى درجة أنه ليس بوسع المرء أن يرى ما يبعد عنه بأكثر من خطوتَين. كان من الصعب أن نتعرف إلى الشوارع التي يمرون منها،

ولا إلى أين يتوجهون. . . وأحس السيد غوليادكين بما يحسه من يحدث له شيء فيعتقد أنه سبق وأن حدث له. فبذل جهداً كي يتذكر إن كان قد حدس وقوع ذلك الشيء أمس في الحلم مثلاً. . . ويلغ به الضيق ذروته حتى أحس وكأنه في آخر لحظات الاحتضار. وكاد يصرخ وهما لا يزالان يتعاركان. لكنه لم يستطع أن يصرخ. . . ثم أتت لحظة تناسى السيد غوليادكين الأكبر خلالها كل شيء، وقرر أن لا يعطي ما يحدث أي اعتبار، وأن يرى كل ما يحدث على أنه يحدث عن طريق الصدفة، وبشكل اعتباطي، وأن الاحتجاج على ما يقع، والحالة هذه، لا طائل من ورائه، ومضيعة للوقت. . . لكن، وفي اللحظة التي حاول بطلنا أن يضع نقطة النهاية لكل ما يحدث، إذا بحركة مفاجئة غير متوقعة تغيّر وجه الأمور. سقط بطلنا من العربة كما قد يسقط كيس طحين وتدحرج لا يدري أين وهو يقول في نفسه لحظة تدحرجه أنه كان قد تحمّس في الوقت غير المناسب. نهض تواً فلاحظ أنهما وصلا إلى أحد الأماكن، كانت العربة قد توقّفت وسط فناء ما، أدرك بطلنا من أول نظرة أنه فناء العمارة التي يقطن فيها أولسوفي إيفانوفيتش. كما أدرك أن رفيقه كان قد صعد السلَّم، وصار قريباً من ولوج منزل أولسوفي إيفانوفيتش. أحس بالقلق فكاد يهرع نحوه كي يمسك به، ولكنه تراجع عمّا كان يعتزمه في الوقت المناسب لحسن الحظ. دفع السيد غوليادكين للحوذي أجره، وخرج إلى الشارع، وأخذ يجري منقطع الأنفاس. كان الثلج لا يزال يتساقط ندفاً كبيرة، والجو على ما كان عليه من اكفهرار ورطوبة. كان يجري قُدماً لا يلوي على شيء، فيصدم بكل من يمضي في طريقه، بالموجيك، والنساء، والأطفال، ويصدمه كل من يجري في طريقهم من موجيك ونساء وأطفال. وكان يسمع خلفه أصوات

المحتجين المرعوبة. . . لكن السيد غوليادكين كان فاقداً وعيه لا يبالي بشيء ممّا في طريقه. . . ولم يستعد وعيه إلا حين وصل إلى جسر سان سيمون، وذلك لأنه كان قد اصطدم ببائعتَين تحملان بضاعتهما، فأسقطهما أرضاً وسقط معهما في اللحظة نفسها. «لا بأس، لم يحدث أي شيء. . . ما زال بالإمكان أن تسوّى الأمور على أحسن وجه»، قال السيد غوليادكين في نفسه وقد وضع يده في جيبه كي يخرج روبلاً يعوّض به البائعتين عمّا فقدتاه من خبز، وتفاح، وجوز، وغيرها ممّا سقط على الأرض عند سقوطهما. . وفوجئ السيد غوليادكين حين لمست يده شيئاً في جيبه، لكنه سرعان ما تذكر أنها الرسالة التي تسلّمها من العون صباحاً، كما تذكر في تلك اللحظة نفسها أنه يعرف مطعماً لا يبعد كثيراً عن مكان تواجده، فجرى نحوه. جلس على الفور خلف مائدة صغيرة تضيئها شمعة، ففتح الرسالة غير مبالٍ بصوت النادل الذي كان قد أتى يسأله عن طلبه، وأخذ يقرأ ما في تلك الرسالة، أخذ يقرأ ما سيعمّق جراحه ويزيد في اضطرابه:

أيها الإنسان الكريم، العزيز على قلبي،

أنت يا من تتألم من أجلي،

إنني أتألم، إنني أتعذب. . . فأنقذني. إن رجلاً مفترياً، متآمراً، معروفاً بنواياه الأنانية، قد أوقعني في أحابيله، لقد صرت أسيرة شباكه ولكنني أبغضه. . . أما أنت. . . فقد باعدوا بيننا. . . ومنعوا رسائلي أن تصل إليك. وذلك كله من صنع ذلك الشخص عديم الأخلاق الذي استغل ميزته الوحيدة المتمثلة في التشابه الموجود بينكما. إنني لأعلم، على كل حال، أن الإنسان قد يكون ذميماً

جسدياً، ولكنه قد يسمو بفكره، وقوة عواطفه النبيلة، واستقامته... لقد ضعت... سيزوجونني رغم أنفي، وإن أبي الذي هو الحامي، أبي أولسوفي إيفانوفيتش مستشار الدولة، إن أبي هو زعيم المتآمرين عليّ، ومن المحتمل أنه يقدم على ذلك كي يحل محلي ويستفيد ممّا أناله من حظوة لدى علية الناس... ولكنني لن أستسلم، وإني لعازمة على أن أحتج بكل ما أتيت من وسائل... انتظرني في عربتك اليوم، على الساعة التاسعة مساءً، في فناء منزل أولسوفي إيفانوفيتش. سيقام احتفال راقص في منزلنا، وسيكون من بين الحاضرين ملازم أول جميل. سأنسلُّ من الحفل ونهرب معاً. إن في وطننا عدة وظائف يستطيع الإنسان عند ممارستها أن ينفع وطنه. وتذكر، يا صديقي، أن البراءة تستمد قوتها من نفسها. إلى اللقاء. انتظرني في العربة وسط الفناء. سألقي بنفسي بين أحضانك عند الساعة الثانية تماماً بعد منتصف الليل.

وسأظل لك حتى القبر.

كلارا أولسوفييفنا.

بقي بطلنا مشدوهاً عدة دقائق بعد قراءة هذه الرسالة. ثم أخذ يذرع القاعة جيئة وذهاباً مضطرباً، قلقاً، ممتقع اللون، ممسكاً الرسالة بيده. وما زاد الطين بلة أن بطلنا لم يلحظ، لسوء حظه، أن أنظار من في المطعم توجّهت نحوه. لا شكّ أن ملابسه التي لم يعتنِ بها بعد العراك الذي كان بينه وبين عدوه، واضطرابه الشديد، وعدم توقفه عن ذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وحركات يديه، وربما بعض الكلمات الغامضة التي انفلتت منه عندئذٍ، لا شكّ أن كل ذلك جعل زبائن المطعم ينظرون إليه نظرة مرتابة، ودفع بالنادل إلى أن يرمقه

بكثير من الشك. عندما استعاد السيد غوليادكين وعيه، وجد نفسه وسط القاعة يحدّق بطريقة غير مناسبة ولا مبرّرة في رجل عجوز ذي مظهر محترم كان قد انتهى من الأكل لتوه وجثى على ركبتيه أمام الأيقونة، ثم عاد إلى الجلوس وهو لا يحرك نظره عن السيد غوليادكين. أجال السيد غوليادكين نظره في كل أرجاء الغرفة، فرأى جميع من فيها يرشقونه بنظرات متشكّكة لا تبشّر بأي خير. وفجأة، طلب بصوت جهوري عسكري متقاعد ببزة ذات ياقة حمراء أن تحمل إليه جريدة أخبار الشرطة. اضطرب السيد غوليادكين واحمرّ تماماً، وخفض عينيه صدفة، فرأى أن ثيابه في حالة يرثى لها، لا يليق أن يرتديها حتى في منزله فكيف وهو بين الناس في مكان عام! كان حذاءه وسرواله وكل الجانب الأيسر من بدلته ملطّخاً بالوحل، بل إن البدلة كانت ممزقة في عدة مواضع. عاد بطلنا قلقاً إلى الجلوس إلى المائدة التي كان جالساً إليها عند قراءة الرسالة، فرأى النادل يتقدم نحوه وعلى وجهه ما يعبّر عن رغبة وقحة في الإحراج. اضطرب بطلنا تماماً واحتار ماذا يصنع، وأخذ ينظر إلى المائدة التي يقف أمامها فرأى أطباقاً وسخة، ومنشفة مجعّدة، وسكيناً وشوكة وملعقة قد انتُهِي من استعمالها على الفور. «من أكل هنا؟» تساءل السيد غوليادكين، «أنا؟ أهذا ممكن؟ كل شيء ممكن. . . يبدو أني تعشيت دون أن أشعر. ماذا أصابني؟». ورفع السيد غوليادكين عينيه فرأى النادل يهم بأن يقول له شيئاً.

- كم الحساب أيها الرجل الطيب؟ سأله السيد غوليادكين بصوت متردد.

انفجر جميع من في المطعم ضاحكين؛ أما النادل فاكتفى بالابتسام. أدرك السيد غوليادكين أنه ارتكب خطأ مرة أخرى، أنه

ارتكب حماقة كبرى. فبلغ به الاضطراب أن دسّ يده في جيبه وأخذ يبحث عن منديله دون قصد، وقد يكون أقبل على ذلك كي يشغل نفسه بشيء ما يمكنه من التغلب على اضطرابه. لكن، ما كان أشد دهشته ودهشة كل من في المطعم حين أخرج من جيبه، بدل المنديل، قنينة دواء كان كريستيان إيفانوفيتش قد وصفه له قبل أربعة أيام. «دواء من الصيدلية...» قال السيدُ غوليادكين في نفسه... وفجأة أخذ يرتعش وكاد يصرخ من شدة الرعب. ونظر إلى الدواء قاتم الحمرة، كئيب اللون... وفجأة سقطت القنينة من بين يديه وتحطّمت. صرخ بطلنا وقفز إلى الوراء وهو ينظر إلى الدواء المهروق على الأرض أمامه... وأخذت جميع أعضائه ترتعش وعلا العرق جبينه وصدغيه، وغمغم قائلاً: «لا شكّ أن حياتي في خطر»[1]. ساد المطعم صخب واضطراب، وتداخلت أصوات الحاضرين متسائلة مستغربة. واقتربوا منه، وأحاطوا به، وأخذوا يكلّمونه، بل إن بعضهم لم يكتفِ بالكلام وأرادوا أن يسندوه

---

(1) يبدو رد فعل البطل هنا غريباً غامضاً، وذلك لأن دوستويفسكي عندما أدخل بعض التعديلات على النصّ الأول لم يوضّح رد فعل بطله أمام قنينة الدواء. في النسخة الأولى يتلقى البطل رسالة من فاخرمابيف (حذفها دوستويفسكي من النص الثاني) تخبره بأن شيئاً جديداً سيقع له هذا الصباح. وحين دسّ السيد غوليادكين يده في جيبه وأخرج قنينة الدواء قرأ عليها عنوان صيدلية تقع في شارع سان سيرج، وتذكّر أن رسالة فاخرمابيف قد أوردت اسم الصيدلي الواقعة صيدليته في سان سيرج ضمن المتآمرين عليه. وبما أن البطل لم يكن قد استيقظ ذلك الصباح إلا عند منتصف النهار، وبما أنه لم يجد لبيتروشكا أثراً حين استيقظ، فقد اعتقد أن الصيدلي قد باعه سماً بدل الدواء الموصوف، لذلك صرخ مرعوباً وأسقط القنينة من بين يديه وقال: «لا شك أن حياتي في خطر».

ممسكين بذراعيه أو بكتفيه. لكن بطلنا بقي متسمّراً في مكانه لا يتحرك، لا ينطق بأية كلمة، ولا يرى ولا يسمع ولا يحس بشيء ممّا حوله. . . وأخيراً اقتلع نفسه من مكانه، وأسرع يغادر المطعم وهو يصطدم بكل من يحاول الوقوف في طريقه. ولمّا بلغ الشارع نادى على أول عربة صادفها، وارتمى فيها، وطلب من الحوذي أن يأخذه إلى منزله.

أمام عتبة منزله وجد ميخاييف العون في الوزارة التي يعمل فيها في انتظاره ومعه رسالة رسمية. «أعرف ما في هذه الرسالة أيها الرجل الطيب. . . إنها تبليغ رسمي. . .» قال السيد غولياداكين بصوت واهن متشكٍّ. كانت الرسالة تتضمن أمراً رسمياً فعلاً. ومذيّلة بتوقيع أندريه فيليبوفيتش. وتأمره بأن يسلّم كل ما معه من ملفات إلى إيفان سيميونوفيتش. أعطى العون بقشيشاً، ودخل إلى منزله، فرأى بتروشكا منهمكاً في جمع ملابسه وحاجياته المهترئة، استعداداً لترك منزل سيده للالتحاق بمنزل كارولين إيفانوفنا، عوض خادمها السابق أوستاش.

الفصل الثاني عشر

دخل بيتروشكا مترنّحاً متعمّداً اللامبالاة. كانت هيئته تعبِّر عن الخِسّة والانتصار. وكان واضحاً تماماً أنه يُعدّ لشيء ما، وأنه يحس بأن من حقه أن يتصرف كما يتصرف في تلك اللحظة، وأن ذلك التصرف لن يعود عليه بما لا تحمد عقباه، باختصار: كان بتروشكا يتصرّف كما لو أنه خادم شخص آخر غير السيد غوليادكين.

- ها أنت ذا قد عدت أيها الرجل الطيب، قال بطلنا لاهثاً، قل لي أيها الرجل الطيب كم الساعة الآن؟

مضى بتروشكا إلى ما وراء الستار دون أن يجيب، ثم عاد وقال بصوت هادئ إن الساعة تشير إلى السابعة ونصف مساءً.

- طيب أيها الرجل الطيب، طيب... اسمح لي أن أقول لك أيها الرجل الطيب إن كل شيء قد انتهى بيننا.

التزم بتروشكا الصمت.

- طيب، ما دام كل شيء بيننا قد انتهى، فقل لي بصراحة، صارحني كما يصارح الصديق صديقه، قل لي أين كنت أيها الرجل الطيب؟

- أين كنت؟ كنت مع ناس طيبين...

- أعرف ذلك أيها الرجل الطيب، أعرفه جيداً، لقد كنت راضياً

عن خدماتك دائماً، وسأعطيك شهادة بذلك. . . والآن أخبرني ماذا كنت تفعل عند أولئك الناس الطيبين؟

- إنك تعرف بنفسك ماذا أفعل هناك يا سيدي. معروف أن الناس الطيبين لا يعلمونك الأشياء السيئة.

- أعرف ذلك، أعرفه جيداً أيها الرجل الطيب. ما أقلّ الطيبين في هذا الزمان أيها الرجل الطيب؛ لذلك عليك أن تقدّرهم حق قدرهم أيها الرجل الطيب، والآن أخبرني كيف حالهم؟

- كما كانت دائماً يا سيدي. . . ولكنك تعرف يا سيدي أنني لا أستطيع أن أستمر في خدمتك.

- أعرف ذلك أيها الرجل الطيب، أعرفه جيداً. وأعرف همّتك ونشاطك في العمل. . . لقد لاحظت ذلك دائماً أيها الرجل الطيب. أنا أحترمك كثيراً أيها الرجل الطيب، وأحترم كل رجل طيب شريف، حتى إن كان خادماً.

- نعم، أعرف ذلك جيداً. . . أنت تعرف أننا -معشر الخدم- نحب أن نعمل في المنازل التي نعامَل فيها جيداً. هكذا نحن يا سيدي. . . لا نستطيع أن نعيش من دون ناس طيبين.

- طيب، طيب أيها الرجل الطيب، صحيح ما قلته. . . وأنا أشاطرك الرأي. . . خذ، ها هو ذا أجرك وها هي ذي شهادتك. والآن لنتعانق أيها الرجل الطيب، ولنفترق فراق الأصدقاء أيها الرجل الطيب. . . لديّ طلب أخير قبل أن نفترق أيها الرجل الطيب، قال السيد غولياذكين بصوت وقور. . . لا أحد يعرف ماذا تخبئه له الأيام، والشقاء يسكن حتى في القصور الثرية، لا أحد يستطيع أن يفلت من الشقاء. وأنت تعرف أيها الرجل الطيب، أني عاملتك دائماً معاملة طيبة. . .

التزم بتروشكا الصمت.

- أعتقد أني عاملتك دائماً معاملة طيبة أيها الرجل الطيب، والآن قل لي: ما هي الملابس التي بقيت لي؟

- ملابسك كلها ما زالت حيث هي... ستة قمصان من القطن، ثلاثة أزواج من حواشي القمصان، أربع صدريات، رداء من الصوف، سروالان داخليان، وقطعتان من... أنت تعرف كل ذلك يا سيدي. وتعرف أني أعتني بكل ما يخصك يا سيدي... تعرف ذلك جيداً... وتعرف أنك لا تحتاج إلى أن توصيني... لست ألوم نفسي على شيء يا سيدي... يجب أن تعرف ذلك يا سيدي.

- أنا أصدّقك أيها الرجل الطيب، أصدّقك. ما عن هذا أتحدث أيها الرجل الطيب، ما عن هذا أتحدث... اسمع أيها الرجل الطيب...

- هذا معروف يا سيدي... كل الناس يعرفون ذلك... حين كنت في خدمة الجنرال ستولبنياكوف... كان يمنحني إجازة كلما ذهب إلى ساراتوف التي يملك فيها ضيعة...

- لا أيها الرجل الطيب، ما عن هذا أتحدث، فأنا لا ألومك على شيء... لا تعتقد أني ألومك أيها الرجل الطيب...

- هذا معروف تماماً يا سيدي... كم هو سهل يا سيدي أن يُتّهم من هم مثلنا!... أما أنا فقد رضي عني كل من خدمتهم من قبل. لقد خدمت وزراء يا سيدي، وجنرالات، وسيناتورات، ودوقات... لقد خدمت في كل مكان: في منزل الأمير سفينتشانكين، ومنزل العقيد بيريبوركين، ومنزل الجنرال نيبوداروف، وكان يزورنا في الضيعة عدد كبير من الناس المرموقين يا سيدي... هذا شيء معروف يا سيدي...

- نعم أيها الرجل الطيب، نعم... والآن جاء دوري كي أسافر... لكل إنسان طريقه أيها الرجل الطيب، وما من أحد يعرف الطريق التي رسمها له القدر... والآن أيها الرجل الطيب ناولني ما أرتديه... وضع لباسي الرسمي مع باقي الثياب... إلى جانب السروال، والمفارش، والأغطية، والوسائد...

- هل أضع كل هذا في رزمة واحدة يا سيدي؟

- نعم أيها الرجل الطيب، في رزمة واحدة إذا شئت... والآن انزل أيها الرجل الطيب، وابحث لي عن عربة...

- أتريد عربة يا سيدي؟

- نعم عربة أيها الرجل الطيب، عربة كبيرة بما يكفي واستأجرها لمدة طويلة. لكن إياك أن يذهب بك الظن بعيداً أيها الرجل الطيب...

- هل ستذهب إلى مكان بعيد يا سيدي؟

- لا أعرف أيها الرجل الطيب، حقاً لا أعرف. ويستحسن أن تضع في العربة لحافاً. ما رأيك في ذلك أيها الرجل الطيب؟ إنني أعتمد عليك في ذلك أيها الرجل الطيب.

- وهل ستذهب الآن؟

- نعم أيها الرجل الطيب، نعم. لقد سوّيتِ الأمور من تلقاء نفسها أيها الرجل الطيب...

- فهمت يا سيدي. لقد حدث الشيء نفسه في الكتيبة التي كنت فيها حين قام ملازم أول بخطف ابنة أحد كبار الملّاكين...

- خطفها؟ ماذا تقول أيها الرجل الطيب؟

- نعم خطفها، ثم تزوّجا في مدينة أخرى صغيرة. أعدّ كل

شيء سلفاً يا سيدي. . . لكنهم قبضوا عليهما، فتدخّل الأمير، نعم الأمير بنفسه، وسوّى كل شيء. . .

- تزوّجا إذاً. . . آه، نعم، ولكن قل لي كيف علمت أيها الرجل الطيب بما عزمتُ عليه؟

- كل شيء معروف يا سيدي، وهل هناك شيء نستطيع أن نتكتم عليه في هذا العالم؟ أنا على علم بكل شيء يا سيدي، بكل شيء. . . قُل لي من ذا معصوم من الخطأ؟ ولكن يجب أن أقول لك يا سيدي، وليبقَ الكلام الذي سأقوله سرّاً بينك وبيني، ما دامت الأمور قد وصلت إلى هذا الحدّ فيجب أن أقول لك يا سيدي أن لك منافساً، منافساً قوياً. . . صدّقني يا سيدي. . .

- أعرف ذلك أيها الرجل الطيب، أعرفه كما تعرفه أنت. . . وسأعتمد عليك الآن في ما يجب أن أفعل أيها الرجل الطيب. . . فقُل لي بماذا تنصحني الآن؟

- ما دام الأمر كذلك يا سيدي، فيجب أن تبدأ بشراء بعض الأشياء. . . كالمفارش، والوسائد، ولحاف أو اثنين لشخصَين، وليكن اللحاف جيداً من فضلك. . . تستطيع أن تجد هذه الأشياء عند الجارة. . . إنها غنية يا سيدي. . . ولديها معطف جيد من جلد الثعلب أيضاً. . . في وسعك أن تقابلها وترى المعطف وتشتريه يا سيدي. . . نستطيع أن ننزل إليها الآن يا سيدي. . . إنه معطف ممتاز. . . معطف نسائي. . . مغطّى بالساتان ومحشو بفراء الثعلب. . .

- طيب أيها الرجل الطيب، طيب، أنا موافق، وأعتمد عليك كامل الاعتماد، وأثق بك. أنا موافق على شراء كل ما ذكرته أيها الرجل الطيب. . . لكن أسرع، أرجوك أسرع، أسرع. أنا موافق

على شراء المعطف أيضاً، لكن أسرع أرجوك. لقد أشرفت الساعة على الثامنة، ويجب أن نسرع أيها الرجل الطيب، هيا أسرع، أسرع أيها الرجل الطيب...

ترك بتروشكا الملابس، والوسائد، والمفارش، والأغطية، وغيرها ممّا كان قد شرع يجمعه ويضعه في رزمة، وخرج من الغرفة مسرعاً. وعاد السيد غوليادكين، أثناء ذلك، إلى الرسالة، لكنّه لم يستطع أن يقرأها. فأمسك رأسه التعيس بين يديه، وأسند ظهره إلى الحائط مضطرباً. كان عاجزاً عن التفكير، عاجزاً عن فعل أي شيء، ولا يعرف ما الذي يحدث له. فلمّا رأى أن الوقت يمضي، وأن بتروشكا لم يأتِ، ولا أتى المعطف، قرر أن يذهب ليرى الأمر بنفسه. فتح باب المدخل، فسمع ضجة في الأسفل، ضجة تحدثها أصوات تتناقش... إنهنّ بعض الجارات يثرثرن، ويصرخن، ويتجادلن حول شيء ما... وأدرك السيد غوليادكين على الفور موضوع ثرثرتهنّ وجدالهنّ. وسُمع صوت بتروشكا، ثم وقع أقدامه وهي تصعد الأدراج. «يا إلهي، سيدعون العالم بأسره إلى الصعود إلى هنا!» قال السيد غوليادكين متوجّعاً داعكاً يديه بعضهما ببعض من شدة اليأس. ثم عاد إلى غرفته مسرعاً. وارتمى على الديوان مضطرباً، ودسَّ رأسه في الوسادة. بقي على تلك الحال لحظة، ثم قفز من مكانه واقفاً، وهرع نحو جرموقَيه فانتعلهما، ولبسَ قبّعته، وارتدى معطفه، وتناول محفظة نقوده، وأسرع نحو السلّم لا يلوي على شيء، دون أن ينتظر عودة بتروشكا. فلمّا صادف هذا الأخير على السلّم قال له: «لست في حاجة إلى شيء أيها الرجل الطيب، سأفعل كل شيء بنفسي، لست في حاجة إليك الآن، أما القضية فستسوّى على أحسن وجه لا محالة...»، قال السيد غوليادكين وهو

يمرُّ بمحاذاة بتروشكا على السلَّم. ثم فرَّ نحو البهو، فإلى الشارع. أحس بقلبه يخفق خفقاناً شديداً، واحتار ماذا يفعل وإلى أين ينبغي أن يتجه... ما العمل؟ ما مصيري؟ ماذا أفعل في هذا الظرف الحرج؟...

«ما العمل؟ ذاك هو السؤال المحير يا إلهي... وكأنه لم يكن بالإمكان الاستغناء عن كل هذا...» صاح السيد غوليادكين في نفسه وهو يمضي في الطريق أمامه يائساً... «هل كنت في حاجة إلى كل هذا؟ لولا هذه القضية لكان بالإمكان أن تسوّى الأمور على أحسن وجه... نعم، لكان بالإمكان أن تسوّى الأمور كلها دفعة واحدة... بقرار واحد حكيم شجاع... نعم كان بالإمكان أن تسوّى كل الأمور على أحسن وجه دفعة واحدة، بقرار واحد حكيم شجاع. وأنا أعرف بالضبط كيف كان يمكن أن تسوّى القضية... كنت سأسوّيها بالطريقة التالية: كنت سأذهب إليه، نعم أذهب إليه، وأقول له، اسمح لي يا سيدي أن أقول لك... نعم كنت سأقول له اسمح لي أن أقول لك يا سيدي... ما من أحد يتصرف مثل تصرفك هذا يا سيدي. أما المكر فلا يؤدّي إلى أية نتيجة تحمد عقباها... وأنت رجل ماكر يا سيدي... هل فهمت ما أعنيه؟... والرجل الماكر لا ينفع وطنه بشيء. هل فهمت جيداً يا سيدي؟... وكنت سأضيف إلى ما قلت... لا، لا داعي لمثل هذا الكلام، لا طائل من ورائه بتاتاً... إنه كلام لا يجدي نفعاً تماماً... تماماً... ما هذا الكلام الذي أقوله الآن؟ ما فائدته؟ يا لي من غبي ميئوس منه! ألا تُقبل على الانتحار بما تفكر فيه الآن؟ لا، لا، ليس إلى هذه الدرجة... أعتقد أن من المغالاة الحديث عن الانتحار بسبب هذا... انظر إلى نفسك أيها الضال... انظر كيف صرت تفكر...

طيب، ما العمل؟ ما العمل الآن؟ ما مصيري الآن؟ ولأي شيء أصلح؟ نعم، لأي شيء تصلح أيها الغوليادكين الذي لا يستحق شيئاً يذكر؟ ما العمل الآن؟ قل لي ما العمل؟ . . . يجب استئجار عربة. نعم، هاتوا لغولياادكين عربة، لأنه سيبلّل رجليه إذا لم يركب عربة. . . من ذا كان يتوقع أن يحدث ما حدث؟ أهنئك يا آنسة، أهنئك أيتها الفتاة الشابة على سلوكك القويم. . . أهنئك على تميُّزك يا آنسة. . . نعم لقد تميّزتِ حقاً. . . تميّزتِ تماماً. . . ومن المسؤول؟ من المسؤول على مثل ما تريدين فعله؟ أعتقد، بل أجزم، أن التربية هي السبب. . . نعم لقد فكرتُ في ذلك ملياً. . . وخلصت إلى أن المسؤول الوحيد عن ذلك هو سوء التربية. فلو أنهم ربوها، منذ صغرها، بشيء من الصرامة. . . لا ضرّر في شيء من العصا من حين إلى آخر. . . نعم، العصا لمن يعصى. . . العصا عند الضرورة، من حين إلى آخر. . . لكنهم بدل أن يؤدّبوها عند الحاجة، يغدقون عليها من الحلوى، وكل ما لذ وطاب، بألوانه المختلفة. . . وأبوها، ذلك العجوز الغبي، لا يتوقف عن دلالها بكلماته الناعمة، طوال النهار وهو يحوم حولها ويغدق عليها من كلامه الناعم: أنت جميلة، أنت فاتنة، أنت جذابة، أنت كذا وكذا. . . وسأزوجك بكونت. . . وإذا بالآنسة المصون المدللة تكشف عن وجهها الحقيقي، وتكشف عن لعبتها: هكذا أنا، وهذه لعبتي. . . بدل أن يلزموها البيت منذ صغرها وضعوها في مدرسة داخلية لدى امرأة فرنسية، تذكرنا بالمهاجرة فالبالا[1]، نعم تلقّتْ تربية مثل تلك التي تتلقاها الفتيات

---

(1) إشارة إلى شخصية وردت في إحدى قصص بوشكين الشعرية (سنة 1825)، وتحمل عنوان الكونت نولين: =

لدى تلك المهاجرة، مثلها تماماً. . . ولنا أن نتصور نوع التربية التي تتلقاها الفتيات لدى المهاجرة فالبالا، إنها تربية على الانحراف لا شكّ. . . وما هي النتيجة حين نتلقى مثل تلك التربية؟ هي ما علمتم: «انتظرني في عربة تحت نوافذ المنزل، على الساعة كذا، وغنِّ لي أغنية عاطفية، إني في انتظارك، وأعرف أنك تحبني، سنهرب معاً، وسوف نعيش في كوخ معاً». . . هذا مستحيل، نعم مستحيل يا آنستي، إنه شيء يمنعه القانون، ليس من حقّ أي شخص أن يختطف فتاة عفيفة طاهرة من بيتها دون موافقة أبويها. . . لماذا يا آنستي؟ وما الفائدة من ذلك؟ ما عليكِ إلا أن تتزوجي بمن يناسبك، بمن بعث به القدر إليك، وكفى. أما أنا فموظف يا آنستي، وسأفقد وظيفتي إن أنا أقدمت على ما تدعوني إليه، فاعلمي ذلك. . . أعتقد أن الألمانية وراء كل ما يدبَّر لي. نعم، إنها هي، تلك الساحرة الشمطاء، من يدبِّر كل شيء، منها انطلقت الشرارة الأولى التي أشعلت كل هذه النيران. . . جعلتهم يشون بي، وينشرون عني الأقاويل الكاذبة، أقاويل لا يصدّقها العقل، بإيعاز من أندريه فيليبوفيتش. . . إنها مصدر كل شيء. وإلا بماذا نفسّر إشراك بتروشكا في هذه القضية؟ ما علاقته بكل هذا؟ ما دخل ذلك الوغد في ما يحدث؟ لا، يا آنستي، إنني لا أستطيع أن أفعل ما طلبته مني، لا أستطيع ذلك إطلاقاً، لا أستطيعه بأي ثمن. . . اعذريني هذه المرة يا آنسة. . .

= لم تتلقَّ تربية
حسنة أبوية
وإنما تربية النُّبلاء
لدى المهاجرة فالبالا.

والواقع أنك أنت السبب في كل ما يحدث، وليس تلك المرأة الألمانية، لأن تلك الألمانية الساحرة الشمطاء طيّبة رغم ذلك، وبريئة من كل ما يُنسب إليها، بريئة كل البراءة... بريئة تماماً... أنت المخطئة يا آنسة، أنت سبب كل ما يحدث، سبب كل تلك الاتهامات المغرضة... هذه هي الحقيقة يا آنسة، وليس هناك أي حقيقة أخرى غيرها... وإن ما تدبّرينه ليكفي لأن يقودني إلى الهلاك، أن يضيعني تماماً... إن فعلت ذلك فسأمضي إلى حتفي لا محالة... لن أنجو أبداً... أبداً... وتتحدثين عن الزواج؟... ما السبيل إلى إنهاء كل هذا؟ وبماذا سينتهي هذا الذي يحدث الآن؟ ليتني أعلم... ليتني أعلم».

هكذا كان السيد غوليادكين يجترُّ كلامه وقد بلغ من اليأس قمته. وفجأة استعاد وعيه بما حوله، فأدرك أنه في مكان ما من شارع ليتانيا. كان الجو مكفهرّاً: الثلج يسقط ويذوب، والمطر يهطل غزيراً... باختصار، كان الطقس يشبه تماماً طقس تلك الليلة الشهيرة التي بدأت فيها جميع مصائب السيد غوليادكين عند منتصف الليل. «الهروب في عربة؟ وفي مثل هذا الجو؟ إنه الموت بعينه... أين أجد عربة في مثل هذا الجو يا إلهي؟ هناك، نعم هناك، في ذلك الركن، يبدو أن هناك عربة هناك. لا، أعرف ما عليّ أن أقوم به الآن: سأذهب إلى هناك، فأجثو على ركبتي إن أمكن، وسأتوجّه له بالكلام بكل تواضع... سأقول له ما ينبغي أن أقوله، سأقول له كل شيء، لن أنسى شيئاً، سأقول له إنني أضع مصيري بين يدي السلطة العليا... كُن سنداً لي يا صاحب المعالي وعوناً، سأقول له كل شيء، لن أترك شيئاً إلا وأقوله، نعم كل شيء، سأقول له إن شخصاً ما يتصرف تصرفاً مخالفاً للقانون... فلا تتخذ في حقي قراراً يقضي

عليّ... يقضي عليّ تماماً، إنك مثل والدي، فلا تتخلَّ عني... أنقذ طموحي وشرفي، أنقذ اسمي وسمعتي... ودافع عني ضدّ رجل سافل، منحرف، عديم الأخلاق... إنه ليس أنا يا صاحب المعالي، وأنا لست هو... إنه على ما هو عليه، وأنا ما أنا عليه يا صاحب المعالي، إننا -هو وأنا- مختلفان عن بعضنا، أقسم أننا مختلفان... امنعه من أن يحلَّ محلي، أن يأخذ مكاني... ولا تكن كالآخرين يا صاحب المعالي... أرجوك لا تكن مثلهم، فأنا أعتبرك مثل أبي... إن رجلاً يتمتع بما تتمتع به من سلطة عليا ومن رعاية وحماية، لا يمكنه إلا أن يشجّع مثل هذه المبادرة التي لا تخلو من روح الفروسية... سأقول له ذلك، نعم سأقول له كل ذلك، سأقول له أن معاليكم، بما تتمتعون به من سلطة عليا ومن رعاية وحماية، مثل أبي... وأني أضع مصيري بين يديه، سأعده بأن لا أعترض على ما سيتخذه من قرار... نعم، سأقول له هذا الكلام، سأقول له إني أضع مصيري بين يديه، وسأنصاع لقراره، ثم أنصرف... نعم، هذا ما سأفعله، هذا ما سأقوله...».

- قل لي أيها الرجل الطيب، هل أنت حوذي؟

- نعم...

- أريد أن أستأجر عربة للذهاب إلى سهرة أيها الرجل الطيب.

- وهل تريد الذهاب إلى مكان بعيد يا سيدي؟

- قلت إني أريد الذهاب إلى سهرة، هذا كل ما يمكن أن أقوله الآن...

- وهل تعتزم الذهاب إلى مكان خارج الأسوار[1]؟

---

(1) يقصد خارج المدينة.

- نعم، أيها الرجل الطيب، قد أذهب خارج الأسوار. لست متأكّداً، لا أستطيع أن أجزم بشيء الآن أيها الرجل الطيب. وربما تعالج القضية على أحسن وجه. سيكون ذلك أفضل أيها الرجل الطيب...

- نعم يا سيدي، أكيد... ليكن الرب في عون الجميع.

- نعم أيها الرجل الطيب، أتمنى ذلك للجميع، شكراً أيها الرجل الطيب؛ ما هو الأجر الذي تطلبه أيها الرجل الطيب؟

- أتريد الذهاب الآن؟

- نعم، الآن... أقصد... سيكون عليك أن تنتظر في أحد الأماكن بعض الوقت، لن يطول انتظارك أيها الرجل الطيب...

- إذا كنت تريد العربة لليلة بأكملها، فلن أقبل بأقل من ستة روبلات... يستحيل أن أرضى بأقلّ من ذلك في مثل هذا الطقس.

- طيب أيها الرجل الطيب، موافق، وسأكافئك أيها الرجل الطيب... والآن هيا بنا أيها الرجل الطيب.

- اصعد إذاً... بل انتظر لحظة ريثما أرتّب العربة قليلاً... نعم، اصعد الآن. إلى أين تريد أن تذهب؟

- إلى جسر إسماعيلوفسكي أيها الرجل الطيب.

صعد الحوذي إلى مقعده، ووجّه نحو جسر إسماعيلوفسكي الحصانَين الضامرَين اللذين لم ينجح في أن يبعدهما عن كيس العلف إلا بصعوبة. لكن السيد غوليادكين سرعان ما جذب الحبل، واستوقف الحوذي، وطلب منه بصوت ضارع أن يعود إلى الخلف، وأن يتوجه نحو شارع آخر بدل جسر إسماعيلوفسكي. غيّر الحوذي وجهته. وما هي إلا عشر دقائق حتى وصلت العربة وتوقفت أمام مدخل العمارة التي يسكن فيها صاحب المعالي. نزل السيد

غوليادكين من العربة، وطلب من الحوذي بكثير من الإلحاح أن ينتظره قليلاً، ثم صعد الأدراج متوجّهاً إلى الطابق الأول. ولما وصل دقّ الجرس، فانفتح الباب. وجد بطلنا نفسه في حُجرة المدخل.

- هل صاحب المعالي في البيت؟ سأل السيد غوليادكين الرجل الذي فتح له الباب.

- وماذا تريد من معاليه من فضلك؟ ردّ الخادم وهو يتفحّص السيد غوليادكين من رأسه إلى قدميه.

- ماذا أقول أيها الرجل الطيب؟... اسمي غوليادكين، المستشار الرسمي غوليادكين، كيف أعبِّر لك عمّا جئت من أجله، لنقُل إني جئت كي أشرح لمعاليه بعض الأمور...

- انتظر هنا يا سيدي، فصاحب المعالي مشغول الآن.

- لا يمكن أن أنتظر أيها الرجل الطيب، فالقضية التي جئت من أجلها خطيرة، ولا تتحمل الانتظار.

- ومن أرسلك؟ هل معك ملفات؟

- لا أيها الرجل الطيب، لم يرسلني أحد، وإنما جئت لزيارة شخصية... أبلغ صاحب المعالي أني جئت لأشرح له بعض الأمور... وسأكافئك أيها الرجل الطيب.

- مستحيل يا سيدي. لقد أُمرت بأن لا أسمح لأحد بالدخول؛ صاحب المعالي معه ضيوف. هلّا عدت غداً صباحاً على الساعة العاشرة من فضلك...

- أبلغ معاليه أني هنا أيها الرجل الطيب، فأنا لا أستطيع الانتظار... ستحاسب إن لم تبلغ معاليه عن حضوري أيها الرجل الطيب...

- هيا، اذهب، ماذا تنتظر؟ هل أنت خائف أن تبلى نعلاك من المشي أم ماذا؟ قال خادم آخر كان قد بقي صامتاً جالساً في أحد المقاعد خلف الخادم إلى تلك اللحظة.

- ما علاقة النعلين بهذا؟ أنت تعرف أنه أمر بأن لا يدخل عليه أحد الآن. إن معاليه لا يستقبل أمثال هذا إلا في الصباح.

- حاول، هل أنت خائف أن تبلغ معاليه؟

- لو كان الأمر يتوقف عليّ لبلغته، ولن أخاف. لكن الأوامر أوامر. هيا ادخل إلى هذه الغرفة.

ودخل السيد غوليادكين إلى الغرفة المجاورة؛ كان على المنضدة ساعة تشير إلى الثامنة ونصف. أحس بوخزة في قلبه، فهمَّ أن يعود من حيث أتى؛ إلا أن خادماً ضخم الجثة كان قد وقف على عتبة قاعة الاستقبال في تلك اللحظة، وأعلن بصوت جهوري:

- السيد غوليادكين.

«يا له من صوت رهيب!» قال بطلنا في نفسه وقد اضطرب اضطراباً شديداً. «أما كان في وسعه أن يقول... إن رجلاً في قاعة الانتظار يطلب من معاليك أن تستقبله ليشرح لمعاليك بعض الأمور بتواضع... فأرجو من معاليكم أن تتكرموا باستقباله... أما الآن فإن الأمور قد ساءت... ساءت تماماً... ذهب كل شيء أدراج الرياح... لكن لا يهم». ومهما يكن من أمر، فإن أوان التفكير كان قد فات، إذ سرعان ما عاد الخادم وقال: «هلّا دخلت؟». وأُدخل السيد غوليادكين إلى مكتب صاحب المعالي.

حين دخل بطلنا إلى المكتب، أحس كما لو أنه صار أعمى بكل المعنى الحقيقي لهذه الكلمة، لم يعد يرى شيئاً اللّهم إلا شبحَين اثنين أو ثلاثة بالكاد أدرك وجودهم وسط الغشاوة التي غطت عينيه

فجأة: «لا شكّ أنهم ضيوف» قال في نفسه غير متيقن. لكنه انتهى، رغم ذلك، بأن رأى بوضوح نجمة على الفراك الأسود الذي يرتديه صاحب المعالي، ثم أخذ يسترجع بصره شيئاً فشيئاً، فرأى الفراك بأكمله، وأخيراً استرجع قدرته على الإبصار بشكل تام...

- نعم؟ سأله صوت يعرفه جيداً.

- أنا المستشار الرسمي غوليادكين يا صاحب المعالي.

- وبعد؟

- جئت لأشرح ما يحدث...

- ماذا؟ ماذا قلت؟...

- أريد أن أقول لك يا صاحب المعالي أني جئت لأشرح لك قضيتي...

- ومن أنت؟

- أأأ... أنا المستشار الرسمي يا صاحب المعالي.

- حسناً... وماذا تريد؟

- جئت يا صاحب المعالي لأقول لك... أنك بمنزلة أب بالنسبة إلي... وأني سأترك القسم الذي أعمل فيه... أرجوك أن تحميني من عدوي... هذا ما جئت من أجله.

- ماذا تعني؟...

- كل شيء صار معروفاً...

- وما هو ذلك الشيء الذي صار معروفاً؟

لاذَ السيد غوليادكين بالصمت، وأخذ ذقنه يرتعش...

- هيا، قُل...

- كان قصدي أن أقوم ببادرة كتلك التي يقوم بها الفرسان يا صاحب المعالي، أريد أن أقول إن من أخلاق الفرسان أن نعتبر

رؤساءنا آباءً لنا. . . نعم هو ذاك يا صاحب المعالي، أريد أن أطلب منك الحماية، أرجوك، أر. . .جوك، إن بادرة مثل با. . .درتي يجب أن تـ. . .تتشجع. . .

أشاح عنه صاحب المعالي بوجهه. وأتتْ لحظة أحس السيد غوليادكين خلالها أنه لم يعد يرى شيئاً، وأنه يكاد يختنق، وأن شيئاً ثقيلاً يجثم على صدره ويخنقه. لم يعد يدري أين هو. . . وأحس بالخجل ممّا فعل وبالحزن. الرب وحده يعلم بالذي حدث بعد ذلك. . . ولما عاد بطلنا إلى وعيه بما حوله، سمع صاحب المعالي يكلِّم ضيوفه، ويقول شيئاً ما بصوت حازم حاسم. وتعرّف إلى أحد الضيفَين على الفور: إنه أندريه فيليبوفيتش بنفسه. أما الآخر فلم يتعرّف إليه، وإن كان وجهه يذكره بشخص ما سبق وأن رآه. إنه رجل طويل القامة، قوي البنيان، متقدّم في السنّ، ذو حاجبَين كثيفَين، ونظرة حادة معبِّرة. يحمل حول عنقه وساماً، ويدخّن ويتحدث دون أن يزيل السيجار من بين شفتيه، ويهش رأسه بطريقة معبِّرة وهو يرمق السيد غوليادكين من حين إلى آخر. أحسَّ السيد غوليادكين بشيء من الضيق، فأشاح عنه بوجهه، وإذا بنظره يقع على ضيف آخر لم يتوقع أن يكون من بين الضيوف الحاضرين. رآه في فرجة الباب التي كان قد حسبها إلى تلك اللحظة مرآة، تماماً كما حدث له من قبل. إنه هو، إنه ذلك الشخص الذي نعرفه جميعاً، ذلك الرفيق الحميم للسيد غوليادكين. كان السيد غوليادكين الأصغر قد مكث إلى ذلك الحين في الغرفة الصغيرة المجاورة، يكتب شيئاً ما على عجل؛ وها هو ذا يظهر فجأة بعد أن احتاجوا إليه، ويتقدّم نحو صاحب المعالي متأبّطاً بعض الملفات، ويحاول أن يثير انتباه الحاضرين. وينجح في إقحام نفسه في النقاش الدائر، ويجلس خلف أندريه فيليبوفيتش وقد حجبه

عن الأنظار قليلاً ذلك الغريب صاحب السيجار. بدا واضحاً أن السيد غوليادكين الأصغر يتابع الحديث باهتمام بالغ، ويستمع إلى ما يُقال وقد اتّخذ هيئة من هو معتاد على الحديث في مثل تلك المواقف ومع مثل أولئك الأشخاص المرموقين. كان يهش رأسه، ويحرّك قدميه، ويبتسم، وهو لا يتوقف عن الالتفات نحو صاحب المعالي، كما لو أنه يترجّاه بنظرات عينَيه أن يمنحه فرصة الاشتراك في الحديث. «يا له من حقير!» قال السيد غوليادكين في نفسه وهو يتقدم خطوة إلى الأمام دون وعي. في تلك اللحظة بالذات التفتَ صاحب المعالي نحو السيد غوليادكين مصمّماً، وقال له:

- طيب، طيب، انصرف الآن، وسأنظر في قضيتك فيما بعد، أما الآن فسأستدعي الخادم كي يرافقك إلى باب الخروج. . .

واسترق معاليه نظرة نحو الغريب ذي الحاجبَين الكثيفَين، فأشار إليه هذا الأخير إشارة تعبِّر عن التأييد.

أحس السيد غوليادكين، وأدرك بوضوح تام، أنهم لم يعاملوه بالمعاملة التي ينبغي أن يعامل بها. «لا بدَّ لي من أن أشرح له الأمر الآن»، قال السيد غوليادكين في نفسه، «لا بدَّ أن أقول له ما يجب أن أقول له، أن أقول له استمع إليّ يا صاحب المعالي أرجوك». لكنه احتار في ما يفعله فنظر إلى الأرض، ويا لشدة دهشته حين رأى على حذاء صاحب السعادة بقعة كبيرة بيضاء. «هل يعقل أن يكون حذاؤه ممزقاً؟» قال السيد غوليادكين في نفسه. لكنه ما لبث أن أدرك أن حذاء صاحب المعالي ليس ممزقاً، وإنما يعكس ما سلِّط عليه من ضوء لأنه كان ملمّعاً بعناية فائقة تجعله يلمع بتلك الطريقة. «إن هذه الظاهرة معروفة في ورشات الرسم باسم **لمسة الضوء**، ومعروفة في مجالات أخرى باسم **زاوية الضوء**». رفع السيد غوليادكين بصره بعد

ذلك، فأدرك أن عليه أن يتكلم على الفور، وإلا فإن القضية ستنتهي نهاية سيئة... فتقدّم خطوة إلى الأمام، وقال:

- يجب أن أقول لك يا صاحب المعالي، أن المكر والغش لا يؤدّيان إلى أية نتيجة...

لم يجب معاليه بشيء، واكتفى بأن جذب خيط الجرس. وتقدّم بطلنا خطوة أخرى إلى الأمام.

- إنه رجل عديم الأخلاق يا صاحب المعالي. قال بطلنا وقد صار عاجزاً عن التحكم بنفسه، وهو يرتعد من الخوف ويشير إلى توأمه الذي كان يحوم حول صاحب المعالي متصاغراً... نعم يا صاحب المعالي إنني أقصد بهذا الكلام شخصاً تعرفه جيداً...

أخذَ كل من في الغرفة يتحركون عند سماع ما قاله السيد غوليادكين، وشرع أندريه فيليبوفيتش والرجل الغريب يهشّان رأسيهما، أما صاحب المعالي فشدَّ حبل الجرس وأخذ يجذبه بكل قوة مستدعياً خدمه. في تلك اللحظة تدخّل السيد غوليادكين الأصغر قائلاً:

- هل تسمح لي يا صاحب المعالي بأن أتدخّل. كان في صوت السيد غوليادكين الأصغر ما يعبِّر عن أنه مصمّم على الكلام لأنه يؤمن أنه على حق.

- اسمح لي أن أسألك، أردف قائلاً قبل أن يسمح له صاحب المعالي بالتدخل وهو يتوجه بالكلام إلى السيد غوليادكين الأكبر، اسمح لي أن أسألك: أتعرف في حضرة من تقول مثل هذا الكلام؟ أتعرف أمام من تقف، وفي مكتب من؟... كان السيد غوليادكين الأصغر يبدو منفعلاً أشد انفعال، وقد احمرَّ وجهه من الغضب والسخط إلى درجة أن بعض الدمعات بللت عينَيه...

- السيد والسيدة باسافريوكوف. صاح خادم ملء حنجرته وهو يقف على عتبة المكتب معلناً عن وصول الضيفين. «إنها أسرة نبيلة عريقة من روسيا الصغرى[1]» قال السيد غوليادكين في نفسه في اللحظة نفسها التي أحس بيد توضع على كتفه بمودّة، وبيد أخرى تدفعه من الخلف. كان توأم السيد غوليادكين يكردح أمامه، ويدلّه على الطريق، فانتبه بطلنا أنه يقاد إلى خارج مكتب صاحب المعالي. «تماماً كما حدث في منزل أولسوفي إيفانوفيتش»، قال السيد غوليادكين في نفسه وقد وجد نفسه في البهو، وليس معه إلا خادمين من خدم صاحب المعالي وتوأمه.

- المعطف، المعطف، المعطف، هاتوا معطف صديقي، معطف أعز صديق. قال عديم الأخلاق وهو ينزع المعطف من بين يدَي الخادمَين، ويلقيه على رأس بطلنا باستهزاء. حين أخذ ينزل المعطف من فوق رأسه، سمع الخادمَين يضحكان. لكنه تجاهل الضحك وكل ما يحدث حوله، وخرج من البهو متوجّهاً نحو السلَّم يتبعه السيد غوليادكين الأصغر.

- إلى لقاء قريب يا صاحب المعالي.

- نذل... صرخ بطلنا في وجهه غاضباً.

- لا بأس...

- فاسد...

- لا بأس... أجابه بالطريقة نفسها السيد غوليادكين الأصغر العدو اللدود، وأخذ، على عادته الوقحة المنحطة، يتفرّسه بعينَيه

(1) يقصد أوكرانيا. لقد حملت أوكرانيا اسم روسيا الصغرى إلى أن قامت الثورة الروسية.

الوقحتين دون حياء، كما لو أنه يدعوه إلى أن يسترسل في شتمه. بصق السيد غوليادكين على الأرض احتقاراً له، وهبط الأدراج مسرعاً. كان السيد غوليادكين الأكبر من الانهيار والإحباط بحيث أنه لم يتذكر كيف ومتى صعد إلى العربة. وحين استعاد وعيه، رأى أن العربة وصلت إلى نهر فونتاكا. «هل يمضي إلى جسر إسماعيلوفسكي؟» تساءل السيد غوليادكين... وأحس برغبة في أن يفكر في شيء ما مرة أخرى، إلا أنه عجز عن ذلك. كان في دواخله شيء مرعب يستحيل التعبير عنه... «طيب، لا بأس»، خلص بطلنا إلى قول هذا وهو يواصل طريقه نحو جسر إسماعيلوفسكي.

الفصل الثالث عشر

كان الجو يبدو وكأنه يرغب في التحسُّن. فالثلج المبلَّل الذي استمر في الهطول غزيراً حتى ذلك الحين أخذ يقل شيئاً فشيئاً، ثم ما لبث أن توقف عن الهطول تماماً. وصارت السماء صافية تلمع فيها بعض النجوم المتفرّقة هنا وهناك. لكن جو المساء بقي ثقيلاً، رطباً، خانقاً، لا سيما بالنسبة إلى السيد غوليادكين الذي كان يجد، قبل أن يخيّم مثل ذلك الطقس، صعوبة في التنفس. كان يحس بمعطفه المبلّل ثقيلاً فوق كتفيه، وبالرطوبة الفاترة التي تصدر عنه تزيده ثقلاً، فتتعب أعضاءه أكثر ممّا هي متعبة. وبرعشات كرعشات الحمّى تسري في جسده كله، فتنشر تنمّلاً في كل أعضائه. وكان العرق قد انتشر في سائر جسده بارداً مَرَضياً إلى درجة نسي معها، رغم أن اللحظة كانت مناسبة، أن يردد جملته الأثيرة بحزم وإصرار قوي كما تعوّد: «ما زال بالإمكان أن تسوّى كل الأمور على أحسن وجه. . . حتى الآن ليس لكل ما حدث أية أهمية». قال بطلنا هذا في نفسه صامداً، مقاوماً الاستسلام، وهو يمسح عن وجهه قطرات الماء المتساقطة من قبّعته التي كان المطر قد بلّلها تماماً، إلى درجة أنها أصبحت عاجزة عن أن تستمر في حمايته. بعد أن طمأن بطلنا نفسه بأن ليس لكل ما حدث إلى تلك اللحظة أية أهمية، حاول أول الأمر

أن يجلس على قطعة من خشب كانت ملقاة قرب كومة من الحطب في منزل أولسوفي إيفانوفيتش. لا مجال الآن للتفكير في تلك الأغاني الغرامية الإسبانية، وتلك السلالم الحريرية، ولكن للبحث عن ركن معزول لن يكون دافئاً طبعاً، غير أنه سيوفّر له الراحة ويمكّنه من الاختباء. هذا ما ينبغي التفكير فيه الآن. وأخذ السيد غوليادكين يحلم، بشيء من الحنين، بذلك الركن المظلم الصغير في مدخل الخدم بمنزل أولسوفي إيفانوفيتش، حيث قضى بطلنا (في بداية هذه القصة الواقعية) زهاء ساعتين واقفاً مختبئاً خلف خزانة للملابس وحاجز خشبي عتيق، وسط أكوام من الملابس والخرق البالية والخرداوات. إنه الآن يقف منذ ساعتين في فناء منزل أولسوفي إيفانوفيتش. لكن ذلك الركن المنعزل المريح حيث قضى ساعتين مختبئاً لم يعد كما كان آنذاك، لأن مجموعة من الاحتياطات كانت قد اتخذت بشأنه بعد واقعة تلك الحفلة الراقصة في منزل أولسبوفي إيفانوفيتش من جهة، ولأنه لن يمكنه من انتظار إشارة كلارا أولسوفيفنا من جهة أخرى. كان بطلنا متأكداً من أنها ستنبّهه قبل أن تغادر المنزل بإشارة متفق عليها. هكذا تجري الأمور دائماً في مثل هذه المواقف «ولسنا أول ولا آخر من يلتزم بذلك». وتذكّر السيد غوليادكين عرضاً تلك القصة التي كان قد قرأها منذ زمن طويل، وفيها تنبّه البطلة حبيبها ألفريد إلى أن موعد قدومها إليه قد حان بإشارة اتفقا عليها سلفاً، وتتمثل في تعليقها شريطاً وردياً على نافذتها. تماماً كما هو الموقف الآن، إلا أن تعليق شريط على النافذة الآن، في الليل وفي مثل جو بطرسبورغ المعروف بارتفاع رطوبته والذي لا يشجّع على شيء مثل ذلك، يبدو قضية خاسرة، بل مستحيلاً تماماً. لن تعلّق شريطاً على نافذتها. إنه متأكد من ذلك.

«لا مجال هنا للسلالم الحريرية»، قال بطلنا في نفسه، «سأنتدب مكاناً من هذا الفناء مظلماً... ذلك خير لي... لأجرب هذا المكان...». واختار ركناً صغيراً في الفناء، مواجهاً لنوافذ المنزل، قرب كومة من أخشاب التدفئة. لا شكّ أن ذلك المكان يشهد حركة دؤوبة، إذ لا يكاد الخدم والحوذيون يتوقفون عن الذهاب والإياب لأغراض مختلفة، ولا تكاد أصوات العربات والخيول تنقطع، إلا أنه مكان مناسب تماماً. لا يهمه أن ينتبهوا أو لا ينتبهوا إلى وجوده، كل ما يهمه الآن هو أن المكان مظلم وأنهم لا يرونه بينما يرى هو كل شيء. كانت الأضواء التي تنفذ من خلال كل نوافذ المنزل توحي بأن حفلاً ما يُقام في منزل أولسوفي إيفانوفيتش. لكن السيد غوليادكين لم يسمع صوت الموسيقى وهي تعزف إلى تلك اللحظة، فقال في نفسه قلقاً قليلاً: «قد لا تكون حفلة، وإنما دعوة بمناسبة معيّنة». ثم سرعان ما تساءل في نفسه قائلاً: «هل الليلة موعد اللقاء؟ ألم أخطئ في يوم الموعد؟ ربما، كل شيء ممكن... طبعاً، كل شيء ممكن... ربما كتبت الرسالة أمس، ولكني لم أتوصل بها إلا اليوم، وذلك لأن بتروشكا، ذلك الوغد بتروشكا، لم يحملها إليّ أمس... وربما كتبت غداً... أقصد أنها كتبت لكي ينفّذ كل شيء غداً، أي أن أجيء وأنتظر في العربة غداً...». اضطرب السيد غوليادكين حين تصور هذا الاحتمال، فأخذَ يبحث عن الرسالة في جيبه كي يتأكد. ويا لشدة دهشته حين اكتشف أن الرسالة اختفت من جيبه. «ماذا جرى؟» تمتم السيد غوليادكين وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، «أين وضعتها؟ أم أني أضعتها؟ آه، لم يكن ينقصني إلا هذا»، قال في نفسه متألِّماً... «ماذا لو وصلت إلى أيادي أعدائي؟ (بل قد تكون وصلت إليها فعلاً)... يا إلهي، لا أريد أن أتصوّر

كل النتائج التي ستترتب على ذلك... ستكون بمثابة... آه، ما أشقاني!». وأخذ السيد غوليادكين يضطرب حين تذكر أن شبيهه الوقح قد يكون سرق منه الرسالة في تلك اللحظة التي ألقى بمعطفه على رأسه، وذلك بعد أن علم بوجودها عن طريق المتآمرين معه. «هكذا إذاً، إنه يسرق الرسائل أيضاً، بالإضافة إلى كل ما يسرقه»، قال السيد غوليادكين في نفسه... «والدليل هو... وهل هناك حاجة إلى الدليل؟ ألا يكفي كل ما فعله حتى الآن؟...». تجمّد من الرعب في مكانه أول الأمر، ثم ما لبث أن تهيّج من شدة الإحساس بالعجز. وأخذ يتأوّه وتصطك أسنانه، وأمسك رأسه الذي كان يؤلمه ألماً شديداً في تلك اللحظة بيديه، ثم تهاوى فوق قطعة الخشب وهو يفكر... لكن أفكاره كانت مشتتة. فتارة تعبر ذهنه وجوه مختلفة، وتارة يتذكر وقائع كان قد نسيها منذ زمن طويل، وتارة أخرى تبرق في عقله ألحان بعض الأغاني التافهة واضحة كل الوضوح حيناً، ومبهمة تماماً حيناً آخر... كان في حالة من الضيق والقلق تكاد لا تُصدق. «آه يا إلهي، آه، يا إلهي...»، قال بطلنا في نفسه وقد استعاد شيئاً من وعيه وأخذ يحاول أن يخنق نشيجاً في حلقه... «هب شيئاً من القوة لروحي الغارقة في هوة من الشقاء لا قرار لها... لقد ضعت، ضعت تماماً... ضعت لا ريب. هذا واضح تماماً، واضح أني ضعت، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك. لقد فقدت كل شيء... فقدت وظيفتي... فقدتها بلا أدنى شكّ... طيب، لنفرض أني فقدت وظيفتي فعلاً... لقد ادّخرت بعض المال وسيكفيني للعيش لبعض الوقت... سأستأجر غرفة في منزل يستأجر غرفه الأخرى أناس آخرون... وسأؤثثه بأثاث متواضع رخيص... هذا كل ما سأحتاج إليه... أما ذلك الوغد بتروشكا فأستطيع أن

أستغني عنه. . . عندئذٍ سأتمكّن من الخروج والعودة متى شئت، سأرتاح من بتروشكا الذي لا يتوقف عن الغمغمة كلما عدت متأخراً. . . إنها ميزة السكن مع الآخرين. . . طيب، لنقُل إن كل تلك الأشياء حسنة على هذا النحو. . . لكن لماذا أتكلم عن هذا؟ . . . ليس هذا ما أريد أن أتحدث عنه الآن. . .». وفيما هو غارق في افتراضاته وحلوله الممكنة، عاد به فكره فجأة إلى الواقع. أخذ السيد غوليادكين ينظر حوله وهو حائر ممسك رأسه المضطرب بيديه. ثم سمع صوتاً يخاطبه من فوق قائلاً:

- هل تنوي أن تمضي عمّا قريب؟

ارتعش السيد غوليادكين، ورفع عينيه فرأى الحوذي أمامه مبللاً هو الآخر حتى العظام، مرتعد الفرائص. لقد دفعه نفاد صبره بعد أن طال انتظاره إلى أن يعقد عزمه على أن يلقي نظرة على زبونه خلف كومة الحطب.

- أنا. . . لا شيء أيها الرجل الطيب، لا شيء. . . لن أتأخر أيها الرجل الطيب، سأمضي بعد قليل، انتظر قليلاً. . .

ابتعد الحوذي وهو يغمغم بشيء ما. وتساءل السيد غوليادكين دامع العينين: «لماذا يغمغم هكذا؟ ألم أستأجره لليلة بكاملها؟ . . . إنه حقي. . . أليس كذلك؟ لقد استأجرته لليلة بكاملها، وانتهى الأمر. ما دخله هو في أن أبقى أو أن أذهب؟ إنني حرّ في أن أفعل ما أشاء. . . حرّ في أن أبقى وراء كومة الحطب. . . ولا دخل لك في ذلك. . . ما عليك إلا أن تقول لنفسك: إذا كان السيد يرغب في أن يبقى هنا وراء كومة الحطب، فله ما يرغب فيه. . . لن يؤذي بذلك أحداً. . . نعم، نعم، تماماً. . . يجب أن تضعي ذلك صوب عينيك يا آنستي. . . أما عن الكوخ فاعلمي يا آنستي أنه ما من أحد

يسكن أكواخاً في هذا الزمان. . . اعلمي هذا جيداً. . . واعلمي أيضاً يا آنسة أن النجاح مستحيل من دون أخلاق في عصر الصناعة الذي نعيش فيه، وإنك لمثال حي محزن على ذلك. . . إنه لحلم لطيف أن تدعوني الآنسة للعمل كاتباً في إحدى المحاكم وأن نعيش في كوخ على شاطئ البحر[1]. . . ليس هناك وظائف من هذا القبيل على شاطئ البحر يا آنستي. . . وحتى إن وجدت فلن نظفر بها، لا أنت ولا أنا. . . لنفترض مثلاً أني تقدّمت بترشيح نفسي لمثل هذه الوظيفة، وطلبت منهم أن يحموني من عدوي. . . سيجيبونني يا آنسة كما يلي: لدينا ما يكفي من كتّاب المحاكم. . . أما أنت يا آنسة فلست الآن عند المهاجرة فالبالا التي لقّنتكم دروساً في الأخلاق، أنت الآن خير مثال حي محزن عليها. . . فلتعلمي يا آنسة أن الأخلاق الحميدة تقتضي أن تبقى في المنزل، وأن تكوني مفخرة لأبوَيك وشرفاً لهما، وأن لا تتهافتي قبل الأوان وراء الراغبين في الزواج. إن الراغبين في الزواج لن ينقرضوا أبداً يا آنستي. . . فاعلمي ذلك. . . طبعاً ينبغي على الفتاة أن تنمّي عدة مواهب لا غنى لها عنها كالعزف على البيانو، والتكلم بالفرنسية، ومعرفة التاريخ والجغرافيا، ومبادئ الدين المسيحي، والحساب. . . هذا كل ما تحتاجينه يا آنسة. . . ولن تحتاجي إلى أكثر من ذلك، بل ستحتاجين إلى تعلُّم الطبخ أيضاً. . . لا شكّ في ذلك. إن الطبخ يجب أن

---

(1) كانت رسالة كلارا في النص الأول غير المعدّل أطول ممّا وردت في النص المعدّل الذي استغنى فيه الكاتب عن عدة رسائل تجنباً للإطالة التي عابها النقّاد عليه. وكانت تلك الرسالة تتضمن المقطع التالي: سنعيش في كوخ على شاطئ البحر. . . ولن تفشل في العثور على وظيفة ككاتب في إحدى محاكم ضواحي المدينة.

يكون من ضمن ما تتعلمه كل فتاة حسنة التربية. . . اعلمي يا آنسة أنهم لن يسمحوا لك بالذهاب، سيلاحقونك، سيقطعون الطريق عليك، وسيقبضون عليك لا محالة، ويبعثون بك إلى دير من الأديرة. . . فماذا سأفعل في هذه الحالة يا آنستي؟ هل تريدين مني أن أتصرف كما يتصرف بعض أبطال بعض الروايات الألمانية العاطفية السخيفة، أن ألجأ إلى أقرب تل إلى المكان الذي سجنت فيه كي أتأمل سجنك باكياً، وأن أواظب على فعل ذلك كل يوم حتى أموت، كما تفعل شخصيات بعض أولئك الشعراء والروائيين الألمان؟ أهذا ما تريدينه يا آنستي؟. . . فاسمحي أن ألفت نظرك يا آنسة أولاً إلى أن الأمور لا تجري على هذا النحو في الواقع المعيش، وثانياً إلى أنكم، أنت وأبوَيك، تستحقون أن تجلدوا جزاء تلك الروايات الفرنسية السخيفة التي سمحا لك بقراءتها. . . إن مثل تلك الروايات الفرنسية لا تعلّمنا شيئاً ذا أهمية. . . إنها سمّ. . . سمّ زعاف يا آنستي. . . أم أنك تتصورين أننا، أنت وأنا، نستطيع أن نهرب فلا يطالنا عقابهم. . . وأن نلجأ إلى كوخ على شاطئ بحر حيث نخلو إلى نفسينا فنتناجى ونتبادل كلمات الحب المعسولة، ونبقى في عشّنا الدافئ على تلك الحال من الهناء ومن إشباع الرغبات والسعادة. . . إلى أن يولد لنا فرخ صغير. . . عندها نستطيع أن نمضي إلى أبيك. . . أليس كذلك؟. . . أن نمضي إليه ونقول له: لقد أنجبنا هذا الفرخ الصغير يا أبتِ. . . ألا ترى أن الوقت قد حان بهذه المناسبة السعيدة أن تتخلى عن لعننا وأن تصفح عنا وتباركنا؟. . . لا يا آنستي، أعود فأقول لك: ما هكذا تسير الأمور في الواقع المعيش. . . لا تعوّلي يا آنستي على كلمات الحب الرقيقة المعسولة، فالزوج هو السيد في البيت في أيامنا هذه، وعلى الزوجة

أن ترعاه وترضيه. لقد مضى عهد الكلمات الناعمة المعسولة يا آنستي، لا أحد يحرص عليها في هذا العصر، عصر الصناعة... لقد ولّى عصر جان جاك روسو. عصرنا يختلف عن ذلك العصر. الرجل في عصرنا الحالي يعود من عمله إلى منزله جائعاً فيقول لك: هل حضّرت لنا طعاماً أسكت به جوعي يا عزيزتي؟ أريد سمكاً مدخّناً وقليلاً من الفودكا؟... وعليك أن تقدّمي له على الفور السمك المدخّن والفودكا... ويقبل الزوج على الأكل بشهية كبيرة دون أن يخصّك ولو بنظرة واحدة، ويقول: هيا اذهبي إلى المطبخ فوراً يا قطتي الوديعة وحضّري طعام العشاء. سيقبّلك مرة واحدة في كل أسبوع وببرودة تامة... هكذا هي الأمور على أيامنا يا آنستي... نعم، أعود فأكرر: هي قبلة واحدة كل أسبوع وببرودة تامة... هذهِ هي حقيقة الأمور، إذا نظرنا إليها من هذه الزاوية... وما علاقتي أنا بهذا كله؟ لماذا أقحمتني في نزواتك أيتها الآنسة؟... إنك تعتقدين أني رجل كريم مخلص عزيز على قلبك... إلخ، لكن عليك أن تعلمي أني لم أخلق لك، وأنت تعرفين ذلك جيداً، فما أنا بالرجل الخبير في مجال العواطف والكلام الناعم المعسول... إنني لا أحب أن أتغزّل بالنساء بذلك الكلام العاطفي الناعم... ولا أحب أن ألعب دور العاشق العذري، إن شكلي نفسه لا يؤهّلني لألعب هذا الدور... إننا نعترف لكم بكل صدق بأننا لا نحب التباهي والتظاهر بالخجل... نعم، هكذا نحن... إن لنا طبعاً مستقيماً غير متعصّب وفكراً سليماً يبعدنا عن المكائد... لا أحب المكائد على الإطلاق، وإنني لفخور بذلك... تلك حقيقتي... إنني أكره لبس الأقنعة وسط الناس الشرفاء، خلاصة القول إنني...».

انتفض السيد غولياذكين فجأة. وذلك لأن لحية الحوذي المبللة عن آخرها ظهرت له مرة أخرى من وراء كومة الحطب...

- سآتي حالاً أيها الرجل الطيب، سآتي حالاً، نعم حالاً أيها الرجل الطيب. كرّر السيد غولياذكين بصوت مرتعش متردِّد.

حكّ الحوذي رقبته، ثم داعب لحيته، وتقدم نحوه خطوة، وتوقف يتأمله بحذر.

- حالاً أيها الرجل الطيب، سآتي حالاً... انتظر قليلاً أيها الرجل الطيب... لحظة فقط أيها الرجل الطيب...

- أعتقد أنك لا تريد أن تغادر هذا المكان. قال الحوذي وهو يقترب من السيد غولياذكين عازماً أن ينهي الأمر.

- بل سأغادره أيها الرجل الطيب، حالاً سأغادره... ألا ترى أنني أنتظر أيها الرجل الطيب؟

- بلى، ولكن...

- قُل لي أيها الرجل الطيب: من أية قرية أنت؟

- إنني حوذي لدى سيدي...

- وهل سيدك رجل طيب؟...

- بحسب الظروف...

- طيب أيها الرجل الطيب، هلّا انتظرت قليلاً، قليلاً فقط أيها الرجل الطيب؟... قُل لي أيها الرجل الطيب: أأنت في بطرسبورغ منذ مدة طويلة؟

- منذ سنة...

- وهل أنت مسرور بالمقام فيها؟

- بحسب الظروف...

- طيب أيها الرجل الطيب، طيب. احمد الرب على ذلك أيها

الرجل الطيب، واحرص على مرافقة الناس الطيبين دائماً أيها الرجل الطيب. لقد صار الناس الطيبون قلة في هذا الزمان أيها الرجل الطيب... إن الرجل الطيب خيّر بطبعه، يعتني بك، ويوفّر لك الطعام والشراب أيها الرجل الطيب... لكن عليك أن تعلم أيها الرجل الطيب أن المال لا يمنع الدموع عن عيني صاحبه دائماً أيها... وأمامك الآن مثال حي محزن على ذلك... هذه هي الحقيقة أيها الرجل الطيب...

بدا الحوذي وكأنه أشفق على السيد غوليادكين.

- طيب، سأنتظرك، قُل لي يا سيدي هل سأنتظرك كثيراً؟

- لا أيها الرجل الطيب، لا... لن أبقى هنا طويلاً أيها الرجل الطيب... ما رأيك أيها الرجل الطيب؟ سأفعل ما تريده... لن أنتظر هنا...

- هل عدلت عن ركوب العربة؟

- نعم أيها الرجل الطيب، نعم... ولكنني سأكافئك رغم ذلك... كم عليّ أن أؤدّي لك أيها الرجل الطيب؟

- ما اتفقنا عليه يا سيدي. أنت تعرف أني انتظرتك طويلاً يا سيدي... ولا أظن أنك ستبخل على هذا الفقير يا سيدي.

- خذ هذا أيها الرجل الطيب، خذ.

أعطى السيد غوليادكين الحوذي الروبلات الستة المتفق عليها. لقد قرر قراراً لا رجعة فيه، قرر أن لا يستمر في تضييع الوقت، أي أن يمضي إلى حال سبيله دون تردد، لا سيما أن القضية قد حُسمت تماماً، وأن الحوذي قد تلقّى أجره كاملاً ومضى. لم يعد هناك من داعٍ إذاً إلى أن ينتظر. غادر الفناء، وتجاوز باب الدخول، وانعطف إلى اليسار، ثم أخذ يجري وهو لا يلوي على شيء لاهثاً مرتاحاً.

«قد ينتهي كل شيء على أحسن وجه... وعلى كل حال، لقد تفاديت بما أقدمت عليه الآن مصيبة كبرى...». حقاً، لقد أحس السيد غوليادكين فجأة بالطمأنينة. «آه، لو تنتهي الأمور على أحسن وجه»، قال السيد غوليادكين في نفسه دون أن يجرؤ على الاعتقاد بأن الأمور ستنتهي على أحسن وجه. «طيب سأذهب الآن إلى... لا، من الأفضل أن أذهب في الاتجاه الآخر... قد يكون ذلك أفضل... أم ينبغي أن أمضي من هناك؟...»، وبقي السيد غوليادكين على تلك الحال من الشكّ والتردد حتى أشرف على جسر سيميونوفسكي، ولما بلغ جسر سيميونوفسكي قرّر أن يعود من حيث أتى. «هذا أفضل... سأغيّر موقفي، وأتبنى موقف المشاهد المحايد... هذا ما سأفعله... سأتحول إلى مُشاهد محايد وتنتهي القضية... تعالَج نهائياً... تماماً... سأتحول إلى مجرد متفرج، ولن أتدخل في شيء مهما حدث... نعم ذلك ما سأفعله انطلاقاً من هذه اللحظة».

حين قرّ قرار السيد غوليادكين على أن يعود من حيث أتى، عاد فعلاً من حيث أتى. كانت فكرة المشاهد المحايد قد بعثت في قلبه الطمأنينة وساعدته أن يقدم على ما أقدم عليه. «هذا أفضل... لن تكون مسؤولاً عن شيء ممّا يحدث، وستتمكن في الوقت نفسه من أن ترى كل ما يمكنك رأيته... نعم، هذا أحسن».

عاد السيد غوليادكين إلى مكانه من جديد، عاد إلى ذلك المكان المطمئن الحامي وراء كومة الحطب، وأخذ يتأمّل النوافذ بانتباه. لم يدم تأمُّله للنوافذ وانتظاره طويلاً هذه المرة، إذ سرعان ما انتشرت حركة غريبة خلف جميع النوافذ، فظهرت وجوه خلفها بعد أن أزيحت الستائر، وأخذ الضيوف يحتشدون خلف زجاج النوافذ

متطلعين إلى شيء ما في فناء منزل أولسوفي إيفانوفيتش. وما لبث السيد غوليادكين، من جهته، أن أخذ يتطلع من وراء مخبئه خلف كومة الحطب إلى ما يحدث هناك خلف النوافذ وهو يشرئبُّ برأسه يميناً تارة ويساراً تارة أخرى، بقدر ما كان يسمح به ظلّ الكومة الذي يحميه من أن تراه العيون. وفجأة تجمّد في مكانه وهو يرتعش ويكاد ينهار تماماً من شدة الرعب. لقد بدا له... بل لقد كان متأكداً تماماً أن الضيوف لم يكونوا يبحثون من خلف النوافذ عن شيء ما، أو عن شخص معيّن، وإنما يبحثون عنه هو، عن السيد غوليادكين نفسه. كانت جميع الأنظار مصوبة نحوه، وجميع الأصابع تشير إليه. هل عليه أن يهرب؟ مستحيل. سيرونه... وتكوّم على نفسه مرعوباً محاولاً أن يختفي بكامل جسده في ظلّ كومة الحطب، ولكنه اكتشف، عندئذٍ أن ظلّ الكومة الخائن لا يحمي كامل جسده. وتمنّى في تلك اللحظة لو يستطيع أن يختفي تماماً في جُحر فأرة وسط كومة الحطب، وأن يمكث فيه جامداً لا يتحرك... لكن هيهات. وقرر السيد غوليادكين، بعد أن بلغ به اليأس كل مبلغ، أن يتطلع إلى النوافذ كلها، دفعة واحدة. خير له أن يفعل ذلك على أن يبقى حيث هو لا ظاهراً للعيان تماماً ولا مختفياً كل الاختفاء... لكنه ما أن أقدم على ذلك حتى أحس بالخجل... لقد رأوه، رأوا جسده بأكمله، رأوه جميعاً، فأخذوا يلوّحون له بأيديهم ويشيرون برؤوسهم، وينادونه، ويفتحون النوافذ كي يوصلوا أصواتهم إليه، ويبلغوه ما يرغبون في تبليغه إياه... «الكم يدهشني أن لا تجلد فتيات كهؤلاء الفتيات منذ سنّ الطفولة!» غمغم السيد غوليادكين وهو لا يدري كيف ينبغي أن يتصرف. وفجأة ظهر أحدهم على درجات المدخل: إنه هو -أنتم تعرفون من هو طبعاً-. كان حاسر الرأس،

منقطع الأنفاس، يقفز ويكردح، متظاهراً بأنه سعيد بلقاء السيد غوليادكين.

- ياكوف بتروفيتش، ياكوف بتروفيتش، أأنت هنا؟ قال الرجل التافه. ستصاب بنزلة برد يا ياكوف بتروفيتش، فالجو بارد هنا. تعال إلى البيت يا ياكوف بتروفيتش.

- لا... لا يا ياكوف بتروفيتش، لا داعي لذلك يا ياكوف بتروفيتش... غمغم بطلنا بتواضع.

- لا بدَّ أن تدخل يا ياكوف بتروفيتش، إنهم يرجونك أن تتكرم بالدخول... إنهم ينتظرونك. لقد قالوا لي: «من فضلك ائتنا بياكوف بتروفيتش». هذا ما قالوه لي بالحرف الواحد يا عزيزي.

- لا، لا يا ياكوف بتروفيتش، أعتقد أنه من الأفضل... من الأفضل أن أعود إلى منزلي يا ياكوف بتروفيتش... قال بطلنا الذي ارتفعت درجة حرارته، ومع ذلك أخذ يرتعش من الخجل والذعر.

- بْلا بْلا بْلا... غمغم الرجل الكريه. بْلا بْلا بْلا، مستحيل... لماذا تقول إنه شيء مستحيل... هيا تعال ندخل... أردف بصوت حازم حاسم وهو يجرُّ السيد غوليادكين نحو باب المدخل.

أراد السيد غوليادكين الأقدم أن يقاوم، ولكن بما أن الجميع كانوا يتطلعون إليه، وبما أنه سيكون من الغباء أن يتشبث برفضه وأن يقاوم، فقد انتهى إلى أن تقدّم نحو الباب... بل لا نستطيع أن نقول إنه تقدم نحو الباب بمحض إرادته، لأنه في تلك اللحظة لم يكن يعي ما يفعل. ثم إن هذا لا يهم الآن، ما دام قد وجد نفسه في هذا الموقف.

قبل أن يستعيد وعيه ويعتني بهندامه الرسمي قليلاً، وجد بطلنا

نفسه في قاعة الاستقبال. كان شاحب الوجه، مجعّد الثياب، ينظر إلى من حوله بنظرة زائغة. . . يا للهول! لقد كانت غرفة الاستقبال، وما حولها من الغرف، ملأى عن آخرها. ملأى بالرجال وبالنساء في ثياب مزركشة، وكان كل هؤلاء يهرعون إليه، ويحتشدون حوله، ويدفعون السيد غوليادكين الذي أدرك بوضوح أنهم يوجّهونه نحو ركن من أركان القاعة. «إنهم لا يدفعونني نحو الباب رغم ذلك» لاحظَ السيد غوليادكين. فعلاً، لم يدفعوه نحو الباب، ولكن نحو المقعد الوثير الذي يجلس عليه أولسوفي إيفانوفيتش. على يمين ذلك المقعد كانت تجلس كلارا أولسوفييفنا شاحبة الوجه، متعبة، رغم أناقتها المذهلة. وانتبه بطلنا، بشكل خاص، إلى تلك الأزهار الصغيرة البيضاء التي غرستها في شعرها الأسود، والتي أثارت إعجابه. وعلى يسار المقعد كان يجلس فلاديمير سيميونوفيتش في فراك أسود علّق على عروته وسام جديد. كان يمسكه من إحدى يديه (ويقاد نحو أولسوفي إيفانوفيتش كما سبق القول سابقاً) السيد غوليادكين الأصغر مصطنعاً هيئة تناسب الموقف تماماً، هيئة كلها وقار وعناية، ممّا سرَّ بطلنا سروراً عظيماً، ومن اليد الأخرى أندريه فيليبوفيتش الذي كان وجهه يعبِّر عن الفخامة. «ماذا سيحدث يا ترى؟» قال السيد غوليادكين في نفسه. ولكن حين أدرك أنه يُقاد نحو أولسوفي إيفانوفيتش خطرت بباله المشوش تلك الرسالة التي سرقت منه فيما يبدو، رسالة كلارا أولسوفييفنا. . . وها هو ذا يُقاد نحو مقعد أولسوفي إيفانوفيتش كالمحتضر. «ما العمل الآن؟» قال في نفسه، «اللعنة، لماذا لا أكون صريحاً، لا شيء أفضل من الصراحة طبعاً، لا شيء أفضل من الصراحة التي لا تخلو من نبل. . . سأقول كل شيء، كل شيء، سأقول له كذا وكذا، إلى آخر ما هنالك من

كلام ينبغي أن يُقال...»، لكن يبدو أن ما كان السيد غوليادكين يخشاه لم يقع. فقد استقبله أولسوفي إيفانوفيتش استقبالاً لائقاً، صحيح أنه لم يمد له مصافحاً، ولكنه هزّ رأسه الصغير الجدير بالاحترام... هزّه بطريقة لا تخلو من الأبّهة والاحترام في الوقت نفسه وهو ينظر إليه. هذا ما بدا للسيد غوليادكين على الأقل، بل بدا له أيضاً أن دمعة قد ترقرقت في عينَي أولسوفي إيفانوفيتش، وفي عيني كلارا أولسوفييفنا هي الأخرى... وأن شيئاً يشبه ذلك قد لمع في نظرة فلاديمير سيميونوفيتش... وأن أندريه فيليبوفيتش المعروف برصانته ورباطة جأشه ووقاره قد تأثّر بالموقف أشد تأثر... أما ذلك الفتى الذي سبق وأن أشرنا إلى أنه يبدو بهيئته الوقورة الرصينة كمستشار من مستشاري الدولة، فقد شرع أمام ذلك المشهد يبكي بمرارة... على أن هذا كله ربما لم يكن إلا وهماً من صنع خيال السيد غوليادكين، لأنه كان قد انخرط هو أيضاً في البكاء بدموع غزيرة تنهمر حارّة فوق خديه الباردين... شعر السيد غوليادكين في تلك اللحظة بأنه تصالح مع الإنسانية جمعاء ومع قدره، وبأن الحب يغمره، لا حب أولسوفي إيفانوفيتش وحده، وإنما حب جميع الضيوف بلا استثناء، بل حتى حب شبيهه الشرير الذي لم يعد يراه شريراً أو متشبِّهاً به، وإنما شخصاً عادياً تماماً ومحبوباً. أراد أن يتوجّه بالكلام إلى أولسوفي إيفانوفيتش في لحظة تدفّقت فيها مشاعره، لكن ازدحام المشاعر في نفسه حال بينه وبين أن يتمكّن من الكلام، فاكتفى بأن وضع يده على قلبه بحركة معبِّرة في صمت. ولكي يجنِّب أندريه فيليبوفيتش أولسوفي إيفانوفيتش الشيخَ الأشيب وقع الانفعالات العنيفة، قاد بطلنا إلى أحد أركان القاعة وتركه هناك حرّاً وحيداً. وأخذ بطلنا يشق طريقه وسط الضيوف وهو يبتسم ويكلِّم

نفسه وقد اندهش بعض الاندهاش، وتصالح مع الإنسانية جمعاء ومع القدر تصالحاً يكاد يكون تاماً. كان الضيوف يفسحون له كلّما اقترب من صفوفهم، وهم ينظرون إليه بفضول واهتمام بالغ عجيب. مضى السيد غوليادكين إلى غرفة أخرى مجاورة... وهناك استقبل بمثل ما استقبل به في الغرفة الأخرى. كان يشعر شعوراً غامضاً بأن عدداً كبيراً من الضيوف يسيرون وراءه، وأن العيون تراقب كل خطوة من خطواته وكل حركة من حركاته، وأنهم جميعاً يتهامسون بشيء يبدو أنه يهمّهم غاية الأهمية، ويهشّون رؤوسهم، ويتجاذبون أطراف الحديث، ويتجادلون، ويعبِّرون عن آرائهم بطلاقة، أو يعبِّرون عن دهشتهم. وتمنى السيد غوليادكين لو يعرف عمّا يتحدثون هامسين، وممّا هم مندهشون. التفت فرأى السيد غوليادكين الأصغر. فشعر برغبة ملحّة في أن يمسك يده وأن ينتحي به جانباً، وأن يرجوه أن يساعده في كل ما سيقدم عليه، وأن لا يتخلّى عنه في أية لحظة حرجة. هزّ السيد غوليادكين الأصغر رأسه برزانة، وشدّ على يد السيد غوليادكين الأكبر بقوة. أحس بطلنا بقلبه يخفق بقوة وسرعة من شدة الانفعال. وأحس في الوقت نفسه بأنه يختنق جراء كل تلك النظرات الملحّة المتسائلة، المصوّبة نحوه... ورأى السيد غوليادكين عرضاً ذلك المستشار الذي سبق وأن رآه في الحفلة في منزل أولسوفي إيفانوفيتش، ذاك الذي يضع على رأسه شعراً مستعاراً. كان ذلك المستشار يرمقه بنظرة قاسية متهمة، لا تتفق ونظرات العطف التي سادت القاعة قبل قليل. أراد السيد غوليادكين أن يذهب إليه، كي يبتسم في وجهه ويحاول أن يعرف سبب تلك النظرات العدائية على الفور، لكنه لم يستطع. وأتت لحظة فقد السيد غوليادكين خلالها وعيه وذاكرته وإحساسه... وحين استعاد وعيه،

وجد نفسه يطوف وسط جماعة من الضيوف تحيط به. وفجأة نادى أحدهم السيد غوليادكين من الغرفة المجاورة. سمع ذلك النداء كل الضيوف. عمّت الحركة كل من في القاعة، فأسرعوا نحو باب الصالون الأول وهم يكادون يحملون السيد غوليادكين حملاً نحو ذلك الباب، بينما ذلك المستشار ذو الشعر المستعار والقلب القاسي يمشي إلى جنبه لا يفارقه. وتناول المستشار يد السيد غوليادكين، وأجلسه إلى جانبه، أمام مقعد أولسوفي إيفانوفيتش، لكن على مسافة محترمة منه. وجلس كل الضيوف حول السيد غوليادكين وأولسوفي إيفانوفيتش في عدة صفوف. وسكتوا عن الكلام منتبهين. التزموا الصمت جميعاً وهم ينظرون إلى أولسوفي إيفانوفيتش مترقّبين وقوع شيء غير معتاد. ولاحظَ السيد غوليادكين أن السيد غوليادكين الآخر وأندريه فيليبوفيتش قد جلسا إلى جانبَي مقعد أولسوفي إيفانوفيتش، أمام المستشار. طال الصمت. إنهم يترقّبون شيئاً ما بالفعل... «تماماً كما يحدث في الأسر الروسية عندما يستعد أحد أفرادها لسفر طويل[1]، لم يبقَ الآن إلا أن ينهضوا ويصلّوا...»، قال السيد غوليادكين في نفسه. وفجأة حدث بين الضيوف شيء غريب حملَ السيد غوليادكين على أن يقطع حبل أفكاره، شيء كان متوقعاً منذ وقت طويل. «لقد وصل... لقد وصل»، سُمع صوت يصيح وسط الضيوف. «من ذا الذي وصل؟» تساءل السيد غوليادكين في نفسه، وأخذ يرتعش جراء إحساس غريب. «حان الوقت» قال المستشار وهو ينظر إلى أندريه فيليبوفيتش. نظر هذا الأخير إلى أولسوفي

---

(1) كانت العادة في روسيا أن تجلس الأسرة كلها، ومن ضمنها من سيسافر سفراً طويلاً، صامتين دقيقتَين اثنتَين، يرسمون بعدها شارة الصليب.

إيفانوفيتش. فأشار أولسوفي إيفانوفيتش إلى الضيوف برأسه إشارة حازمة. «لنقف جميعاً» قال المستشار وهو يلمس ذراع السيد غوليادكين. قاموا جميعاً. تناول المستشار يد السيد غوليادكين الأكبر، بينما تناول أندريه فيليبوفيتش يد السيد غوليادكين الأصغر. وقادا الشبيهَين بوقار وسط الجمهور الذي كان يفسح لهما ويتبعهما منتظراً بشغف. ونظر بطلنا حوله مندهشاً، إلا أنه دُعي إلى الانتباه، وأشير له نحو السيد غوليادكين الأصغر الذي كان قد مدّ له يده. «لا شكّ أنهم يريدون المصالحة بيننا» قال بطلنا في نفسه، ومدّ يده هو أيضاً إلى السيد غوليادكين الأصغر وقد غمره الانفعال؛ وبعد ذلك... بعد ذلك مدّ له وجهه؛ ففعل غوليادكين الآخر الشيء نفسه... بدا للسيد غوليادكين الأكبر أن رفيقه الغدّار قد أخذ يبتسم، ويغمز من يحيطون بهما بوقاحة، وأن تقاسيم وجهه تعبِّر عن شيء دنيء، بل إنه يقوم بحركات معيّنة بوجهه وهو يقبّله قبلة يهوذا... أحس السيد غوليادكين الأكبر كأن أبواقاً تزعق في دماغه، ملايين الأبواق، وأنه يكاد يُغشى عليه. وخيل إليه أنه يرى مجموعة من الغوليادكينات يشبه بعضها بعضاً كل الشبه. كانت تلك المجموعة من الغوليادكينات تهرع كلها، دفعة واحدة، نحو أبواب القاعة... لكن كان الأوان قد فات... كان صدى القُبلة الخائنة يتردد في كل أرجاء القاعة، و...

ووقع ما لم يكن في الحسبان قطّ... انفتحت أبواب القاعة عن آخرها فجأة، وظهر على العتبة شخص تجمّد السيد غوليادكين تماماً عند رؤيته. عجز السيد غوليادكين عن الحركة، واختنقت في حلقه صرخة قهر، رغم أنه كان قد خمن وقوع شيء كهذا منذ زمن طويل. تقدّم الغريب بخطى واثقة منتظمة نحو السيد غوليادكين... إن السيد

غوليادكين يعرف هذا الوجه جيداً. لقد سبق أن رآه، أن رآه مراراً، بل لقد رآه في هذا اليوم بالذات... كان الغريب طويل القامة، بديناً، يرتدي فراكاً أسود، وحول عنقه وسام مهم، ذا عوارض سوداء، لم يكن ينقصه إلا السيجار بين شفتَيه لتكتمل الصورة تماماً ويصبح الشبه مطلقاً... لكن نظرة الغريب كادت تجمّد السيد غوليادكين من الرعب. اقترب ذلك الشخص الرهيب من بطلنا واثق الخطوات رصيناً وقوراً. مدّ بطلنا يده للغريب، فأمسكها الغريب وجرّها نحوه... أخذ بطلنا ينظر إلى الحضور حائراً منهاراً.

«إنه كريستيان إيفانوفيتش روتينبز، الطبيب الجرّاح، إنه صديقك القديم يا ياكوف بتروفيتش» همس في أذنه صوت بغيض. التفتَ نحو صاحب الصوت. إنه صوت ذلك الشخص البغيض، خبيث النفس، توأمه. كان وجه هذا الأخير يشعُّ بفرح وقح قبيح، وكان يفرك يديه في سرور، ويلتفت إلى كل أرجاء القاعة مرحاً، وينتقل بين الضيوف بخفّة ومرح، بل كان من المرح بحيث يخيل لمن يراه أنه سيشرع في الرقص تعبيراً عن حماسته ومرحه. وفجأة قفز إلى الأمام، وانتزع من يد أحد الخدم شمعة وتقدّم يضيء الطريق أمام كريستيان إيفانوفيتش والسيد غوليادكين معاً. أدرك السيد غوليادكين بوضوح أن كل من في القاعة يتبعونه، ويتدافعون مردّدين بصوت واحد: «لا تخف يا ياكوف بتروفيتش، لا شيء يبعث على ذلك... إنه صديقك القديم كريستيان روتينبز...». وها هم يخرجون جميعاً في موكب واحد متوجّهين نحو الفناء، ثم توجّهوا نحو السلَّم المضاء بعناية، وهناك أيضاً كان الحشد غفيراً. وانفتح باب المدخل على مصراعيه فوجد السيد غوليادكين وكريستيان روتينبز نفسيهما على درجات المدخل. كانت تقف أمام عتبة المنزل عربة تجرها أحصنة أربعة تعبت من طول

الانتظار فأخذت تكذف. ونزل السيد غوليادكين الأصغر الأدراج مسرعاً قافزاً، ففتح لهما باب العربة بنفسه. دعا كريستيان روتينبز السيد غولياذكين إلى الصعود بإشارة مقنعة. والحال أن إقناع بطلنا بالصعود إلى العربة بتلك الإشارة لم يكن ضرورياً، لأن ملاحقة نظرات الناس له كان يكفي كي يدفعه إلى أن يصعد إلى العربة. التفت السيد غولياذكين مذعوراً، فرأى السلّم المضاء بعناية يعجُّ بالناس وهم ينظرون إليه بفضول. وكان أولسوفي إيفانوفيتش نفسه يرأس الاحتفال من على فسحة السلَّم. كان جالساً على مقعده، مقعد المشلول[1]، ويتابع المشهد باهتمام بالغ. وكان جميع الناس ينتظرون. فلما التفت بطلنا سرتْ في الحشد همسات تعبِّر عن نفاد صبر أصحابها.

- أرجو أن لا يكون في هذا كله ما يبعث على اللوم... أو ما يثير القسوة، ويلفت الانتباه إلى حياتي العامة وعلاقاتي الرسمية؟ قال السيد غولياذكين مضطرباً حائراً. وارتفعت من حوله أصوات تنفي ذلك، وتحرّكت رؤوس معبِّرة عن النفي هي الأخرى. وانبجست الدموع من عيني السيد غولياذكين.

- ما دام الأمر كذلك فأنا مستعد... أن أضع مصيري كله بين يدي كريستيان إيفانوفيتش...

---

(1) يبدو أن دوستويفسكي قد نسي ما كتبه قبل ذلك عن أولسوفي إيفانوفيتش وكيف أنه كان يجلس على مقعد مريح. ليس النسيان بالشيء الغريب على دوستويفسكي، ففي رواية **المراهق** مثلاً بلغ النسيان بدوستويفسكي حدّ أنه منح أحد شخصيات الرواية في جزئها الثاني اسماً آخر مختلفاً تماماً عن الاسم الذي حملته طوال الجزء الأول من الرواية (داريا أونيسيموفا في الجزء الأول؛ ناستاسيا إيغوروفنا في الجزء الثاني).

ما أن أعلن السيد غوليادكين عن استعداده لأن يضع مصيره بين يدي كريستيان إيفانوفيتش، حتى أطلق كل من كانوا يحيطون به صيحات فرح مدوية، صيحات سرى صداها في الحشد الذي كان ينتظر ما سيقع. عندئذٍ أمسك كريستيان إيفانوفيتش من جهة، وأندريه فيليبوفيتش من جهة أخرى، السيدَ غوليادكين من ذراعيه، وأركباه العربة. أما ذلك الشبيه، شبيه السيد غوليادكين، فأخذ يدفعه من الخلف على عادته الكريهة. وألقى السيد غوليادكين سيّئ الحظ نظرة أخيرة على كل ما ومن حوله وهو يرتعد كهُرير صبّ عليه الماء البارد -إذا سمح لنا بهذا التشبيه- وصعد في العربة، وتبعه كريستيان إيفانوفيتش فجلس بجانبه. أغلق الباب عليهما، وسُمعت قرقعة سوط الحوذي على خواصر الأحصنة التي انطلقت تعدو على الفور... فعدى خلفها كل الحاضرين. سمع السيد غوليادكين أصوات أعدائه الحادة المتوحشة تلاحقه معبِّرة عن توديعه بتلك الطريقة الخاصة. ورأى بعضهم يجرون قرب العربة، لكنهم سرعان ما تعبوا، فاختفوا شيئاً فشيئاً. كان شبيه السيد غوليادكين آخر من ابتعدت عنه العربة. بدا سعيداً وهو يجري إلى جانبها واضعاً يديه في جيبَي سروال لباسه الرسمي الأخضر. كان يتحوّل من جانب العربة إلى جانبها الآخر متشبّثاً بأحد أبوابها، حاشراً رأسه فيها من حين إلى آخر، وهو يبعث للسيد غوليادكين ببعض القُبل تعبيراً عن الوداع. لكنه سرعان ما تعب هو أيضاً، فلم يعد السيد غوليادكين يرى وجهه إلا نادراً، إلى أن اختفى تماماً كما اختفى كل من كانوا يجرون خلف العربة من قبله. أحس السيد غوليادكين بقلبه يخفق خفقاناً شديداً وبأنه يختنق. فودّ لو يفكّ أزرار سترته، لو يعرّي صدره، لو يطفئ النار المشتعلة في صدره بالماء البارد والثلج. ولم يلبث أن غاب عن وعيه... وحين

عاد إلى وعيه رأى أن العربة تمضي في طريق لا يعرفها. كان على اليمين وعلى اليسار غابات خالية من الناس ومن الأصوات. وتجمّد في مكانه حين رأى عينَين حمراوين كأنهما لهب تنظران إليه في الظلام، عينَين يبرق فيهما فرح جهنمي مخيف. ليس هذا كريستيان إيفانوفيتش... فمن هو يا ترى؟ أم أنه كريستيان إيفانوفيتش نفسه؟ إنه هو. إنه كريستيان إيفانوفيتش، لكنه ليس كريستيان إيفانوفيتش كما عرفه. إنه كريستيان إيفانوفيتش آخر. إنه كريستيان إيفانوفيتش مُرعب.

- أنا يا كريستيان إيفانوفيتش... يبدو لي أنني يا كريستيان إيفانوفيتش... شرع بطلنا يقول بخجل واضطراب راغباً في أن يرقّ له قلب الطبيب الرهيب قليلاً بما يبديه من خضوع واستسلام.

أجابه كريستيان إيفانوفيتش بجواب قاسٍ لا يعرف الرحمة، جواب كأنه حكم من أحكام المحكمة:

- شيكون لك مشكن بالمشان، على حشاب التولة، مع متفئة، مع أنك لا تشتحك تلك[1].

صرخ بطلنا صرخة مدوية، وأمسك رأسه بكلتا يديه... للأسف، لقد وقع ما استشعره منذ وقت طويل!

---

(1) يتكلم الطبيب الروسية بلكنة ألمانية، قائلاً: سيكون لك مسكن بالمجان، على حساب الدولة، مع مدفئة، مع أنك لا تستحق ذلك. في حين أن الأمر لم يكن كذلك في بداية الرواية.

صدرت رواية **المُزدَوَج**، العمل الثاني لدوستويفكسي، أوائل عام 1846 أي أياماً فقط بعد النجاح الكبير الذي حققته رواية **الفقراء**. ويطرح هذا الكتاب موضوع الجنون، وهو أحد المواضيع الأثيرة لدى دوستويفسكي في رواياته الكبرى اللاحقة.

تصوِّر لنا هذه الرواية الصراع الداخلي الذي يعتمل في نفس ياكوف بتروفيتش غوليادكين، موظف في إحدى إدارات مدينة بطرسبورغ انقلبت حياته رأساً على عقب عند ظهور شخص يشبهه تماماً، ويكيد له ويحتل شيئاً فشيئاً مكانته في العمل والمنزل، إلى أن يدفع بحياته إلى الانهيار التام. ولعلّ أهم ما أثّر في السيد غوليادكين وأثار دهشته أن الناس من حوله، وعلى رأسهم رئيسه في العمل وخادمه بتروشكا، لم يبدُ عليهم أنهم صُدموا بظهور هذا الشبيه، واعتبروه مجرد رجل يشبهه وعاملوه على هذا الأساس.

إن اعتماد دوستويفسكي على تقنية الحوار الداخلي بشكلٍ مكثّف في هذه الرواية مكّنه من أن يسبر أغوار شخصية بطله، وأن يتغلغل في نفسيته التي غيّرها دخول هذا الآخر، مكرّساً بذلك عبقريته في تحليل النفس الإنسانية، حيث قال عنه نيتشه: «دوستويفسكي هو الكاتب الوحيد الذي تعلمتُ منه شيئاً من علم النفس».

على الرغم من أن رواية **المُزدَوَج** ليست من أعمال دوستويفكسي الأكثر شهرة، إلّا أنها تُعتبر الحجر الأساس في أسلوبه المتفرّد، حتى أن فلاديمير نابوكوف قال إنها «أعظم كتاب كتبه دوستويفسكي».

ترجمة: الجيلالي مويري


ISBN 978-9953-68-889-3



الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com